أدبيات
نبع الآداب والثقافة المعاصرة

مناظرات على الورق

"الجزء الأول"

Looloo
www.dvd4arab.com

يوسف ميخائيل اسعد

المقدمة

إن الباعث الذى اعتمل فى ذهنى لتأليف هذا الكتاب ، هو الحنين إلى تلك المناظرات التى كنا نعقدها أيام كنا طلبة بالمرحلة الثانوية خلال الأربعينيات ، حول الموضوعات التى كانت تهمنا فى ذلك الوقت . فكان المتناظرون ينقسمون إلى فريقين : فريق مؤيد ، وفريق آخر معارض . وكان كل فريق من الفريقين يتكون من طالبين أو من ثلاثة طلاب . وكان طلبة المدرسة جميعًا يُدْعون لحضور المناظرة بالمدرج الكبير بعد الإعلان عنها قبل عقدها بحوالى أسبوع على لوحة الإعلانات وفى طابور الصباح . وكان مدرس اللغة العربية هو حكم المناظرة بالطبع .

وحيث إن الماضى لا يمكن أن يعود ، ولا يمكن أن نعيش إلا على الذكريات المتعلقة به ، لذا فإنى عزمت على عقد مجموعة من المناظرات حول موضوعات حية تهمنا فى الوقت الراهن ، وقد جعلت من نفسى مؤيدًا ومعارضًا فى الوقت نفسه . على أنى تركت الحكم النهائى بإزاء كل مناظرة للقارئ ، وذلك حتى أتحرر أنا شخصيًا من التحيز لأى كفة من كفتى كل مناظرة .

أما المنهج الذى اتبعته فى تأليف هذه المناظرات ، فهو المنهج الاستدعائى الترابطى التلقائى . فلم أقم بإعداد مُسْبَق لنقاط سوف تدور حولها المساجلة بين المؤيد والمعارض فى كل مناظرة ، بل تركت للسياق السيادة فى إدارة دفة السجال . فلقد كنت أناقش نفسى ، وأعترض على ما أذكره من رأى ، فأجد أن من الممكن تفنيده برأى مضاد له . وبذا فإنى أكون قد قمت بعملية ديالكتيكية ذهنية ، ولكن هذا الديالكتيك الذى قمت به ، لم يكن لينتهى إلى حل وسط بين الموقفين المتعارضين . وقد تعمدت ذلك حتى أتيح للقراء الفرصة لمن

Looloo
www.dvd4arab.com

يرغب منهم فى الانضمام إلى موقف من الموقفين المتعارضين . ولقد تكون هذه المناظرات الخمسة عشر عاملاً مثيراً لعقد المناظرات الكثيرة والمتواترة ، ولإحياء هذا التراث الثقافى المنشط للفكر ، والمثير للحماس بين الشباب فى المدارس والمعاهد والكليات والأندية الثقافية حتى يُعْملوا فكرهم فى المواقف والمشكلات التى تجابههم فى الحياة .

والواقع أن المتصفح لفهرس هذا الكتاب ، سوف يجد أن المشكلات التى صارت موضوعات للخمس عشرة مناظرة التى يحتويها ، هى فى رأيى أهم ما يدور من مناقشات بين الناس فى مجالسهم الخاصة ، ولما يحتل بؤرة اهتمامهم . ولعلى أكون بتقديم هذه المناظرات ، قد ساهمت فى إثراء عقول المتناظرين ، أو على الأقل أكون قد ساهمت بتقديم بعض الإضافات إلى الحجج التى يُدْلون بها فى مناظراتهم التلقائية التى تنشأ فى مجالسهم الخاصة .

ولعلى بهذا العمل ، أكون قد ساهمت فى تنشيط منهج من مناهج الفكر ، فيساهم الزملاء من الكتّاب باتباعه فى بعض ما يقومون بكتابته ، حتى يتسنى إشعال جذوة الاحتكاكات الذهنية والمعارك الفكرية التى إما أن تكون بين شخصين موجودين بالفعل ، وإما أن تكون بين المفكر وبين نفسه على الورق كما فعلنا فى هذا الكتاب .

ولقد يسألنى من يقوم بقراءة هذا العمل : وأين موقفك أنت إذن ؟ ولقد يتجه النقد إلى الطعن فى المنهج نفسه ، فيُتّهم من يتبعه بأنه شخص إمّعة ، أى لا رأى له ، ولكن الواقع أن مثل هذا النقد المتوقّع مردود عليه ، بأن سقراط أبا الفلاسفة نفسه ، كان يتبع منهجاً شبيهاً بهذا المنهج ، هو منهج التوليد ، حيث كان يستثير الفكر لدى من يقابلهم فى السوق ، ويأخذ فى مناقشة إحدى القضايا ونقيضها ، وقد قدم لنا أفلاطون محاوراته متضمنة شيئاً مما كان سقراط يقوم به من مناقشات أو محاورات .

٢٠ مارس ١٩٩٥ يوسف ميخائيل أسعد

المناظرة الأولى

المرأة مكانها البيت ، وليس من حقها أن تشتغل بأى عمل أو أن تمارس أى نشاط خارج نطاق الأسرة .

المؤيد : لست بحاجة إلى أن أقدم حججاً كثيرة أستقيها من المراجع والكتب ، ولكن الواقع الذى نشاهده بأعيننا ، ونستمع إليه بآذاننا ، هو أقوى برهان نؤيد به ما نذهب إليه من أن المكان الوحيد المناسب للمرأة هو بيتها ، وأن أى مسئولية تضاف إليها ، فيه افتئات على أنوثتها ، بل وحطٌ من كرامتها ، وخروج بها عن طبيعتها التى جبلت عليها .

المعارض : مهلاً صديقى . إن الدنيا تغيّرت ، والمرأة اليوم غير المرأة التى عاشت فى الأزمنة الخوالى أيام ستى وستك ، وخلال عهد الحريم ، الذى كانت المرأة تُحْجب خلاله خلف المشْربيات ، حيث كن يتجسّسْن من ورائها للوقوف على الأحداث والوقائع التى تمر أمام أعينهن المخبوءة وراء تلك الأستار الكثيفة . ألست تخجل عندما تعلن دعوة كهذه ، وتناشد الناس أن يرجعوا إلى عهود الظلام والاستبداد ، فى حين تربّعت أكثر من امرأة فوق دستّ الرئاسة بأكثر من دولة ، وصارت تدير شئون بلادها بكفاءة ؟ ألست ترى أن نساء كثيرات فى بلادنا ، قد أصبحن ينافسْن الرجال بجدارة فى جميع الشئون الفنية والإدارية والسياسية ؟ هل تريد يا سيدى أن تحرم المجتمع من نصف طاقته الإنتاجية ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

المؤيد : إنك بالأسف تستشهد بقلّة من السيدات المترجّلات اللاّئى تنازلن عن أنوثتهن ، وانخرطن فى الحياة العملية ، التى تحتاج إلى الاخشوشان والرجولة . ألست تعلم أن بعض النساء قد حملن فى قوامهن جينات ذكرية ، تعادل ما يحملنه من جينات أنثية ؟ إن شهادة الميلاد لا تكفى وحدها لتحديد نوعية المرء . فالكثير من النساء هن أقرب ما يكُنّ إلى الذكورة ، كما أن الكثير من الرجال هم أقرب ما يكونون إلى الأنوثة . فما ذكرته من أمثلة تتعلق بالنساء اللاّتى يلعبن دورًا فى السياسة ، أو فى الشئون العامة ، ويحملن المسئوليات الضخام ، إنما هن فى الواقع إناث تلبَّسن بأشكال الإناث ، بينما هن فى الواقع ، إما أميل إلى الذكورة ، وإما أنهن أقرب إلى التخنث ، أى أنهن يقعن فى موقع وسط بين الأنوثة والذكورة .

المعارض : مهلاً يا سيدى . إنك تُلْقى الكلام على عواهنه ، بل إنك تعمم حيث لا ينبغى التعميم ، وتستشهد ببعض الشاذات من النساء ، اللاّئى لا يزيد عددهن عن عدد أصابع اليد الواحدة ، وهن لذلك نُدْرة يجب ألا نقيس جميع المشتغلات على حالاتهن . إنك بالإضافة إلى ذلك تجترئ فى الواقع بجانب واحد من شخصية المرأة ، هو الجانب البيولوجى ، وتتناسى باقى الجوانب الأساسية الأخرى ، التى لا تقل أهمية وخطورة عن القوام البيولوجى . فثمة الجانب العقلى ، والجانب الوجدانى ، والجانب الاجتماعى ، والجانب التراكبى ، وهى الجوانب التى على أساسها — بالإضافة إلى الجانب البيولوجى الذى تتحيز له ولا تعترف إلا به — تتحدد شخصية المرء ، سواء كانت أنثى أم ذكرًا .

المؤيد : أولاً أنا لم أعرف ماذا تقصد بالجانب التراكبى ؟ وعلى أية حال فإننا نحن نعترف لك بوجود واعتمال الجانب العقلى ،

والجانب الوجدانى ، والجانب الاجتماعى — إلى جانب الجانب البيولوجى — فى شخصية المرء ، بغض النظر عن جنسه ، ولكن لعلمك قبل أن توضح لنا ما تقصده أنت بالجانب التراكبى ، فإن هذه الجوانب الثلاثة التى نعترف بها ، إنما هى مجرد انبثاق من القوام البيولوجى للمرء .

المعارض : أنا أقصد بالجانب التراكبى أن الشخصية — سواء كانت شخصية امرأة أم شخصية رجل — ليست كالإسفنجة التى تتشرب ما يقدم إليها من خبرات ، وإنما هى شبيهة بالمعدة التى تلعب دورًا أساسيًا فى عمليات الهضم ، بالاشتراك مع باقى أجهزة الجهاز الهضمى . فما يتلقاه المرء من مؤثرات خبرية من الواقع الاجتماعى المحيط به ، سواء كان واقعًا مباشرًا أم واقعًا غير مباشر بواسطة الرموز المسموعة والرموز المقروءة ، لا يظل على حاله ، بل ينخرط فى سلسلة من التفاعلات الخبرية ، يتأتى عنها قوام جديد . وحيث إن كل شخصية تتفرد بتفاعلات خبرية خاصة بها ، لذا فإن النتاج الخبرى ، الذى يتأتى لكل فرد بالمجتمع — بغض النظر عن جنسه — يكون متميزًا عما يتأتى لسواه . أما ما تزعمه من انبثاق المقومات العقلية والوجدانية والاجتماعية من القوام البيولوجى للمرء ، فهو شبيه بالزعم بأن الفلسفة والعلم والأدب ليست سوى انبثاق من حروف الهجاء . فهى وإن كانت بالفعل مترتبة على حروف الهجاء ، فإن العمليات الذهنية ، والتفاعلات الكلامية التى تحدث بين حروف الهجاء بعضها وبعض ، تُفضى إلى قوام جديد تمامًا مباين تمام التباين لحروف الهجاء . ودعنى أقدم إليك تشبيهًا آخر ، هو أن النار التى تحدث نتيجة احتراق الخشب ، ذات طبيعة مباينة جوهريًا لطبيعة الخشب ، وإن كانت تتأتى عنه . فما تزعمه من انبثاق المقومات

www.dvd4arab.com

العقلية والوجدانية والاجتماعية ، كما يحدث فى حالة انبثاق الترعة من النهر لأن ماء الترعة هو بعينه ماء النهر ، هو ما لا نوافقك عليه .

المؤيد : أظن أنك استطردت أكثر من اللازم ، وأخشى أن تكون قد خرجت بذلك عن حدود المناظرة . ولكن دعنى أعود بك إلى صلب الموضوع . فما أريد أن أوكده هو أن المرأة تختلف من حيث طبيعتها عن طبيعة الرجل . وبتعبير آخر ، فإن المرأة قد خلقت أساسا لكى تحمل وتلد أطفالا . ولكن ميلاد الطفل ، لا يعنى مجرّد تخلص المرأة من انتفاخ بطنها ، والإلقاء بالمولود إلى أى شخص أو إلى أى مؤسسة لتضطلع برعايته ، وبالتالى عدم تحمل مسئولية العناية به عبْر مراحل نموه التالية لميلاده . الواقع أن النظرة إلى البنت منذ لحظة ميلادها ، يجب أن تكون منصبة على مستقبلها كأنثى ، سوف تتزوج وتحمل وتلد أطفالا ، وسوف تقوم برعاية من تلدهم . أما أن نحصر فكرنا فى نطاق ضيق ، هو حقوق المرأة ماديا وأدبيا فحسب ، ونتناسى واجباتها كأنثى ، خلقت لكى تحمل وتلد وترعى من تلدهم من أطفال ، فهذا هو الخطأ بعينه ، وهو أيضا المروق عن نطاق الحق الذى يتحتم اتباعه .

المعارض : آسف أن أقول لك ، إنك نسيت أو تناسيت حقيقة هامة ، وهى أن تربية الطفل ورعايته فى ظل الحضارة التى تظلنا ، ونعيش فى كنفها ، تختلف اختلافا جذريا عن تربية الطفل فى عصور المجتمعات البدائية . فلقد كانت التربية فى تلك المجتمعات البدائية تتم بالتلقائية والعفوية ، أو قل إنها كانت جزءا لا يتجزأ من غريزة الأمومة . ذلك أن المجتمع البدائى كان مجتمعا فجًا بسيطا ، ولم تكن التربية التى يحتاج إليها الطفل بحاجة إلى تخصص علمى ، أو إلى فنون لا تستطيع الأم الحديثة المتحضرة أن تضطلع بها . فلقد كان

شأن التربية هنالك شأن الطب البدائى . فالمجتمع البدائى لم يكن بحاجة إلى تخصص طبى ، بل كانت الأم والأب يضطلعان بمعالجة أولادهما بالوسائل البدائية ، أو بالفنون السحرية التى كان يُزْعم أنها تشفى المريض بتلاوة بعض الرُقى والتعاويذ السحرية . ولكن مع تقدم الحضارة وتطورها ، فإن الطب صار موكولا إلى فئة متخصصة هم فئة الأطباء ، بل إن الطب نفسه قد انشعب إلى فروع كثيرة معقدة ودقيقة . وهذا نفسه ما ينسحب بازاء التربية اليوم . وأكثر من هذا فإن التربية والطب اليوم قد صارا متلاحمين ، وسوف يأتى وقت قريب تذوب فيه التربية فى الطب ، أو يذوب الطب فى التربية ، بمعنى أن العناية بالصحة والعلاج من الأمراض الجسمية والنفسية والسلوكية ، سوف تمارس بفن جديد سوف يجمع فيما بين فنون التربية وفنون الطب . ونحن اليوم لا نستطيع وضع اسم لذلك الفن الذى لم يبزغ إلى الوجود بعدُ ، ولكن من المؤكد أن الكثير من الاعوجاجات السلوكية كالسرقة المرضية **Kleptomania** أو الميول العدوانية أو الانحرافات الجنسية ، سوف تعالج عن طريق هندسة الوراثة ، بل إن التنشئة نفسها سوف تتم وفقا لخريطة سلوكية مُسْبقة . فهل بعد ما ذكرته لك هنا ، يمكن أن تزعم أن المرأة فى الحاضر ، وبالأحرى فى المستقبل ، جديرة برعاية طفلها ؟ أنا واثق تماما ، أنك أنت شخصيا لا تثق فى أن تقوم زوجتك أو أُختك ، برعاية طفلها صحيا فتعالجه إذا مرض ، أو دراسيا فتقوم بتدريسه بدلا من المدرس الخصوصى . فالتربية صارت منوطة بمختصين درسوا علم النفس ، وخصائص كل مرحلة عمرية ، كما أن التعليم لم يعد ممكنا ، لمجرد أن الشخص الذى يضطلع به ، يعرف ما يقوم بتعليمه لغيره . فثمة فرق جوهرى بين أن تعرف ، وبين أن تعلم الآخرين ما تعرفه .

Looloo
www.dvd4arab.com

فحجتك بأن البنت منذ ميلادها يجب أن تربى على أساس أنها سوف تقوم برعاية طفلها ، حجة باطلة من أساسها . وبالله قل لى : هل هناك شىء تركته الحضارة للأمهات لكى يقمن برعاية أطفالهن بصدده ؟ إن كل شىء يتعلق برعاية الطفولة ، صار خاضعًا للتخصص الدقيق ، ولابد أن يكون المتخصص قد خضع لتدريبات فنية بإزاء النطاق الذى سوف يمارس فيه رعايته للطفولة .

المؤيد : إن ما ذكرته من حجج تتعلق بالفجاجة التى كان عليها المجتمع البدائى ، والتعقيد الذى انتهى إليه المجتمع المتحضر ، مردود عليها ، وهى فى رأيى حجج واهية . فما ذكرته عن المتخصصين فى شتى الجوانب التربوية والطبية ، لا يُغْنى بحال عن الدور الذى يجب أن يوكل إلى الأم . فهل نستطيع أن نحذف دور الأم بإزاء رعاية طفلها حذفًا تامًا ؟ إننا إذا فعلنا ذلك ، فإن من النتائج التى تترتب على ذلك الحذف ، انتزاع الأطفال بمجرد ميلادهم من نطاق أسرهم ، والأخذ بنظام اجتماعى مباين للنظام الاجتماعى الذى نأخذ به . وبتعبير آخر يتحتم تبعًا لمنطقك تسليم الأطفال لمؤسسات متخصصة ، أو ترك الأمهات لأطفالهن بعد ولادتهم فى المستشفيات التى يلدن بها ، لكى تقوم الدولة بما لديها من متخصصين فى فنون التربية والطب برعايتهم . ولكنك تعلم تمامًا ، أن احتضان الأم لطفلها ، وإرضاعه من لبانها ، يلعبان دورًا أساسيًا فيما سوف تكون عليه حالته النفسية عبْر مراحل عمره التالية . ولقد كشف فرويد ومدرسة التحليل النفسى بما لا يدع مجالا للشك ، أن الأطفال الذين حرموا من ثُدى أمهاتهم ، ومن احتضانهن لهم ، لم ينشأوا أسوياء . فثمة إشباع نفسى ، يسير جنبًا لجنب ، مع إشباع معدة الطفل . فعملية الرضاعة ليست عملية إشباع من جوع ، أو رى من عطش فحسب ، بل هى عملية مزدوجة

الوظيفة . فهى عملية سيكوسوماتية **Psychosomatic** ، أى أنها عملية نفسية جسمية فى آن واحد . فهل هناك ما يمكن أن يعوّض الطفل عن تلك العملية ، أو عن تلك الوظيفة التى تضطلع بها الأم ؟

المعارض : أنا لا أعترض على ما قلته بإزاء رعاية الأم فى الحدود التى ذكرتها ، ولكن اعتراضى هو على ما تحتاج إليه تلك الرعاية من وقت وجهد . فالطفل الوليد يجب أن يخضع فى تربيته لسمات العصر ، وأن الاقتصار على لبان الأم فى الرضاعة ، فيه إجحاف بحق الطفل الرضيع فى الحصول على جميع العناصر الغذائية التى لا تتوافر فى الغالب فى لبان الأم الحديثة . فالواقع أن الأجيال الحديثة من الإناث ، أضعف بكثير من الإناث قديما . ونخشى أن نقول إن نسبة كبيرة من السيدات لا تدر ثُدْيُهن أى لبان ، أو أن ثُديهن ضامرة ، أو لم يقيض لها النمو الطبيعى السوى . فالظن أن أمهات اليوم ، مثل أمهات الأجيال القديمة ، مجحف بالواقع ، ولا يُعْتَد به . ومن ثَمّ فلا غنى عن الرضاعة الصناعية ، إلى جانب الرضاعة الطبيعية لو أنها كانت ميسورة ، وثديا الأم يدران اللبان . ومعنى هذا فى الواقع ، أن الأم الحديثة ، أعجز من أن تقوم حتى بإشباع طفلها بالرضاعة الطبيعية ، وأنها ملزمة بأن تستشير الطبيب المختص ، عما يجب أن تساند به رضاعتها من ألبان وعصائر . ناهيك عن أن خروج الأم من بيتها إلى عملها ، وممارستها للأنشطة الاجتماعية المتباينة ، يكسبها صحة ونشاطًا ، وليس من المعقول أن نحكم عليها بالسجن بين أربعة جدران حتى تعكف على إرضاع طفلها الوليد . ناهيك عن أن الاتصالات الاجتماعية المتباينة ، تكسب الأم الحديثة ثقافة وتطورًا ، وتعمل على تنويرها ، مما ينعكس على قدرتها بمستوى أعلى من الكفاءة فى رعاية أطفالها بعد عودتهم من المدرسة .

Looloo
www.dvd4arab.com

وناهيك أيضا عن عدم تعرض الأم المنفتحة على الحياة ، والتى لديها ما يملأ الوقت بالأنشطة المتباينة ، للإصابة بالأمراض النفسية ، التى تصاب بها كثير من الأمهات اللاتى حكم عليهن بالسجن البيتى الذى تدعو سيادتك إلى الرجوع إليه ، وحرمان المرأة من تنسم رحيق الحرية ، ومن التفاعل مع الواقع الاجتماعى ، ومن معايشة العصر الذى نحيا فى إطاره .

المؤيد : إن ما تسميه بالسجن البيتى ، هو فى الواقع مملكة الزوجة التى تحكمها وتدير شئونها إذا كانت امرأة عاقلة . والعجيب أن تلك المملكة تعتبر فى نظرك سجنا . ألا تعلم أن الزوجة التى تكرس نفسها لزوجها ولأولادها ، لا تتعرض للهزات العاطفية التى تتعرض لها الزوجة الموظفة التى تخالط الرجال فى أثناء عملها ، وتقارن بينهم وبين زوجها ، ولا يخلو الأمر من أن يكون هناك من بين أولئك الزملاء من يتمتع بجاذبية خاصة ، لا تتوافر لدى الزوج ، أو يكون من أولئك المتمرسين بملاطفة النساء ، واستخدام أساليب الغزل الرقيق مما يعمل على دغدغة مشاعرها ، ويحطم بالتالى الصورة الرائعة التى كانت مرتسمة فى ذهنها عن زوجها شيئا فشيئا . ومن يدرى فربما تنحو بمشاعرها إلى ذلك الزميل الذى يلاطفها ولا يجرح مشاعرها بل يعزف على أوتار قلبها ، ويبدى لها كل إعجاب بجمالها وخفة دمها ، وبارتفاع مستوى ذكائها ، وهى ما تفتقده فيما يقوله لها زوجها ، الذى ما يكاد يلتقى بها بالبيت ، حتى يثقل عليها بكلامه السمج ، أو بملاحظاته التى يجرح بها مشاعرها ، وهو الذى قد يؤنبها ويشيعها تقريعا لإهمالها فى شئون البيت ، ورعاية الأولاد . ولعلك تعلم أن نسبة كبيرة من حالات الطلاق ، ترجع بصفة أساسية ، إلى تلك المقارنات التى تعقدها الزوجات بزملاء العمل ، فيكتشفن أنهن

غير موفقات فى الزواج ، وأن الطريق إلى التحرر من عبودية الأزواج هو الطلاق ، وإعادة النظر فى اختيار أزواج آخرين ، يبعثن السعادة فى قلوبهن .

المعارض : مهلاً سيدى . إنك تبالغ فيما تقوله بالنسبة لمعاملة زملاء العمل للزميلات . فأنت تتصور أن المرأة المتزوجة ، مهما كانت مثقفة ومستنيرة ، فإنها تكون محرومة من الإشباع الجنسى . والحقيقة أن مسألة الإغراءات الجنسية والإنحرافات العاطفية ، لا تحدث إلا إذا كان الزواج فاشلاً من أساسه . فالزوج العنين ، أو الزوج الذى لا يوفق فى إقامة علاقات جنسية سليمة مع زوجته ، بل يمارس نشاطه الجنسى بطريقة منفرة أو طائشة ، يكون خليقًا بأن يحمل زوجته على عدم التعلق به ، واحتقاره وتمنى إنهاء حياتها الزوجية معه . ولكن الزوجة التى تحس بالرضا ، وبالتنعم بحياة جنسية وزوجية سعيدة مع زوجها ، فإنها مهما قابلت من الرجال أبهاهم طلعة ، وأخفهم ظلاً ، وأكثرهم جاذبية ، فإنها لا تتعلق بهم ، وذلك لأن قلبها مفعم بالحب لزوجها ، وقد وجدت لديه ما يكفيها من الشبع الجنسى . ولكنى لا أنكر أن من الزوجات من هن شاذات ومنحرفات عن الجادة ، وهذه الفئة تسعى إلى الإنحراف ، سواء كانت موظفة ، أم كانت سجينة الدار ، بل نستطيع أن نقول إن الواحدة من هذه الفئة ، تكون خليقة بالارتماء فى أحضان الانحراف الجنسى ، إذا كانت حبيسة الدار ، أكثر مما تفعله الواحدة من هذه الفئة إذا كانت موظفة ، وذلك لأن الحرية التى تكفل لها بالخروج من البيت ، ربما تعمل على التنفيس عن نفسيتها المريضة ، بما تجده من شبع جنسى إلى حد ما ، لا يستهان به من كثرة الاتصال بالرجال والتعامل معهم .

Looloo
www.dvd4arab.com

المؤيد : إنك تتحدث عن الحرية المكفولة للموظفة . أفليست الحرية معناها مداومة الاختيار ، والمقارنة المستمرة بين وضع المرء ، وبين ما يمكن أن يستحيل إليه ، إذا ما تغيرت ظروفه . ألا تعلم يا سيدى أن المرأة المنحرفة ، والتى تعانى من المشكلات فى أسرتها ، تنقل عدوى الانحراف إلى زميلاتها فى العمل ؟ ألا تعلم ، أن مقر العمل ، وبخاصة فى ضوء ظاهرة البطالة المقنّعة التى تعمل على التعيين فى الوظائف ، دون أن يكون هناك أى أعمال تسند إلى المعينين فى تلك الوظائف ، أقول لك إن مقر العمل فى معظم الأحيان فى ظل الظروف الحالية التى تعانى منها البلاد من تلك البطالة المقنّعة ، لا يعدو أن يكون مجالاً للأحاديث والمجادلات التافهة ، وللقيل والقال ، ولاستعراض البطولات التى قامت بها الزوجات ضد أزواجهن ، واستعراض المشكلات العارضة والمشكلات المستعصية فى العلاقات الزوجية ، فتنصت كل واحدة من العاملات لنصائح المغرضات اللاّتى يخططن للقضاء على كل عش زوجى سعيد ، فتتقلب الزوجة التى تحب زوجها ضده ، وتكيد له ، وتخطط للانفصال عنه بالطلاق ، وقد رتّبت فى خيالها الزواج من زميل تحس أنه معجب بها ، وقد دأب على أن يتقرب إليها ، وأنها سوف تكون سعيدة إذا ما تزوجته ؟ ففى مناخ مسمم كهذا يشيع فى الدواوين والمدارس ، لا يكون من سبيل ، سوى الابتعاد عنه ، والدعوة إلى التخلص منه ، وهو ما لا يتيسر إلا بخروج الزوجات من نطاقه ، والاعتكاف فى عش الزوجية ، الذى لا تلوثه مثل هذه السموم ، وحيث يتسنى للزوج أن يبعد عن زوجته جراثيم الفتن ، إذا ما اشتم أن إحدى الجارات تحملها إليها ، فيبعدها عنها ، ويحول دون اختلاطها بها .

المعارض : إنك تبالغ فيما ذهبت إليه من أن الدواوين والمدارس يسودها مناخ مسمم . فإذا كان الحال كذلك ، فمن أين تهب الريح المسمّمة على الدواوين والمدارس ؟ هل تعتقد أنها من البيئة الأسرية ؟ وهل تقول بعد ذلك إن من الواجب أن نقضى على الدواوين والمدارس ، فنغلق أبواب الهيئات الحكومية والشركات والمدارس ، حتى لا يتسرب السم منها إلى الناس ؟ وهل أنت تأتمن المدارس على تربية أولادك وبناتك ، وبها هذا الجو المسمم الذى أفعم عقول وقلوب المدرسين والمدرسات ؟ وهل نفهم من كلامك أنك تمنع بناتك ــ إذا كان من بين أولادك بنات ــ من الالتحاق بالمدارس ؟ وإذا قلت إنك لا تمانع من إلحاقهم بالتعليم ، فهل تأتمن المدرسين ــ علمًا بأن بينهم ذئابًا آدمية ــ على أن يتعاملوا مع بناتك المراهقات والشابات ؟

المؤيد : آسف أن أقول لك إنك تستنتج من كلامى ما لم أقصده . فأنا لا أنادى بإغلاق دور الحكومة والمدارس ، ولم أقل إن الجو المسمم ينقل عدواه إلى الصغار ، بل إن كل ما قلته هو أن المرأة المتزوجة ، يمكن أن يتلوث فكرها ، وتفقد نقاء ضميرها ووجدانها ، نتيجة بُعْدها عن البيت ، ونتيجة قصر الوقت الذى تقضيه مع زوجها ، بينما هى تقضى معظم وقت نشاطها خارج المنزل بعيدًا عن أسرتها . أنا أقصد أن انتماءها ، يتحول من عش الزوجية إلى مقر العمل الذى تعمل به ، وما يَعُج فيه من علاقات اجتماعية ، ومن أنشطة كان الأحرى أن تكرّس للبيت والزوج والأولاد .

المعارض : اسمح لى أن أناقشك فيما ذكرته لتوك . إنك تخشى من أن تقضى الزوجة معظم الوقت فى العمل خارج البيت ، وبالتالى تحرم بيتها من نشاطها وجهدها . طبيعى أن هذا ينطبق على المدرسات

Looloo
www.dvd4arab.com

أيضا . فهل نستنتج من كلامك أنك تريد أن تقتصر مهنة التدريس على الذكور دون الإناث ؟ وإذا كان هذا هو رأيك ، فهل تسمح لبناتك المراهقات والشابات أن يترددن على معاهد التعليم ، أم أنك تحرّم التعليم على البنات المنخرطات فى جميع الأعمار ، لأنك قلت إن من الواجب أن نربى البنت لكى تكون أما تلد الأطفال وترعاهم فحسب ؟

المؤيد : أنا أعتقد أن الواجب أن يسمح للمدرّسة بأن تعمل فى التدريس قبل الزواج . فإذا ما تزوجت ، فيجب أن تفصل من عملها ، أو أن تتقاضى مكافأة شاملة أو معاشا شهريا . وأنا لا أوافق على أن يقوم المدرسون الرجال بتدريس البنات ، وبخاصة المراهقات الشابات منهن ، وذلك خوفا من الفتنة . فأنت تعلم أن الكثير من المراهقات والشابات يتعلقن ببعض المدرسين ، ويحلمن بإقامة علاقات غرامية معهم . وأسف إذا قلت إن بعض المدرسين ، حتى المتزوجين منهم ، قد يعجبون ببعض المراهقات أو الشابات الجميلات ، وربما يتقربون إليهن ، وإذا واتتهم الفرصة ، فإنهم لا يتورعون من أن يقيموا علاقات غرامية سرية معهن بعيدا عن أعين الرقباء . وأنت طبعا تعرف هذا مما ينشر على صفحات الجرائد من وقت لآخر عن مثل تلك الأحداث والعلاقات المزرية التى تنشأ بين بعض المدرسين وبعض المراهقات والشابات من الطالبات ، بمراحل التعليم المختلفة ، بما فى ذلك الجامعات ، وما خفى كان أعظم .

المعارض : إنك يا سيدى متوجّس ومتشائم للغاية . أنا أعترف لك بأن المجتمع الذى نعيش فى رحابه ، ليس مجتمع ملائكة . ففى المؤسسة الواحدة ، يوجد الأخيار جنبا لجنب مع الأشرار . ولكن الحوادث التى تذكرها ، لا تعدو أن تكون حوادث فردية ، ولا يمكن أن نقيس عليها . فالغالبية العظمى من المدارس محكومة بقوانين

صارمة ، وبرقابة شديدة وحازمة . ومن يضبط من المعلمين وهو يغوى الطالبات ، ويشجعهن على الانحراف ، يفصل تنوا من عمله ، أو ينقل إلى عمل إدارى بعيدا عن نطاق المسئولية التربوية . ولكن ما يهمنى أن أثيره معك هو : هل أنت لا توافق على تعليم البنات ، طالما أن تعليمهن لا يفضى إلى الاشتغال بالوظائف أيا كانت ؟ وحتى ما تزعمه من ضرورة إقصاء المدرّسة التى تتزوج من وظيفتها ، بحاجة إلى وقفة . فهل أنت ترضى أن تفصل ابنتك من وظيفتها ، إذا ما كانت تعمل بالتدريس لمجرد أنها تتزوج ؟ ألست ترى أن هذه الدعوة هى فى الوقت نفسه ، دعوة للمدرسات بأن يحذرن من الوقوع فى مطب الزواج ، حتى لا يفصلن من العمل ، ويحرمن من الترقيات ، ومن الانخراط فى الحياة العامة ، وبالتالى فإنك تشجع على انحرافهن بعيدا عن الأضواء ، وتدفع بهنّ إلى إقامة علاقات جنسية سرية بالرجال ، حتى يشبعن غريزتهنّ الجنسية من جهة ، وحتى لا يحرمن من وظائفهنّ بالطرد منها من جهة أخرى .

المؤيد : أنا أفضل عدم انخراط البنت فى التعليم السائد اليوم . فلقد كانت البنت قبل عهود المساواة المطلقة بين البنت والولد ، تختص بنوع معين من التعليم ، كان يسمى بالتربية النسوية . فكانت هناك مدارس للبنات ، لها مناهج خاصة بالإناث ، كانت البنت تتعلم بمقتضاها — إلى جانب تعليمها القراءة والكتابة — تلك العلوم النسوية المتعلقة بشئون المنزل كالطبخ والغسل والكى ، والعناية بالصحة الشخصية والنظافة ورعاية الأطفال وتربيتهم . فأنا أوافق على هذا النوع من التعليم بالنسبة للبنات ، ولا أوافق على الإطلاق على أن تدرس البنت المناهج نفسها التى يدرسها الولد . أما عن رأيى فيما يتعلق بفصل المدرّسة من عملها بعد الزواج ، فأنا قلت لك إنها

Looloo
www.dvd4arab.com

لا تفصل دون أن تنال مكافأة أو معاشًا شهريًا ، بل قلت إن فصلها لا يعتبر عقوبة ، بل أقول إن الكثير من المدرسات سوف يفرحن بالزواج ، لأنه سوف يتواكب مع الراحة من عناء العمل من جهة ، كما سوف يتواكب مع الحصول على المكافأة أو المعاش الشهرى من جهة أخرى .

المعارض : واضح أنك تصر على أن تغمض عينيك وتسد أذنيك ، عن الواقع العصرى الذى تعيش فيه ، وتقف عليه بكل وضوح من حولك . ألا تعلم أن الدنيا قد تطورت بتطور تكنولوجيا الخدمات المنزلية ؟ ألا تعلم أن المنزل الحديث مفعم بكل ما هو ضرورى وكمالى من وسائل سريعة تساعد على أداء الشئون المنزلية بكل سرعة وسهولة ، كالمكنسة الكهربائية ، والغسالة الكهربائية ، والمكواة الكهربائية ، وأوانى الطبخ البخارية (البريستو) ، وهى التكنولوجيا التى تكاد تخدم نفسها بنفسها ، دون ما حاجة إلى تلك التربية النسوية التى ذكرتها متحسرًا على ضياعها فى خضمّ التعليم الحديث . ناهيك عن توافر المأكولات الجاهزة ، أو شبه الجاهزة بغير ما حاجة إلى طبخها تقريبًا ، وأن الكثير من الملابس لا يحتاج إلى كى ، كما أن غسلها بعد اتساخها ، لا يحتاج إلى مهارة تكتسب . فالغسالة الكهربائية تقوم بالعمل كله ، حتى أنها تجفف الملابس أيضًا . وإذا كانت التربية النسوية التى تنعى على ضياعها من المناهج ، تعلّم البنات كيف يعجن ويخبزن فى الفرن القديم ، فإن المخابز المتوافرة اليوم تقدم كل ما تحتاج إليه المرأة العصرية . وكذا فإن كل ما تحتاج إليه الزوجة من خدمة لبيتها تبثه أجهزة الإعلام المتباينة . والخلاصة هى أن ما كانت تضطلع به التربية النسوية ، قد توافر بغير تعليم ، أو عن طريق وسائل الإعلام . أما أن الفتاة تتلقى العلوم نفسها التى

يتلقاها الفتى ، فإنه حق من حقوقها ، لأنها مواطنة أولاً وقبل كل شىء ، وليست أمةً أو جارية ، كما كانت النظرة إلى النساء قديمًا . فعهد الحريم قد ولّى إلى غير رجعة ، وصارت تطلعات الفتاة ، لا تقل عن تطلعات الفتى ، فى إحراز مستقبل أدبى وعلمى ومادى ، يضمن لها الوقوف ضد مفاجآت الحياة وغدر الزمان .

المؤيد : برغم أن كلامك به بعض الوجاهة ، دعنى أتناول المسألة بشكل أعم لكى أوضح لك حقيقة هامة أرجو ألا تعزب عن بالك . فالواقع أن اشتغال النساء عمومًا ، وشغلهن للوظائف ومزاحمتهنّ للرجال خصوصًا ، هو الذى جلب كارثة البطالة والبطالة المقنّعة على الرجال والنساء جميعًا . فالوظائف إذا ما أحصيناها ، فإننا نجد أنها محدودة ومحصورة فى رقم معين لا تتعداه . فإذا افترضنا أن عدد الوظائف المتاحة هو ألف وظيفة — وهذا طبعًا للتقريب إلى الفهم ، وليس هو الواقع بالفعل — وكان لدينا ألف شاب يطلبون وظائف ، فإن الألف فرصة عمل سوف تكفى بالكاد للألف متقدم من الشبان لاحتلالها . ولكن تخيل أن ألف شابة تقدمن للحصول على هذا العدد من الوظائف المتاحة . فماذا تكون النتيجة ؟ المتوقع أن تقسم الوظائف على الشبان والشابات بالتساوى ، فيحظى خمسمائة من الشبان وخمسمائة من الشابات بوظائف . وبتعبير آخر ، فإن خمسمائة شاب ، وخمسمائة شابة ، سوف لا يحصلون على وظائف . فلو أن الخمسمائة شابة اللاتى حصلن على وظائف لم يتقدمن لمنافسة الشبان فى الحصول عليها ، ما كان هناك إذن أى شاب عاطل بغير عمل . وهناك زاوية أخرى يجب ألا نغفلها هى زاوية المرتبات . افترض أن جميع الشبان والشابات عينوا بالفعل ، سواء كان العمل بحاجة إليهم ، أم كدّسوا تكديسًا بالدواوين والمصالح

Looloo
www.dvd4arab.com

والشركات ، وترتب بالطبع على ذلك شيوع البطالة المقنّعة . فماذا يكون حال المرتبات ؟ افترض أن الشاب كان سيحصل على خمسمائة جنيه فى الشهر ، إذا لم تنافسه الشابة على التعيين ، فإنه سيحصل على نصف هذا المرتب ، إذا ما أُخذ بنظام تعيين الشابات ، جنبا لجنب مع الشبان . ذلك أن الاعتمادات المالية المتاحة محدودة . ومعنى هذا فى النهاية ، أن ما كان يحصل عليه الرجال من مرتبات ، يوزع بينهم وبين النساء ، اللائى هن فى النهاية الزوجات أو الأخوات أو البنات . وبناء على هذا ، نستطيع أن نقول ، إن مسألة حصول الموظفات على مرتبات ، إنما هو وهم وخدعة ، لأنه بغير الوقوع فى حبائل تلك الخدعة ، كن سيحصلن على المبالغ نفسها بطريق الزوج أو الأب أو الأخ . المهم هو أن الأسرة ــ كوحدة اجتماعية ــ فى حالة عدم توظيف البنات ، تحصل على ما تحصل عليه فى حالة توظيفهن .

المعارض : إن كلامك عن هذا الموضوع الخاص بالمرتبات فيه أكثر من مغالطة . فأولا إن البطالة الصريحة والبطالة المقنّعة ، هما ثمرتان رديئتان لعدم تنظيم النسل ، بل ولعدم تحديده . فلو أن الناس كانوا على وعى بالمستقبل المخيف الذى ينتظر الأجيال القادمة ، لعمدوا إذن إلى تحديد نسلهم بإرادتهم ، حتى لا يأتى يوم تضطر فيه الحكومات إلى التدخل بالوسائل التكنولوجية الطبية ، التى سوف تبتكر لإنقاص معدل الخصوبة لدى الإناث عن طريق الغازات ، أو عن طريق هندسة الوراثة الخاصة بالنبات والحيوان ، أو بالوسائل الكيميائية التى تحقن بها الأغذية ، والتى سوف لا يكون لها طعم معين ، بل قد يكون لها مذاق شهى للأكلين ، ولكنها تعمل بطريق غير مباشر على إشاعة العقم عند الرجال والنساء على السواء . وآسف لأنى استطردت فى هذه النقطة ، ولكن لأنك ذكرت البطالة الصريحة

والبطالة المقنّعة ، فإنى أردت أن أردهما إلى السبب الحقيقى المسئول عن انتشارهما ، وهو فوضى النسل ، وعدم تكافؤ عدد السكان مع المتاح من الغذاء ، وبالتالى المتاح من الأعمال والمهن والوظائف ، بل إن وجود زيادة رهيبة فى الأفواه التى تطلب الطعام ، وفى عدد الشباب المتزايد من الجنسين ، الذين يطلبون الاشتغال فى الوظائف والأعمال المختلفة ، هو المسئول عن هذه الظاهرة المتفاقمة ، والتى سوف تتفاقم أكثر فأكثر ، طالما أن الوضع القائم يظل بغير علاج حاسم وسريع . وطالما أن السبب فى البطالة الصريحة والبطالة المقنّعة ، هو عدم الحد من النسل ، أو عدم الهبوط بعدد السكان إلى المعدل الذى يتناسب مع المتاح من الإمكانات المادية والوظيفية ، فإن ما ذكرته عن أن عدم اشتغال المرأة فى الوظائف ، سيوفر لها الراحة ، بل سوف يوفر للأسرة الدخل الذى كانت لتحصل عليه لو أن الزوجة أو الأم أو الأخت قد عملت فى إحدى الوظائف ، لا أساس له من الصحة . فلو أن الناس التزموا بالتعقل والحكمة ، لكانت المرأة تعمل والرجل يعمل ، ولا تكون هناك بطالة صريحة أو بطالة مقنّعة على الإطلاق . ولأخذت المرأة حقوقها كاملة ، كما يأخذ الرجل حقوقه بالكامل ، ولانتهت المشكلة التى تردها أنت زيفا وبهتانا ، إلى غير سببها الحقيقى ، وهو التفجر السكانى ، والفوضى فى الإنجاب العشوائى .

المؤيد : كما أنك تعتقد أنى أرد المشكلة إلى سبب غير سببها الحقيقى ، وقد علّقتها على شماعة التفجر السكانى ، فإنى بدورى أعتقد أنك ترد المشكلة إلى سبب غير حقيقى . ذلك أن التفجر السكانى أدعى إلى التقدم ، وليس إلى التأخر والتخلف . ألست تجد أن اليابان مكتظة بالسكان ، ولكنها رتبت نفسها ، وأخذت تنافس أمريكا فى

Looloo
www.dvd4arab.com

الصناعات الإليكترونية وغيرها من صناعات ، علما بأنها حافظت على الزوجات ، ولم تبعثرهن فى المصالح ودور الحكومة ، بل جعلت ممارسة الصناعات فى نطاق الأسرة . فالأسرة بمن فيها من أفراد ، أعنى الزوج والزوجة والأولاد ، يقومون هناك بالعمل سويا فى نطاق أسرتهم ، مما يعمل على توثيق العلاقات الأسرية فيما بينهم جميعًا . ألست ترى معى أن الكثير جدا من الأعمال فى نطاق بلادنا ، يمكن أن تمارس بالبيوت ، أو على الأقل فى البيئة المحلية الملاصقة للمسكن ؟ فالواقع أن الكثير من الأعمال يمكن أن يمارس بالفاكسيميلى أو حتى بالتليفون . ناهيك عن أن من الممكن بالفعل أن يتم العمل الإنتاجى فى إطار الأسرة بمعدات حديثة وصغيرة الحجم فلا تشغل مكانا كبيرا بالشقة .

المعارض : ها أنت تسبح بنا فى الخيال ، أو تحملنا على أجنحته إلى اليابان . إننا بصدد مشكلة محددة ، محصورة فى نطاق موقعنا وظروفنا الخاصة بنا . فأرجو ألا تقارن وضعنا وظروفنا بغيرنا ، ولنتناول المشكلة التى أثرتها دون مقارنات بالآخرين . فنحن فى مصر ، لا تتحمل شققنا العمل فيها والإنتاج فى نطاقها . ان الواحد منا لا يكاد يتحرك بسهولة فى نطاق شقته الضيقة . فهل من المعقول أن نحوّل تلك الشقق التى لا تكاد تتنفس فيها الصعداء إلى ورش ومصانع ؟ وهل جميع النساء سوف يستجبْن إلى صانعات ماهرات ؟ دعك من هذا وقل لى . هل من الممكن عمليا أن نطرد الموظفات جميعا من وظائفهن لصالح الرجال ؟ وهل من السهولة بمكان أن يحكم الرجل على زوجته الموظفة بأن تقبع بالبيت ، وأن تتخلف عن ركب زملائها الرجال ، وهى الطبيبة أو المهندسة أو المحامية أو حتى البائعة فى أحد المحال التجارية ، وهل يكفى الدخل الضئيل الذى

يحصل عليه معظم الأزواج ، للنهوض بمطالب الأسرة المتزايدة مع تزايد الغلاء ، إذا ما استقالت الزوجة من وظيفتها ؟ أرجو أن تكون واقعيًا ، ولا تركب أجنحة الخيال الأجوف . فواقع الأمر أن لدى المرأة طموحات كثيرة ، وأى مساس بها وبآمالها ، يعنى نشوب ثورة عارمة لا نعرف مغبتها .

المؤيد : مهلاً سيدى . إنك تتفعل دون أن يكون هناك داع لهذا الانفعال . ولذا فإنى أطالبك بضبط أعصابك ، ولنتحاور بهدوء ومنطق رصين . ألست معى فى أن الأجيال السابقة التى كانت فيها الزوجة غير عاملة ، قد كانت مهتمة بالزوج والأولاد وترعى شؤونهم . فكان أبناؤها يرجعون من المدرسة ، فيجدون البيت عامرا بأمهم التى تنتظرهم وتنتظر والدهم ، وقد أعدت لهم الغداء ، كما كان كل شىء معدًا وخاضعًا لنظام دقيق ؟ وألست معى فى أن الكثير من الانحرافات التى يتردى فيها الأطفال والمراهقون والشباب من الجنسين ، إنما هى نتيجة لعدم توافر الرعاية الأسرية وانعدام الرقابة على الأولاد من الجنسين ؟ هل الأم التى تجلس إلى جوار أولادها وتشجعهم على الاستذكار ، وتشعرهم بالحنان وتلبية مطالبهم ، حتى ولو لم تشارك فى تعليمهم أو مساعدتهم فى دروسهم ، يمكن أن يستغنى الأبناء والبنات عنها ؟ ألا تستهلك الأم الموظفة طاقتها فى العمل ، وفى زحمة المواصلات ، بحيث لا يبقى لديها من الطاقة ما تمنحه لبيتها وأولادها ؟ لا شك أنك تعلم هذا . وتعلم أيضا ، أن الشقة التى هجرتها الأم ، لأنها تقضى معظم وقت نشاطها فى مقر العمل ، لا توفر الظروف الملائمة للتربية الناجعة . إن الجرائد تطالعنا بالحوادث التى تظهر كيف أن الحقد قد ملأ قلوب الأولاد ضد والديهم ، ومن المؤكد أنك قرأت عن بعض الحوادث حيث قام الابن بقتل والديه ، أو عن

Looloo
www.dvd4arab.com

الأم التى قتلت طفليها ، أو تآمرت مع عشيقها لقتل زوجها . إن هذه بعض الثمار التى نجنيها نتيجة تمزق الأسرة وتفكك أوصالها ، أعنى أنها نتيجة اشتغال الزوجة ، والجرى وراء المنفعة المادية وعبادة المال .

المعارض : أنا أوافقك على أن هذه الحوادث نتيجة تمزق الأسرة ، ولكن مع ذلك أقول لك إنك ترد النتائج إلى أسباب غير الأسباب الحقيقية . فليست المسألة مسألة اشتغال المرأة ، بل مسألة ظروف اجتماعية عامة . فمثلاً انتشار تعاطى المخدرات ، وانتشار الانحرافات الجنسية ، وانتشار السرقات والسطو ، وانتشار الإرهاب ، لا ترجع إلى اشتغال النساء بالوظائف ، بل ترجع إلى وجود تيارات عالمية عامة يهب بعضها علينا . ولنقل إن التقدم التكنولوجى الخطير ، كان من أسباب الانحرافات النفسية . فأفلام الفيديو وألعاب الفيديو جيم وتنظيم العصابات وتغلغلها بالأندية والمدارس والكليات ، وغير ذلك من عوامل اجتماعية ، يساعد بلا شك على انتشار الجرائم المختلفة ، ومن الخطأ بالتأكيد أن نحمّل المرأة الموظفة كل المسؤولية وننسى باقى العوامل الكثيرة والمتشابكة ، التى تساهم مجتمعة فى الانحرافات الأخلاقية . فهل لك إذن أن تأخذ هذه العوامل وغيرها فى اعتبارك لأنها سوف تكون موضوعات لمناظرات حامية الوطيس بينى وبينك .

ولكن عليك أن تعد نفسك للمناظرة القادمة وموضوعها **تحديد النسل بين الاختيار والإجبار** ، علما بأن القراء الأفاضل هم الحكام بينى وبينك . فهم إما أن يضموا صوتهم إليك باعتبارك المتحمس للإجبار كما هى عادتك ، وإما أن يضموا صوتهم إلىّ باعتبارى المتحمس للاختيار .

* * *

المناظرة الثانية

لابد من تدخل الدولة مباشرة للقضاء على ظاهرة التفجر السكانى بكل الوسائل الممكنة .

المؤيد : من الواضح بجلاء ، أن سياسة الإقناع والاستمالة ، التى سرنا وفقها عبر عشرات السنين ، بصدد المشكلة السكانية ، لم تفض إلى أى نتيجة إيجابية . وها هى المشكلات الاجتماعية تتزايد تعقدا ، وتتفاقم باطراد مستمر . واعتقادى العميق هو أن لا سبيل للقضاء على هذه المشكلة الكأداء ، سوى التدخل المباشر الحازم والحاسم ، بجميع الوسائل الممكنة ، للقضاء عليها ، إذ أنها تهدد جميع السكان ، غنيهم وفقيرهم بمجاعة خطيرة ، وبنتائج مؤسفة ، لا يمكن تخيل أبعادها .

المعارض : من حيث المبدأ ، فأنا لا أوافق على مثل تلك الإجراءات الحازمة والحاسمة التى تنادى بها ، لأن هذا يعنى ، أننا نكون بذلك ، قد تنازلنا عن المبدأ الديموقراطى ، الذى نتخذه هادياً لنا ، فى تسيير شؤوننا الاجتماعية . ومن المعروف أن الديموقراطية ، أساسها الإقناع الشخصى والجمعى . فما يسمح للدولة بأن تفعله ، لا يعدو حدود توعية المواطنين بأخطار التفجر السكانى ، فتشكل لديهم بذلك دافعا نفسيا وعقلانيا ، فيقدمون على الحد من إنجابهم باعتمال إرادتهم الشخصية ، وبرغبتهم المستقلة ، والمتحررة من أى ضغط خارجى مباشر من قبل الدولة .

Looloo
www.dvd4arab.com

المؤيد : الواقع أن هذه القضية ، لا تدخل فى نطاق الحرية الشخصية ، بل هى قضية تقع فى صميم الحرية الجماعية ، أو هى قضية بقاء أو فناء المجتمع . فأنت تعلم أن الزيادة العددية الرهيبة فى عدد السكان سنة بعد أخرى ، أو حتى يوما بعد يوم ، معناها أن الموارد الاقتصادية تظل فى تقلص مستمر . ومن المؤسف أن نظل نمد أيدينا كشعب إلى شعوب الدول المتقدمة ، لكى تقدم إلينا المعونات ، لإشباع البطون بالكفاف من الغذاء . فالمسألة ليست إذن مسألة إقتناع شخصى ، بل هى مسألة حرب يجب أن يعلنها الشعب ممثلا فى الحكومة ، ضد خطر داهم يهدد وجوده بأسره . ولا نبالغ إذا قلنا إن هذه الحرب التى نهاجم بها التفجر السكانى ، أخطر بكثير من أى حرب خضناها ضد أعداء الوطن . ذلك أن هذه الحرب التى نشنها ضد هذا التفجر السكانى ، هى حرب ضد مرض سرطانى يستشرى بسرعة رهيبة فى قوام الشعب ، وينخر فى عظامه ، ويأتى عليه تماما بالتدريج .

المعارض : ولكن مما لا شك فيه أنك تعلم ، أن هذه الإجراءات الجبّرية التى تحث الدولة على اتخاذها ، منافية لقيمنا وأخلاقنا ، فكيف يتسنى لأى دولة أن تضرب صفحا عن هذه القيم والأخلاق ، التى تعتمل فى قوامنا وقلوبنا ؟

المؤيد : وأنت أيضا تعلم أن القيم نوعان : نوع مطلق ، ونوع أخر نسبى . والقيم المطلقة كقيمة الصواب الذى لا يلتقى مع الخطأ . أما القيم النسبية فهى كقيمة النافع فى مقابل الضار . ولكن بين النفع والضرر درجات وتدرجا . فما يكون نافعا فى عصر ما ، قد يكون ضارا فى عصر أخر . فمثلا بالنسبة لزيادة عدد السكان ، فإن النمو السكانى ، كان فى عصر ما نافعا ، وكان يعتبر بركة ، وذخرا للشعب ،

ومصدرا لقوته ورقيه وتقدمه . ولكنه قد صار فى عصرنا هذا لعنة ، وعاملا على تأخر الشعب ، ومصدرا لتدهوره وانحطاطه . فما تعتقد أنه قيمة مطلقة ، هو فى الواقع قيمة نسبية تماما .

المعارض : اسمح لى أن أختلف معك فى تحديدك للقيم المطلقة ، والقيم النسبية . فأنت تناولت مشكلة السكان من زاوية النفع والضرر ، وهذه الزاوية تدخل بالفعل فى نطاق القيم النسبية ، ولكن لماذا تنظر من هذه الزاوية ، ولم تنظر من زاوية الحرية الشخصية . فهل تعتقد أن الحرية الشخصية ، قيمة مطلقة أم أنها قيمة نسبية ؟ ولكن لعلى أحدد كلامى فأركزه فى نطاق الإنجاب . فهل حرية الإنجاب ، وعدم الإنجاب قيمة مطلقة ، أم أنها قيمة نسبية ؟ من المؤكد أنها قيمة مطلقة ، وذلك لأن هذه الحرية ملك شخصى للمرء ، وبالتالى ليس للمجتمع أن يساومه بإزائها .

المؤيد : إنك تعتقد أن الحرية قيمة مطلقة . وبذلك فإنك تلقى الكلام على عواهنه ، وتعمم حيث لا ينبغى التعميم . فالحرية يا سيدى ، هى حرية نسبية بمعنى الكلمة . فأنت حر فيما يتعلق بك ، ولا يتعلق بسواك . ولكن حريتك إذا كانت لها نتائج تتصل بغيرك ، فإنك لا تكون حرا فى هذه الحالة حرية مطلقة . وحتى حريتك فى البقاء ، إذا كان لبقائك على قيد الحياة ، نتائج تتعارض مع بقاء المجتمع ، فإن هذه الحرية لا تكون فى قبضتك ، وبالتالى فلا تكون حرا فى الحيلولة بينك وبين الاستشهاد . ويتضح هذا الموقف فى حالة نشوب الحرب ، وتجنيدك فى صفوف القوات المسلحة . فأنت فى هذه الحالة ، لا تستطيع أن تقول إنك حر فى أن تذهب إلى الميدان ، أو أن تبقى قابعا فى بيتك . فالحرية بإزاء الإنجاب أو عدم الإنجاب مسألة

Looloo
www.dvd4arab.com

لا تخصك وحدك ، بل تخص المجتمع ككل ، شأنها شأن المشاركة فى المعارك الحربية ، أو عدم المشاركة فيها . فالحرية إذن ليست ملكية شخصية بحتة كما تظن ، بل هى حرية مشروطة بشروط اجتماعية .

المعارض : اسمح لى أن أقول إن هناك طرفا آخر غير المجتمع يجب أن نأخذه فى اعتبارنا ، بل يجب أن يحتل المكانة الأسمى من اعتبارنا ، أخطر بكثير من المكانة التى يحتلها المجتمع فى أنظارنا ، ذلك هو المعتقد الدينى . فالدين يحضنا على أن نتجب ، وألا نتدخل فى مسار عملية التكاثر ، علما بأن مسألة الرزق والمستقبل ، لا يقعان فى نطاق مسئوليتنا ، بل هما من التخطيط والتدبير والمشيئة الإلهية . وحيث إن العقيدة الدينية مطلقة ، ولا يمكن المساومة بازائها ، فهى إذن تكون المهيمنة والموجهة للسلوك ، ولا يكون للاعتبارات المادية ، والحسابات البشرية ، إلا أن تخضع للتدبيرات الإلهية .

المؤيد : أولا بالنسبة للمعتقد الدينى ، فإن رجال الدين أنفسهم ، لا يمانعون فى تنظيم النسل ولك أن تستمع إليهم وتقرأ لهم فى وسائل الإعلام المسموعة والمشاهدة والمقروءة ، فتجد أنهم يقدمون الأدلة القاطعة ، التى تؤكد مسئولية المرء عن تنظيم نسله ، وأن عليه ألا يترك الأمر للمصادفات السعيدة . فهم يميّزون بين الإتكال على الله سبحانه وتعالى ، وبين التواكلية التى تنم عن التكاسل العقلى ، والتخلف والتقوقع فى نطاق قشور اعتقادية ، ليست من جوهر الدين فى شىء . وعلى أية حال فأنا أعتقد أن المجتمع يهتم أكثر منك ومنى بالمسائل الدينية . فإذا ما تهدد وجوده فى الحاضر أو فى المستقبل ، فلابد من التخطيط لحمايته .

المعارض : لا أظن أن المسألة تحسم بهذه البساطة . إنك تظلم المجتمع ، عندما تقحمه فى هذه المسألة . فهل المجتمع اشتكى لك من التفجر السكانى ؟ أعتقد أنه إذا ما أتيح له أن ينطق ويعبر عن نفسه ، فإنه يقول إن من المحتم أن يستمر فى الزيادة العددية ، بغير توقف على الإطلاق . ذلك أنه مهدد بانتشار الأمراض الفتاكة كالإيدز فى أنحائه ، وهو المرض الذى يقال إن المصابين به اليوم ، قد بلغوا أربعة ملايين ونصف المليون على مستوى العالم ، وأنه أكثر انتشارا فى الشرق الأوسط . ناهيك عن الحروب الإقليمية التى يتوقع أن تنشب بين دول المنطقة ، وهى الحروب ، التى إذا اشتعل أوارها على نطاق واسع ومحتدم ، فإن المتوقع أن تستخدم فيها الأسلحة الذرية والكيميائية والبيولوجية الفتاكة التى لا تبقى ولا تذر . فثمة أكثر من دولة فى الشرق الأوسط فى حوزتها هذه الأسلحة الساحقة الماحقة ، ومن المتوقع أن دولا أخرى كثيرة فى منطقتنا سوف تحوز هذه الأسلحة ، وما سوف يستجد من أسلحة دمار أخرى . وبالتالى فإذا ما اشتعلت الحرب فى الشرق الأوسط ، فإن المجتمع المتفجر سكانيا ، سوف يتقلص ، إن لم يُبد معظمه على الأرجح . فهل بعد هذا تقول إن المجتمع يرغب فى تقليص عدد أفراده ، بينما هو مهدد بالفناء ، فى المستقبل القريب ، أو فى المستقبل البعيد ؟ إن المجتمع بما لديه من إحساس مستقبلى ، يحاول جاهدا أن يزيد عدد أبنائه ، لكى يكون لديه احتياطى من البشر ، حتى إذا ما وقعت الواقعة ، فإنه لا يفنى تماما ، بل يظل على قيد الحياة ، بمن سوف ينجون من الهلاك ، الذى سوف ينتشر سواء نتيجة الحرب ، أم نتيجة الأمراض الفتاكة ، التى بدأت فى حصد الناس بالفعل حصدا ، وعلى رأسها مرض الإيدز الوبيل وما سوف يتطور إليه ، لأن العلماء يقولون إنه ما يزال يتغلب على كل محاولاتهم للإمساك بعناقه وإهلاكه ، لأنه فيروس شديد الدهاء .

Looloo
www.dvd4arab.com

المؤيد : آسف لأنك تأخذ طريق التنبؤ ، بل طريق التشاؤم . فأنت تذكر الإيدز والحروب الإقليمية ، كما لو أنهما شر لابد منه . وواقع الأمر أن البحوث جارية على قدم وساق لتخليص البشرية من هذا المرض الوبيل ، وذلك عن طريق هندسة الوراثة التى بدأت تمارس على ذلك الفيروس اللعين ، لكى يتسنى إنتاج فصائل منه تفترس النوع المؤذى الموجود والمنتشر بالفعل . وبغير دخول فى التفاصيل ، التى يعرفها علماء هذه الهندسة ، ويجتهدون فى استغلال النتائج التى تتأتى لهم عنها ، فإن المتوقع أن يُقضى على هذا المرض ، خلال عقدين أو ثلاثة على الأكثر . ألم يتمكن العلماء قبل ذلك من القضاء على العديد من الأمراض كالجدرى والطاعون والملاريا وعلى آلاف الأمراض المعدية ، التى كانت تهدد البشرية بالفناء ؟ فمرض الإيدز وإن كان من الصعوبة بمكان ، أن يُقضى عليه حاليًا ، فإن تلك الصعوبة سوف تنهار ، وسوف يخضع المصابون به للعلاج ويحظون بالشفاء ، ربما بحقنة صغيرة . أما عن الحروب الشرقأوسطية التى تتنبأ بها ، فإن نشوبها شبه مستحيل . ذلك أن الأسلحة النووية ، والأسلحة الكيميائية ، والأسلحة الجرثومية ، تؤذى مستخدميها مثلما تؤذى من يهاجم بها . تخيل مثلاً أن اسرائيل تُقدم على استخدام القنابل الذرية ضد العرب . فهل ستسلّم هى من العرب الذين سيحصلون فى القريب العاجل على تلك القنابل وعلى ما هو أخطر منها من أسلحة فتاكة ؟ ومن يدرى فربما يكون فى الترسانات العربية اليوم أسلحة سرية أشد فتكا من القنابل الذرية . وباختصار فإن شن الحرب اليوم ، لم يعد من السهولة بمكان كما تتصور . ذلك أن أى دولة تفكر فى شن حرب ضد دولة أخرى ، سيكلفها وجودها نفسه . هل تتخيل أن دولة مجاورة لاسرائيل مثل مصر ، يمكن أن تستحيل إلى خراب دائم بفعل

الإشعاعات الذرية التى تتواكب مع تفجر القنابل الذرية ؟ وهل تنجو إسرائيل فى هذه الحالة من هبوب الرياح الإشعاعية عليها ، وهى حاملة سموم تلك الإشعاعات الذرية ؟ إن إسرائيل أو غيرها فى عالم اليوم ، لا تستطيع أن تشن أى حرب ، ولك أن تنظر إلى أمريكا وموقفها المشين فى حرب فيتنام . إنها هزمت هناك برغم جبروتها . والخلاصة أن ما تقوله عن أن المجتمع ، يعمد إلى حماية نفسه بتضخيم أعداده ، خوفا من المستقبل المتوقع ، وهو مستقبل مظلم كما تقول ، إنما هو وهم وقعت فيه يا أخى ، ولا أساس له من الصحة على الإطلاق .

المعارض : على أية حال ، فأنت ما تزال تُلقى بالشعارات الجوفاء ، ولم تقدم أمامنا خطة عملية يمكن أن تنفّذ بالفعل فى المجتمع ، بحيث يتسنى بواسطتها أن تتدخل الدولة بطريقة مباشرة حسب قولك ، والحد بالتالى من التفجر السكانى . فهل فى جُعْبتك خطة ، أم أنك تكتفى بالشعارات الحماسية ، التى لا تحمل أى مضمون عملى فعّال ؟

المؤيد : طبعًا عندى خطة عملية ، أعتقد أنها إذا ما طبقت بدقة خطوة بعد أخرى ، فإن المشكلة تحل عندئذ من جذورها . واسمح لى أن أعرض الخطوة الأولى من خطتى ، ولك أن تناقشها ، وتعترض عليها إذا شئت ، علمًا بأنى أعتقد أنك لن تجد ما تعترض به عليها . فهذه الخطوة الأولى خاصة بالتعقيم .

المعارض : قبل أن تقول كلمة واحدة عن التعقيم ، أحب أن أنبه إلى أن التعقيم مرفوض تمامًا من جانب المجتمع ، كما أنه محرّم دينيًا .

المؤيد : إنك تصادر الرأى قبل أن تستمع إليه . وهذا لا يليق بالمفكر الذى يفكر بتمعُّن قبل أن يصدر حكمه . فهل لديك استعداد لسماع ما أقوله ، أم نلغى المناظرة .

Looloo
www.dvd4arab.com

المعارض : لا بأس . حقك على يا سيدى . هات ما عندك .

المؤيد : إن علماء الوراثة يؤكدون أن الشخص المصاب بالتخلف العقلى ، ينجب فى الغالب أطفالاً متخلفين عقليا . فمثل هذا الشخص المتخلف عقليا يجب تعقيمه ، علما بأن التعقيم لا يحرمه من ممارسة الجنس بكفاءة . فثمة فرق بين الممارسة الجنسية الجيدة ، وبين القدرة على الإنجاب . فالكفاءة الجنسية تسير فى خط ، والقدرة على الإنجاب تسير فى خط آخر . وبالمناسبة ، فإن هناك رجالا واهنين فى ممارساتهم الجنسية ، كأن يصابوا بالقذف السريع ، أو بالانتصاب لفترة قصيرة ، ولكنهم برغم ذلك يكونون قادرين على الإنجاب . وبالنسبة لموضوعنا ، فأنا أعتقد أن الأطفال المتخلفين عقليا ، يجب تعقيمهم بالرغم من أن كفاءتهم الجنسية سوف لا تمس بأذى ، بمعنى أن من الممكن فى المستقبل أن يتزوج ذلك الشخص بعد بلوغه سن الرشد ، دون أن يتأتى عن زواجه إنجاب أطفال على شاكلته مصابين بالتخلف العقلى .

المعارض : اسمح لى أن أذكّرك بأنك قلت إن هناك احتمالا ، أو بنص تعبيرك « غالبا ما ينجب الشخص ضعيف العقل أطفالا متخلفين عقليا » ، ولم تقل « دائما أو حتما » . فمعنى هذا أن من الممكن أن ينجب الشخص المتخلف عقليا أطفالا أذكياء . هذه واحدة . أما اعتراضى الثانى ، فهو أن الضعف العقلى نسبى فى الواقع . فإذا كنت تقصد مستوى الذكاء ، فهو يحدد بالأرقام . فهل نعقم جميع الحاصلين على مستوى ذكاء قدره خمسون من نهاية عظمى قدرها مائة ، فأقل من ذلك أم أكثر من ذلك . وهل مقاييس الذكاء على مستوى من الدقة التى نطمئن إليها ، أم أنها احتمالية . أليس من الخطأ والخطل أن نقوم بتعقيم شخص ، بناء على قياس لذكائه قام به أحد

الممارسين لعلم النفس . وأنت تعلم أن الكثير من المعايير التى يستخدمها علماء النفس ليست معايير دقيقة مائة فى المائة ، بل يدخل فيها التقدير الشخصى ؟ وإذا أنت اعتمدت على آراء المتعاملين مع الشخص كالمدرسين مثلاً ، وعلى ما يُصدرونه من أحكام على تلاميذهم ، فإنك ستجد أن معظم أحكامهم انطباعية وسطحية . ألم تنصح مدرّسة إديسون العبقرى أمه عندما كان طفلاً بأن تسحب أوراقه من المدرسة ، لأنه غير قابل لأن يتعلم بسبب شدة غبائه ؟ فقامت أمه بتعليمه بنفسها ، فتفتّق ذهنه ، واستحال إلى ذلك المارد العبقرى ، الذى اخترع المصباح الكهربائى ، والعديد من الأجهزة الدقيقة ؟ إذن فالحكم بأن طفلاً ما متخلف عقليا ، بناء على الملاحظات الظاهرية السطحية ، إنما هو حكم أعجف لا طائل وراءه . وخلاصة القول إن تعقيم من يحكم عليهم بأنهم أشخاص متخلفون عقليا ، إنما هو إجراء باطل ، ولا يقوم على أساس مكين .

المؤيد : من قال لك إننا سوف نقتصر على تطبيق مقاييس الذكاء التى يشوبها الشك ، أو أننا سوف نعتمد على آراء المتعاملين مع الشخص ، وعلى أحكامهم الظنية بأنه متخلف عقليا . إن هناك اختبارات بيولوجية دقيقة تتعلق بالمخ ، يمكن أن تبرهن علميًا ، على ما إذا كان الشخص سويًا ، أم أنه متخلف عقليا . بيد أن تلك الاختبارات البيولوجية ، التى سوف تجرى على المخ ، تأتى فى المرحلة التالية بعد إجراء اختبارات الذكاء ، التى سوف لا يؤخذ بها وحدها ، بل تكون بمثابة تمهيد ، قبل تطبيق الاختبارات البيولوجية .

المعارض : وبفرض أن الإجراءات التى سوف تتخذها سليمة وعلمية ومكينة ، فمن سوف يسمح لك بإجراء تلك الاختبارات ، سواء كانت اختبارات ذكاء ، أم اختبارات بيولوجية ؟ هل سيسمح لك بذلك

Looloo
www.dvd4arab.com

الشخص المتخلف نفسه أم أسرته ؟ أعتقد أنه لا الشخص الذى يشتبه فى أنه متخلف عقليًا ، ولا أسرته ، سوف يتقدمان طواعية إليك لإجراء تلك الاختبارات . فواقع الأمر أن الشخص المتخلف عقليًا ، يكون صعب المراس ، ولا يقبل أن يقترب أحد منه لإجراء اختبارات عليه ، أيًا كانت تلك الاختبارات . ذلك أن المرء عندما يكون شاعرًا بأنه متخلف عقليًا ، أو بأنه مغاير لسائر الناس المحيطين به ، فإنه يكون على جانب كبير من الحساسية ورهافة الشعور ، مما يدفع به إلى سرعة الانفعال . وهذا هو أيضًا شأن والدى المتخلف عقليًا . فهما يستحييان من الإفصاح عن تخلف ابنهما أو ابنتهما عقليًا ، ويربأون به ، عن أن يخضع للفحوص والاختبارات . ناهيك عن تعقيمه .

المؤيد : الواقع أن ترك الحبل على الغارب ، سواء بالنسبة للشخص المتخلف عقليًا ، أم بالنسبة لأسرته ، وترك الحرية لهما بأن يخولوا دون إجراء تعقيم ذلك الشخص المتخلف عقليًا ، هو نقطة ضعف خطيرة ، تشيع فى المجتمعات التى فهمت الديموقراطية فهمًا خاطئًا . فإذا كانت الديموقراطية كما يفهمونها ، هى التحلل من القيود ، والنأى عن الاجراءات التى يجب اتخاذها ، فبئست هى تلك الديموقراطية . والخليق بالدولة التى تمسك بزمام المجتمع ، أن تكون حازمة . فترك المتخلفين عقليًا يُنجبون ، معناه الهبوط بمستوى المواطنين عبر المستقبل جيلاً بعد جيل . فلابد من التسلح بالحزم والقضاء على التسيُّب الذى يشيع الآن بإزاء الإنجاب ، فإنجاب طفل جديد ، إنما هو تقديم مواطن جديد إلى هذا الوطن . فهل نسمح بتقديم أنواع رديئة من المواطنين إلى مجتمعنا ، أم نأخذ بمبدأ الانتقاء ؟ فإذا لم نأخذ بهذا المبدأ ، فلا أقل من أن نحول بين النسل الغث والمنحط عقليًا وبين الخروج إلى النور ، وذلك باستخدام التعقيم . وبذا فإننا

نقضى على فئة المتخلفين عقليًا ، بدلاً من زيادة أعدادهم تضاعفيًا جيلاً بعد جيل .

المعارض : على أية حال أنت من أنصار القسر والإجبار ، وأنا من أنصار الحرية بإزاء هذه القضية ، وليس هناك نقطة التقاء بيننا . ولكنى أحب أن تقدم إلينا الخطوة التالية فى خطتك العملية ، التى تكفل كما تقول ، الحد من التفجر السكانى .

المؤيد : إن الخطوة التالية هى خطوة تشريعية . فعلى القانون أن يتخطى نطاق العقوبات بالسجن ، إلى نطاق العقوبات الجنسية ، وهى فى رأيى عقوبات أقوى فاعلية من عقوبة السجن ، أو حتى من عقوبة الإعدام . فكل من يحكم عليه بالسجن لمدة عام أو أكثر ، يجب أن يتم تعقيمه ، حتى لا ينجب على الإطلاق بعد انتهاء مدة سجنه . والحكمة فى ذلك ، هى عدم السماح للمجرم بأن يقوم بتربية أطفال ، ينتسبون إليه وهو مجرم . ناهيك عن أن التعقيم يشمل المحكوم عليهم فى جرائم الآداب ، التى يضبط فيها شبان أو شابات فى أوكار أو بيوت مشبوهة ، وأيضًا فى جرائم المخدرات ، سواء ما يقع منها فى نطاق التعاطى ، أم فى نطاق الاتجار بها . فلابد أن ينص القانون على تعقيم كل من يحكم عليه لاقترافه تلك الجرائم . وطبيعى أن التعقيم لا يوقع على المجرم إلا بعد الحكم عليه ، وليس فى أثناء محاكمته .

المعارض : قبل أن أناقشك فيما ذكرته بإزاء الأحكام الجنسية ، أحب أن أتساءل : هل هذه الخطوة تساهم جدّيًا فى الحد من التفجر السكانى ؟ أظن أن المجرمين الذين يحكم عليهم بالسجن لعام أو أكثر ، أو أولئك الذين يضبطون فى قضايا الآداب والمخدرات ، لا يشكلون

Looloo
www.dvd4arab.com

سوى شظية صغيرة من بين الملايين الكثيرة ، الذين يضمهم شعب كشعب مصر . وعلى أية حال ، فإن ما تتخيله من إصدار تشريع بأحكام تصدر بالتعقيم ، لا يوافق عليه المشرّع بأى حال من الأحوال . فثمة ما يعرف بالتابوه taboo أو اللامساس بالنسبة لمسائل الجنس . فالجنس محاط بالقدسية ولا يجوز الاقتراب منه ، ومن المؤكد أن رجال الطب ــ وهم الذين سوف يوكل إليهم التعقيم ــ سوف لا يسكتون ، بل سوف يعترضون بشدة على مثل هذا القانون . ناهيك عن وقوف رجال الدين بالمرصاد لمثل هذا التشريع ، ويرفضونه بشدة ، لأنه يحرم المرء من شىء له قُدسية أكثر من قُدسية الحياة نفسها . وقل لى بالله : ماذا يكون حال شخص حكم عليه بالسجن ظلمًا ، أو حتى عن استحقاق لمدة سنة ؟ وماذا يكون وضعه فى أسرته بعد خروجه إلى الحياة العادية ؟ ألا يزداد نقمة على المجتمع الذى حرمه من الإنجاب ، وقد صار الناس ينظرون إليه بهزء وسخرية ، وكأن المجتمع يظل مداومًا على إنزال العقوبة عليه ، حتى بعد خروجه من السجن ؟ ألست بهذا التشريع تحكم بانهيار كثير من الأسر ، لأن الاعتقاد السائد ، هو أن تعقيم الرجل ، معناه فقده لقدرته الجنسية تمامًا ، وبالتالى فإن الزوجة إما أن تطالب بالطلاق ، وإما أن تنحرف جنسيًا ، وتبحث لها عن عشيق يحل محل الزوج العنين ؟

المؤيد : إنك تخشى على مشاعر وسمعة المجرم ، الذى قضى بالسجن عامًا أو أكثر ، كما تخشى أيضًا على مشاعر وسمعة من يسجن بسبب هتك العرض أو الاغتصاب ، خوفًا من أن تلاحقه العقوبة ، حتى بعد خروجه من السجن . والواقع أن كلاً منا ــ أنا وأنت ــ ينظر من زاوية مخالفة للزاوية التى ينظر منها الآخر . فبينما أنظر أنا من زاوية المجتمع ، فإنك تنظر من زاوية الفرد ، أو

الأفراد الذين لا يمثّلون سوى أنفسهم . إننا يا سيدى بصدد مشكلة اجتماعية عامة ، ولابد من العثور على حل لها ، حتى ولو كان على حساب بعض الأفراد . ولكن على كل حال فإن ما أقترحه هنا ليس على حساب فرد أو أفراد ، بل إن المذنب الذى يحكم عليه بالسجن لمدة عام أو أكثر ، يجب أن يُحْرم من أن يكون أبًا لأولاد جدد ، ويكفى ما سبق أن أنجبهم ، إذا كان قد أنجب أولادًا قبل دخوله السجن . ألست تعلم أن الكثير من المجرمين ، يربون أولادهم على الإجرام ، أفليس إذن من حق القانون ، أن يقف بالمرصاد لهم ، ويمنعهم من الإنجاب ، بعد ثبوت تورطهم فى الجرائم التى سجنوا بسببها لمدة عام أو أكثر ؟

المعارض : إن أى حكم يسقط بمرور مدة محددة . ولكن فى ضوء التشريع الذى تريد إصداره ، فإن الحكم سيظل سارى المفعول طوال عمر الرجل . فهل هذا من العدل فى شىء ؟ ناهيك عن أن بعض من يحكم عليهم بالسجن ، تثبت براءتهم ، وتخلى المحكمة سبيلهم . فماذا يكون الموقف فى هذه الحالات ، وكيف يمكن رد القدرة على الإنجاب إلى الرجل الذى أخلى سبيله وثبتت براءته ؟

المؤيد : بافتراض أن كلامك صحيح ، فإن تلك الحالات التى تثبت فيها براءة المسجون بعد الحكم عليه ، ودخوله السجن بالفعل ، نادرة على أية حال . وعلينا أن نتناول المسألة من حيث المحصلة النهائية ، وليس فى ضوء الحالات المستثناه ، أو الحالات النادرة . فالقانون يتناول العموميات ، وليس الخصوصيات . فإذا كان هناك ضحايا للقانون ، فإن هذا هو شأن جميع الأحكام الاجتماعية والأخلاقية بعامة ، أليس المجرم ثمرة لظروف وراثية أو تربوية أو بيئية ؟ ولكن القانون وما يصدره من أحكام اجتماعية وأخلاقية ودينية ،

Looloo
www.dvd4arab.com

ترمى فى النهاية إلى الحد من الجريمة والخروج عن حدود الشرعية ، ولا يجوز التعلل بالظروف الوراثية أو التربوية أو البيئية ، وتبطل بالتالى توقيع العقوبات على الخارجين عن نطاق القانون والقيم الراسخة ، ويقترفون الجرائم .

المعارض : أحسب أننا بدأنا نستطرد وننسى موضوع المناظرة الأصلى ، وهو الانفجار السكانى . فلنعاود المناقشة حوله إذن . فماذا عسى أن يكون فى جعبتك غير العقوبات الجنسية بالتعقيم ؟

المؤيد : عندى أن جميع أنواع الدعم المعمول بها حاليا ، التى تساند زيادة السكان ، يجب أن تلغى . من ذلك بطاقة التموين التى يجب أن تكون بحد أقصى خمسة أفراد ، أعنى الزوجين وثلاثة أولاد فقط . وكذا يجب إلغاء العلاوات التى تمنح للموظفين عند إنجاب أطفال إلغاء تاما . أما مجانية التعليم ، فيجب أن تقتصر على الطفل الأول فقط ، أما الطفل الثانى فيكون بنصف مصروفات ، والثالث بمصروفات كاملة . ويسرى ذلك بإزاء جميع مراحل التعليم . وبتعبير آخر يجب أن تلغى مجانية التعليم فى النهاية بالتدريج ، لأن التعليم المجانى ، أثبت أنه يشجع على الإنجاب بغير ضابط أو لجام .

المعارض : أعتقد أنك لم تصب الهدف ، لأن ما ذكرته من إجراءات ، لا يخدم القضية التى تتبرى للدفاع عنها ، وتؤيدها ، سواء من قريب أم من بعيد . فأنا لا أجد علاقة مباشرة أو غير مباشرة بين بطاقة التموين ، وبين تحديد النسل . هل تظن أن الذى ينجب ، يفكر فى بطاقة التموين ؟ إنه يفرح بالطفل المولود ، ولا يخطر على باله ما إذا كان سوف يقيد ببطاقة التموين أم لا . وكذا الحال بالنسبة للعلاوة الاجتماعية . فهل تظن يا سيدى أن الزوج أو الزوجة يقبلان

على إنجاب طفل جديد ، طمعا فى الحصول على العلاوة الاجتماعية ؟ وهل هذه العلاوة تساوى شيئا ، إذا ما قورنت بما يتكلفه الطفل المولود ؟ إنها علاوة رمزية ، وليست كفيلة بتربية ذلك الطفل الجديد . أما ما ذكرته عن إلغاء مجانية التعليم ، فهو أمر مضحك حقا ، ويثير الدهشة والسخرية معا . ألا تعلم يا سيدى أن التعليم حق مقرر للمواطن . فهل أنت ممن يشجعون انتشار الأمية ، أم أنك ممن يشجعون انتشار التعليم والوعى والثقافة ؟ إنك بدلا من أن تنادى بتوعية الصغار والكبار ، فيتأتى عن توعيتهم تنظيم النسل ، تنادى بنشر الجهل بين المواطنين . وهل تعتقد أن حرمان الأطفال من التعليم ، سوف يعمل على الحد من الإنجاب ؟ أسف أن أقول إنك تفكر بطريقة فجة ، وأن سهامك التى تصوبها بتجاه مشكلة التفجر السكانى ، سهام طائشة تماما ، مما يدل على أنك لا تجيد التصويب الصائب ، وتتأى بنفسك عن التفكير السديد فى لب المشكلة ، ولا تستطيع الاستهداء بالحلول الصائبة لحلها .

المؤيد : أرجو أن تضبط أعصابك ، ولا تنحى علىّ باللائمة ، والأحرى بك أن تتفهم مقاصدى ووسائلى التى أقدمها ، وتوليها اهتمامك بدلا من الاستهزاء بما أذكره . إن مشكلة التفجر السكانى يا سيدى ، ترتكز على أساس ، يجب ألا نغضى عنه ، هو أن الشعب ككل ، قد صار طفلا محروما من إرادة التغيير والتعديل . فمنذ أن دأبت الدولة على تدليل الشعب ، والقيام بدور ولى الأمر الذى يكفل له إشباع رغباته ، والاستماع إلى شكاويه وأناته ، وسلبه كل مسئولية إذ أنها تقوم بإعالته منذ ميلاده حتى تعيينه عن طريق القوى العاملة بعد تخرجه فى أحد المعاهد ، أو فى إحدى الكليات، أقول إنه منذ أن دأبت الدولة على ذلك ، وكأنها الأم الحنون التى تصر على إرضاع طفلها مهما كبر ، فلا ينفطم أبدا ، فإن الناس قد ضربوا بالكسل الفكرى ، أو

www.dvd4arab.com

قل إنهم صاروا ينْجبون بغير تفكير فى مستقبل من ينجبونه من أطفال . فالداء إذن هو عدم الانضباط النفسى ، وانعدام الشعور بالمسئولية . فالكل ينظرون إلى أمهم الدولة باعتبارها مسئولة عنهم ، وقد ألقى الوالدان بالمسئولية بعيدا عن نطاقهم الأسرى . فإذا أنت أردت أن تتناول المشكلة من جذورها ، فابحث إذن عن الوسائل ، التى يتسنى بها قطّم هذا (الشحْط) الذى ما يزال متعلقا بثدى أمه يرضع لبانها ، ولا يحاول أن يستقل عنها ، ويرعى شؤونه بنفسه .

المعارض : إذا كنت تقصد أن تساعد الشعب ، على أن ينفطم ، ولا يظل متواكلا ومنتظرا المعونات من الدولة ، فإن هذا لا يعمل من قريب أو من بعيد على الحد من التفجر السكانى . فطريق الإختيار مفتوح أمام جميع الناس ، وليس من سبيل أمامهم لكى يحدوا من نسلهم ، سوى التوعية والشعور بالمسئولية ، والتذرع بالنظرة المستقبلية إلى ما سوف يكون عليه حال أولادهم خلال مراحل أعمارهم التالية . وإنى لأزعم بحق ، أن وسائل الإعلام تقوم بدور خطير فى هذا الصدد ، بل إن الكثير من الأسر ، قد أقدمت بالفعل على تحديد نسلها ، لا لأنها أُجْبرت على ذلك ، بل لأنها شعرت ووعت خطورة الإكثار من الإنجاب .

المؤيد : إنك تتحدث عن قشرة اجتماعية صغيرة للغاية ، هى التى وعت وأدركت . أما الغالبية العظمى من الطبقة التى وجدت فى كثرة الإنجاب اتساعا لرقعة الرزق ، فإنها ما تزال تجد فى زيادة النسل فرصة سانحة أمامها لزيادة الكسب . ولأقل لك بصراحة إن الكثير من الأسر يربُّون أولادهم لزيادة دخلهم ، وذلك لأنهم يستثمرون أطفالهم فى أعمال تدر ربحا كبيرا عليهم . فكثير من الأطفال بدءا من الخامسة تقريبا ، يشتغلون فى الحقول ، وفى المنازل ، وفى الورش ،

وحتى فى بيع الفاكهة والليمون ، وفى غير ذلك من أعمال تعود على الطفل نفسه ، وعلى أسرته بالربح . فلماذا إذن تحديد النسل ، طالما أن الرخاء يعم الأسرة نتيجة الإكثار من الإنجاب ؟ وعلى هذا فإنى أضيف إلى خطتى ضرورة القضاء تماما على تشغيل الأطفال فى أى عمل مهما كان .

المعارض : إنى احترت معك . فأنت تتناقض مع نفسك . فبينما تطالب بإلغاء مجانية التعليم حتى بالمرحلة الأولى ، فإنك تطالب بمنع تشغيل الأطفال . فماذا يفعل الآباء والأمهات بأولادهم ، الذين لا يستطيعون سداد مصروفاتهم المدرسية ، ولا يتسنى لهم تشغيلهم فى الوقت نفسه . هل يسجنونهم بالبيت إلى أن يكبروا ، ثم يبحثون لهم عندئذ عن عمل ؟ ألا تعلم يا سيدى أن الطفل الذى يخْشوشن (ويتمرمط ويتوذك) منذ نعومة أظفاره ، ينشأ على التمرس بالعمل . فعندك مثلا الأسطوات العظام الذين يشتغلون فى شتى الحرف ، قد بدأوا اشتغالهم بحرفهم منذ نعومة أظفارهم . ولست أخفى عليك أن الكثير من المراهقين والشبان الذين انخرطوا فى سلك الإجرام ، كان إجرامهم ثمرة لفشلهم فى حياتهم . فهم لم ينجحوا فى الدراسة من جهة ، ولم يكتسبوا فنون أى حرفة من جهة أخرى . فأنت باقتراحك بمنع الأولاد من الاشتغال فى أى حرفة وعدم الانخراط فى ركب الحياة العملية ، تحكم عليهم بأن يشبوا على الانحراف عن الجادة ، والفشل فى كسب رزقهم فى المستقبل عن طريق الاحتراف بأى حرفة ، ذلك

أن الحرفة لا تكتسب إلا منذ نعومة الأظفار . وها هم فلاسفة التربية من أمثال (جون ديوى) ينادون بضرورة اشتراك الطفل فى الحياة . ولا يكون متفرجا عليها فحسب . وأسف أن أقول لك ، إن مسألة منع الأطفال من الاحتراف بحرفة ، إنما هى مسألة بعيدة كل

Looloo
www.dvd4arab.com

البعد عن موضوعنا ، وهو التصدى لمشكلة التفجر السكانى . فهل لديك شىء جديد تقوله ؟

المؤيد : طبعا عندى ، على الرغم من أننى لا أوافقك على ما تزعمه من أن ما ذكرته لك لا يصيب الهدف ، وليس له علاقة بمشكلة التفجر السكانى . فدعك مما ذكرته لك ، ولنتناول جوهر المشكلة ، فعندى أن هندسة الوراثة يجب أن تستثمر فى هذا المجال . فلماذا لا يعكف علماء هذه الهندسة ، على مدارسة هذه المشكلة ؟ أنا أعتقد أن من الممكن قيام هذه الهندسة بدور جوهرى بإزائها والتوصل إلى حل جذرى لها . فلماذا لا تعالج الكروموزومات الموجودة بخلايا الماشية والطيور ، بحيث تعمل على تقليل الخصوبة لدى الناس الذين يتناولونها ويغتذون عليها ، سواء الذكور منهم أم الإناث ؟

المعارض : أولا أنت تفترض فروضا نظرية ، لا تستند إلى واقع ممارس بالفعل . وإخال أن باعك قصير فى مسألة هندسة الوراثة ، ولك العذر فى ذلك بالطبع ، لأنك لست عالما من علماء الوراثة ، ولا عالما من علماء البيولوجيا . وعلى أية حال ، فبفرض أن ما تقوله ممكن التطبيق ، فهل هذا المنحى آمن ، وليس من ورائه خطر ربما يؤدى إلى فناء الشعب ، أو الحكم عليه بالتقلص الشديد على الأقل ؟ وعندئذ لا ينفع الندم بعد العدم . افترض أن جميع الطيور والبهائم التى نغتذى على لحومها ، قد حملت شفرات وراثية ، تعمل على تقليص الخصوبة ، ألا يمكن أن تستحيل تلك الشفرات الوراثية ، إلى عوامل قد تؤدى إلى القضاء على الخصوبة قضاء تاما ، فلا يتسنى لأى امرأة أن تحمل ، ولا يكون فى قوام أى رجل كائنات منوية حية ؟ ناهيك عن أن افتراضك هذا مناف للقيم الدينية . ألست تعلم أن العبث بإجراء التجارب الوراثية محفوف بالكثير من الأخطار ؟ ألم تقرأ أن

من المحتمل أن يكون فيروس الإيدز ، قد نجم عن عمليات تخليق أجراها بعض العلماء ؟

المؤيد : أنا آسف لأنك تنظر إلى الأمور من جانبها التشاؤمى ، ولا تتناولها من جانبها التفاؤلى . لو أن الناس جميعا سلكوا مسلكك ، وتخوفوا من إجراء التجارب المعملية ، ما كنا ننعم الآن ، بالكثير من المزايا والفوائد التى أفضت إليها اجتهادات العلماء ، بإجراء التجارب المتباينة . وحتى بالنسبة لما تزعمه من تخليق فيروس الإيدز فى أثناء تجارب العلماء بطريق الخطأ ، فهو غير حقيقى على الإطلاق ، لأنه من الثابت أنه فيروس انتقل من القردة فى إفريقيا إلى الآدميين هناك ، نتيجة اعتداء أحد القردة الذكور على إحدى النساء ، والاتصال بها جنسيا ، ثم انتقال الفيروس من تلك السيدة إلى زوجها ، ومن زوجها إلى عشيقة كانت له معها علاقة خارج عش الزوجية . واستمر انتقال الفيروس من شخص إلى شخصين إلى أربعة إلى ثمانية ، واستمر ينتقل وفق متوالية هندسية تضاعفية ، إلى أن أصبح بالعالم حوالى أربعة ملايين ونصف مليون مصاب بالإيدز . وعلى أية حال ، فسواء قمنا نحن بأنفسنا وبإرادتنا بحل هذه المشكلة الكأداء الخاصة بالتفجر السكانى ، أم تركناها للظروف والتواكل بإزائها ، فإن المبرد الطبيعى الذى قال به مالتوس **Malthus** (١٧٦٦ ـ ١٨٣٤) سيدخل فى الخط ، ويحلها بمعرفته ، سواء بانتشار المجاعات ، أم بالحروب ، أم بالأوبئة التى سوف تكتسح الملايين أمامها ، وقد بدأت بالفعل فى الانتشار بواسطة الإيدز وغيره من فيروسات تستشرى أكثر فأكثر .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

المناظرة الثالثة

لابد من استخدام الضرب فى تربية الأطفال ، سواء بالبيت أم بالمدرسة

المؤيد : من الحقائق التى ينبغى ألا تعزب عن البال ، أن الطفل يستهدى فى سلوكه ، بما يحس به من لذة وألم ، أكثر بكثير من استهدائه بما يضعه نصب عينيه ، من قيم تتعلق بالخير والشر ، أو بالمناسب وغير المناسب ، أو بالجميل والقبيح . ذلك أنه بطبيعته قريب من الحالة الغريزية ، إذ لم يقيّض له بعدُ ، أن يستوعب القيم الاجتماعية . من هنا فإن التعامل معه على أساس أنه مستوعب لتلك القيم التى يقول بها مجتمع الكبار ويراعيها ، هو الخطأ بعينه . فهو لا يستجيب ، إلا لما يحس به من لذة وألم . من هنا فإن استخدام الوسائل التى تلذه وتؤلمه ، هو الخليق بتعديل سلوكه . فلكى نثنيه عن إتيان السلوك الذى لا يماشى قيم الكبار ، لا يكون أمامنا ، سوى أن نضربه ، حتى يتألم فيرعوى وينثنى عما يأتيه من سلوك منحرف عن الجادة .

المعارض : الواقع أن رغبة المربى فى تحقيق المطابقة بين سلوك الصغير وبين سلوك الكبار ، هو ما يعمل على إشاعة الضيق والتبرم لدى المربى تجاه السلوك الذى يأتيه الصغير مباينًا لما يأتيه الكبار من سلوك . والحقيقة التى تتناساها ويتناساها الكثير من الكبار ، هو أن لكل مرحلة عمرية خصائص سلوكية ، تختلف عن الخصائص السلوكية ، التى تتسم بها باقى المراحل العمرية . فلو أن الكبار

اعترفوا وآمنوا بهذه الحقيقة ، إذن لما شاهدوا فى سلوك الطفل الصغير ، أى خطأ أو انحراف عن الجادة . وموقف الكبير الذى يضرب الصغير ، لأن سلوكه مباين لسلوك الكبار ، شبيه بموقف الأم التى تضرب طفلها الذى يمر بمرحلة الحبْو ، وتجبره على عدم ممارسته ، وإلزامه بالوقوف والمشى ، كما يمشى الكبار . فهى تتضايق لأنها تجد طفلها يحبو ولا يقف على قدميه ، وتستعجله بأن يطابق بين سلوكه الحركى ، وبين سلوك الأطفال الأكبر منه الذين لا يحْبون ، بل يسيرون على أقدامهم كما يسير الكبار . إذن فحجتك التى تسوقها لتبرير استخدام الضرب ، إنما هى حجة واهية ، فى ضوء ما ذكرناه عن ذلك التباين الجوهرى ، بين السلوك الذى يبديه الشخص نفسه فى مرحلة عمرية ما ، وبين السلوك الذى يبديه هو نفسه فى مرحلة أخرى .

المؤيد : هل يعنى هذا ، أنه ليس من حق الكبار ، أن يتدخلوا فى شؤون الصغير ، وأن يتركوه على « حل شعره » يفعل ما يشاء ؟ وبتعبير آخر : هل نتوقف عن تربية الصغار ، ولا يكون لنا من دور سوى أن نقف متفرجين عليهم ؟

المعارض : أنا لم أقل شيئًا من ذلك ، بل قلت إن السبب فى ضيق الكبير وتبرُّمه من سلوك الصغير ، هو اكتشافه ذلك التباين بين سلوك الصغير وبين سلوكه . فهو يعتقد أن ما يؤمن به ، وما يأتيه من سلوك ، هو الخليق بالاتباع ، وأن أى سلوك مباين لسلوكه ، خليق بالاجتناب والنبْو . وأنا لم أقصد بهذا أن يقف الكبير متفرجًا على ما يأتيه الصغير من سلوك دون تدخل من جانبه ، بل أقصد أن التدخل ، يجب أن يكون بطريق غير مباشر ، وذلك بالوقوف على ما يحمل الطفل على الإتيان بالسلوك ، ثم التعامل معه على أساس

Looloo
www.dvd4arab.com

الحقائق التى يكتشفها الكبير ، فمثلا إذا اكتشف الكبير أن الصغير يكذب ، فيجب ألا يبادر بضربه حتى يقلع عن الكذب ، بل يجب عليه أن يتدارس الموقف ، وأن يقف على الأسباب التى تدفع به إلى قول الكذب . فالأطفال بصفة عامة ، يتمتعون بخصوبة فى الخيال ، إلى درجة الخلط بين الواقع وبين ما يتخيلونه ، فيصدقون ما يصوغونه بخيالهم ، ويعتبرونه واقعا بالفعل . فعدم وقوف المربى على هذه الحقيقة السيكولوجية ، التى تتبدى نتائجها فيما ينتحى إليه الطفل من سلوك ، يمكن أن نعتبره سلوكا صادقا ، إذا نظرنا اليه من زاوية خصائص الطفولة ، بمعنى أنه يتطابق مع الخصائص السيكولوجية لمرحلة الطفولة ، وهو فى الوقت نفسه سلوك يعتبر فى نظر الكبار سلوكا كاذبا . وبناء على هذا فإن ضرب الطفل حتى يرعوى عن الكذب ، إنما هو خطأ تربوى فاضح .

المؤيد : الواقع أنك متحمس لعلم النفس ، ومنحاز لما تسميه ، بالحقائق السيكولوجية التى بمقتضاها تتباين خصائص الطفل عن خصائص الكبار . وأنا من جانبى أتهم علم النفس ، بأنه يعتبر الطفل كائنا مباينا للكبار ، وأن سلوكه ينبغى أن يدرس بطريقة علمية موضوعية . فهو يرغب فى مدارسة الظواهر السلوكية ، كما يتدارس علم الكيمياء الخامات لاكتشاف خصائصها . ولكن ألست معى فى أن مراعاة خصائص الطفولة ، والسير خلفها ، والخضوع لمشيئتها ، إنما يحيل الطفل إلى مارد يتحدى الكبار ، ويظل على هذا الحال طوال حياته . أضف إلى هذا أننا إذا نحن أخذنا بنظرتك الوضعية هذه ، فإننا سوف نعممها بإزاء مراحل العمر التالية ، فنقول إن للمراهق والمراهقة خصائصهما التى تختلف عن خصائص الكبار ، وأن للشاب والشابة خصائصهما التى تختلف أيضا عن خصائص الكبار . وبذا

فإننا نضرب صفحا عن القيم التى يأخذ بها عالم الكبار ، ومن ثم فإننا نسمح بوجود عوالم متباينة ، عالم للطفولة ، وعالم للمراهقة ، وعالم للشباب ، وعالم للكهولة (بين ٣٠ ، ٥٠) وعالم للشيخوخة (بعد الخمسين) ، وهكذا تتفكك قيم المجتمع إلى قيم متباينة بتباين الأعمار ، وبالتالى فإنه يفقد وحدته ، وتضيع معالمه وقيمه .

المعارض : أنا لا أسعى إلى إلغاء وحدة المجتمع ، بل إنى من أنصار تحقيقها والمتحمسين لها ، ولذا فإنى أسعى إلى توفير فرص التكامل فى شخصيات أبناء المجتمع ، بحيث يمر كل شخص بمراحل عمره المتتالية ، أعنى الطفولة والمراهقة والشباب والكهولة والشيخوخة ، وهو فى حالة انسجام مع نفسه من جهة ، وفى حالة انسجام مع المجتمع الذى يحيا فى إطاره من جهة أخرى . وما أرمى إليه هو أن يوفر المربون المناخ المناسب ، لتحقيق ذلك التكامل . فليس بالضرب يتحقق التكامل النفسى ، أو يتحقق التكامل الاجتماعى . فما يتسنى تحقيقه بواسطة الضرب ، هو العمل على إخفاء السلوك الظاهر ، وعدم السماح له بالمروق إلى ظاهرية السلوك . ذلك أن السلوك سلوكان : سلوك باطنى ، وسلوك اخر ظاهرى . فأنا قبل أن أقوم بالتعبير التحريرى الذى أنقشه الآن على هذا الورق الموضوع أمامى ، فإنى أفكر فيما سوف أقوم بكتابته ، والتعبير عنه . فعملية التفكير هذه ، هى السلوك الباطنى المعتمل بدخيلتى . أما عملية الكتابة نفسها ، والتعبير عما يدور بخلدى ، فهو السلوك الظاهرى . فاستخدام الضرب ، يحول دون إبداء السلوك الداخلى ، والاكتفاء بالسلوك الخارجى . فالطفل الذى يكذب ، إذا ضربته لأنه قال كلاما غير مطابق للواقع ، لا يتعلم الصدق فى الحقيقة ، بل يتعلم إخفاء الكذب ، وعدم الإفصاح عنه . فأنت إذن لا تربيه ، بل ترهبه ، وتحمله على

Looloo
www.dvd4arab.com

أن يحذر منك ، ويتحاشى قول الكذب أمامك ، لكنه سوف ينتهز الفرص المتاحة ، لكى يعبّر عن سلوكه الداخلى ، المنافى للحقيقة ، الذى نسميه الكذب ، طالما أنه مطمئن إلى أنه فى أمان ، وسوف لا يتعرض للضرب ، إذا ما قام بالتعبير عما بداخله من صور ذهنية غير مطابقة للواقع الخارجى . ولكن إذا وقف المربى على الحقائق السيكولوجية الخاصة بكل مرحلة عمرية ، وراع تلك الحقائق فى تعامله مع الأشخاص الواقعين فى نطاقها ، فإنه يكون قد حقق لهم التكامل النفسى من جهة ، كما يكون قد حقق لهم التكامل الاجتماعى من جهة أخرى . ذلك أنه يُلبس سلوكهم ما يناسبه من قيم اجتماعية ، ولا يفرض عليهم أنماطاً سلوكية ، ليست على مقاسهم النفسى والنمائى . وأنا أزعم أن المربى الذى يستخدم الضرب مع الأطفال أو المراهقين أو الشباب ، إنما يكون عاملاً على فقدانهم التكامل النفسى من جهة ، وغير محقق لهم التكامل الاجتماعى فى قوامهم السلوكى الاجتماعى من جهة أخرى ، بل إن ما يبدو فى سلوكهم الظاهرى من توافق ، مع ما يقول به المجتمع ، إنما هو زيف ومماليأة عمياء ونفاق لا يحمل فى قوامه الحقيقى أى أصالة سلوكية ، أعنى أن سلوكه الخارجى ، لا يتطابق مع سلوكه الداخلى ، بل يكون هناك تناقض بين النوعين من السلوك ، فهو يبدى من السلوك ، غير ما يخفيه عن الأنظار من مشاعر واتجاهات . وبذا فإن المربى ، يكون عندئذ عاملاً على إشاعة الزيف بين من يقوم بتربيتهم ، بسبب استخدامه للضرب فيما يظن أنه تقويم لسلوكهم .

المؤيد : فلأماشيك فيما تذهب إليه ، برغم عدم اقتناعى بكل ما قلته ، ولكن من صميم كلامك أفند ما قلته . ألا تعلم أن الخوف ، يعتبر مقوّماً جوهريا من صميم سلوك الطفل والمراهق والشاب

والكهل والشيخ ؟ فالخوف باعتباره غريزة ، يحتل مكانة أساسية فى تسيير سلوكنا خلال أى عمر ، وفى أى موقف . والشخص الذى لا يلعب الخوف دورا مستمرا فى حياته وفى سلوكه ، يكون من المرضى النفسيين . فالمرء يخاف على حياته ، وعلى سمعته ، وعلى تقدير الآخرين له ، وعلى تقديره لنفسه ، أعنى إحساسه بعاطفة اعتبار الذات self-regarding sentiment ، التى أكد مكدوجال Mcdougail William (١٨٧١ _ ١٩٣٩) وجودها واعتمالها ، كما أناطها بدور أساسى فى تشكيل الشخصية . فإذا اعترفت بأهمية الخوف ، فى تشكيل شخصية الطفل وشخصية المراهق والشاب ، بل وأيضا الكهل والشيخ ، فإنك تكون بالتالى ، قد اعترفت بأهمية استخدام الضرب ، فى إشاعة أو تنشيط الشعور بالخوف فى قلب الشخص الذى تقوم بتربيته ، أو التأثير فيه ، بشكل أو آخر . وعليك أن تعترف ، بأن ثمة أشكالاً رمزية ، تحل محل الضرب المباشر . من ذلك مثلاً ، توقيع عقوبة الخصم من المرتب بالنسبة للموظف . إن الرئيس الذى يقرر هذه العقوبة على مرءوسه ، إنما يكون قد استخدم عقوبة ، ترمز إلى الضرب . فهو يقوم بتأديبه بالضرب الرمزى ، بدلا من استخدام العصا فى تأديبه . ولكن بالنسبة للطفل ، الذى لم ينمّ النمو الكافى ، لكى يحل الضرب الرمزى محل الضرب الفعلى ، فلا يكون من مناص ، سوى استخدام العصا ، فى ثنيه عن الطريق الخاطئ الذى يسلكه .

المعارض : إنك تفهم الخوف بمعنى التخويف ، أى إشاعة الرعب فى قلب الطفل أو المراهق أو الشاب الذى تقوم بتربيته . والواقع أن الشعور بالخوف الذى يحس به المرء ، قد يكون خوفا على شىء ، وليس خوفا من شىء . فالشخص الذى يخاف على صحته من

Looloo
www.dvd4arab.com

الإصابة بالمرض ، يكون صادرا فى خوفه عن اختيار شخصى . فهو يرى أمامه بديلين : البديل الأول : الإصابة بالعدوى بالمرض ، والبديل الثانى : تجنب هذه الإصابة بالعدوى . وهو لا شعوريا يقع على البديل الثانى ، ويتم اختياره له . وهو فى عملية الاختيار هذه ، يحس بالخوف على نفسه من جهة ، والخوف من العدوى من جهة أخرى . أما التخويف باستخدام الضرب الذى يستعين به المربى ، فهو شعور بالخوف من الألم الذى يسببه الضرب ، ولا يوجد شىء إيجابى فى الموقف يخاف عليه . صحيح انه يخاف على نفسه من الأذى ، ولكن الأذى ، لا يوفر له موقفا إيجابيا ، كالشأن بالنسبة للشخص الذى يحافظ على جسمه من الإصابة بالمرض . فكل ما يعمله الشخص الذى يتلقى الضرب ، هو الخوف من الألم . وإذا هو أقلع عن السلوك الظاهرى نتيجة الضرب ، فإن ذلك لا يشكل لديه دينامية سلوكية ، كحال المرء الذى يحافظ على جسمه من الإصابة بالمرض . ناهيك عن أن الشخص المضروب ، لا يمسك بزمام الموقف . فهو لا يختار ، بل يُجْبر على انتهاج السلوك الذى يريده له المربى ، الذى يضربه . وبذا فإن الضرب ، لا يربى عند الطفل أو المراهق أو الشاب ، باعثية سلوكية يصدر عنها ، بل يكون سلوكه خاضعا للفعل ورد الفعل . فإذا ما توقف الفعل ــ وهو فى هذه الحالة الضرب ــ فإن رد الفعل ــ وهو انتهاج السلوك الذى يرغب فيه المربى ــ يتوقف عن الاستمرار . وإذا قلت لى إن أثر الضرب المتمثل فى الخوف ، يستمر معتملا فى قلب من نقوم بتربيته بالضرب ، فإنى أقول لك إن مثل هذا السلوك ، ليس سلوكا جوهريا ، أو قل إنه سلوك زائف لا يعبر عن حقيقة المرء الداخلية ، ولا يصدر عن اختيار حر بين بديلين أو أكثر ، لكى يقع المرء على واحد منها بمحض اختياره وانتحائه إليه بإرادته الشخصية .

المؤيد : الواقع أن ما ذكرته لتوك بصدد البدائل أو الخيارات التى جعلتها أساسا للسلوك الجوهرى ، ليس من الجوهرية فى شىء بالنسبة للطفل ، بل إن تلك البدائل أو الخيارات ليست جوهرية حتى خلال مراحل العمر التالية . فأنت تعلم أن مرحلة الطفولة ، هى المرحلة التى تتشكل خلالها معظم العادات ، سواء كانت عادات حركية ، أم عادات عقلية ، أم عادات وجدانية ، أم عادات كلامية ، أم عادات اجتماعية . وأنت تعلم أيضا أن اكتساب العادات يكون فى كثير من الأحيان ، متواكبا مع اكتساب بعض العادات الرديئة ، إلى جانب اكتساب بعض العادات الجيدة . والعادات التى يكتسبها الطفل ، تتسم بأنها ذات طبيعة اجتماعية . وأن اكتسابها ، وبخاصة العادات الحركية ، يتم بطريقة آلية ، شبيهة بالطريقة الآلية التى يمارسها مدرب الحيوانات والطيور فى تدريبه لها ، للإتيان بالحركات المطلوبة . ومن المؤكد أنك تعلم أن مدرب السيرك ، يمسك بالكرباج فى أثناء التدريب ، ويضرب الحيوان الذى يخطئ فى الإتيان بالحركات المطلوبة ، كما أنه يكافئه بتقديم قطع من الحلوى إليه ، عندما يكتسب الحركات المطلوبة كمكافأة له . وبتعبير آخر ، فإن مدرب الحيوانات ، يستعين بما يوقعه من ألم ، وبما يُلذ به الحيوان ومكافأته بطعام يحبه ، فى أثناء قيامه بالعمليات التدريبية ، حتى يتسنى له اكتساب الحركات المطلوبة بدقة . ونحن نعلم أن هناك قطاعا مشتركا بيننا وبين الحيوانات . فلابد من استخدام الضرب فى أثناء التدريب على اكتساب العادات المتباينة . أما الخيارات التى تقول بها ، فإنها لا تدخل فى نطاق اكتساب العادات ، كما إنها لا تتوافر ، إلا بعد أن ينمو الطفل ويبلغ المراحل العمرية التالية ، وبعد أن تتوافر أمامه الخيارات رويدا رويدا ، حسبما تسمح بذلك إمكاناته وقدراته .

Looloo
www.dvd4arab.com

المعارض : أسف لأنك لا تميّز بين الطفل وبين الحيوان ، وتزعم أن بينهما قطاعًا مشتركًا ، ومن ثم فإن العصا والكرباج ، حسب قولك ، يشكلان الأداة الناجعة ، فى تدريب الطفل على اكتساب العادات المتباينة . ولكن الواقع غير ما ذهبت إليه تمامًا . فالطفل يكتسب العادات عن طريق عمليتين أساسيتين هما الإيحاء والتقليد . صحيح أن الحيوان يمكن أن يكتسب هو أيضًا ، قليلاً من العادات بواسطة هاتين العمليتين ، ولكن قدرته على تقبُّل الإيحاءات وعلى التقليد ضئيلة ، إذا ما قورنت بقدرة الطفل على ذلك . من هنا فإن الاعتماد على هاتين العمليتين فى كسب الطفل للعادات المتباينة ، هو الطريق الوحيد للعمل على استمرار نموه فى اكتسابها ، وفى التطور بها وتعديلها . فأنت أخطأت إذن خطأ بالغًا ، عندما زعمت أن الطفل يكتسب العادات بواسطة الضرب ، بل إنى أؤكد لك ، أن الضرب ، يمكن أن يحول بين الطفل ، وبين اكتساب العادات ، وذلك لأن الجو الاجتماعى المُشبّع بالطمأنينة وليس بالخوف ، هو الخليق بحمل الطفل على تقبّل الإيحاءات ، وعلى تقليد الناس من حوله ، فالحب والتشجيع والتفاعل مع واقع الطفل النفسى ، هو الطريق الوحيد الذى يسمح باعتمال الإيحاء لديه ، وحمله على تقليد من يحبهم ، ويهفو بقلبه إليهم .

المؤيد : إنك تتحدث عن اكتساب العادات ، بواسطة الإيحاء والتقليد من زاوية واحدة ، هى الزاوية الإيجابية ، أعنى اكتساب العادات الجيدة . ولكن الواقع أن هناك العادات الرديئة إلى جانب العادات الجيدة . فماذا يكون موقف المربى بإزاء تلك العادات الرديئة ، التى يكتسبها الطفل من هنا أو من هناك ، نتيجة اختلاطه بالآخرين ، والأخذ عنهم دون تمييز بين الجيد من العادات ، وبين الرديء منها ؟ فى رأيى أن لا سبيل إلى اقتلاع تلك العادات الرديئة من شخصية

الطفل ، ومن سلوكه ، سوى استخدام الضرب بإزائه . فما رأيك ؟ ألست توافقنى على ذلك ؟

المعارض : أنا لا أوافقك ، بل أؤكد لك أن استخدام الضرب ، بقصد اقتلاع العادات الرديئة من شخصية الطفل ، يعمل على تثبيت تلك العادات الرديئة فى شخصيته وترسيخها فى قوامه النفسى . صحيح أن من الممكن أن يتظاهر الطفل ، بأن ما تريد إقلاعه عنه من عادات رديئة ، قد حدث بالفعل ، وأنه استجاب لك نتيجة استخدام الضرب فى تأديبه ، ولكن الحقيقة مباينة لذلك . فأنت تعمل فى الواقع على تعليم الطفل النفاق ، وذلك بأن تحمله على أن يستخدم طريقتين فى التعامل : طريقة معك ، وطريقة أخرى مع غيرك . فهو أمامك يتحاشى إبراز ما اكتسبه من عادات رديئة ، كأن يضع أصبعه فى أنفه ويعبث به ، ولكنه فى غير حضرتك ، يمارس تلك العادة القذرة . فهو يتوقف عن ممارسة تلك العادة وغيرها من عادات رديئة ، طوال وجوده معك . ولكن ما أن يوجد مع أشخاص يطمئن إليهم ، حتى يبدأ فى العبث فى أنفه . والطريقة الصحيحة التى يجب أن نتعامل بها مع الطفل الذى اكتسب عادات رديئة ، هى تقديم نماذج طيبة أمامه متمثلة فى الأطفال الذين لا يمارسون تلك العادات الرديئة . نأهيك عن الاعتراف ، بأن المرء يُعدّل سلوكه عن طريق التربية الذاتية ، أعنى تربيته لنفسه بنفسه ، بمرور الوقت ، ومع استمراره فى النمو الخيّرى ، ومع تقبّله للإيحاءات الجيدة ، التى لا تؤتى ثمارها فى النو واللحظة ، بل تحتاج إلى فترة معينة تختمر فيها ، وتعمل عملها فى شخصيته .

المؤيد : وما رأيك إذا كان الطفل ممن يمارسون تصرفات ، تهدد أمن الآخرين ، أو تعرّضهم للأذية أو للإصابة بالعاهات ، كأن

Looloo
www.dvd4arab.com

يحاول أحد الأطفال أن يفقأ عين أخيه أو أخته بالبيت ، أو عين أحد زملائه بالفصل ؟ هل نتركه وشأنه ، أم نضربه ؟

المعارض : واضح أن طفلا كهذا لا يكون واحدا من الأسوياء ، بل هو طفل شاذ بمعنى الكلمة . والأطفال الشذاذ يجب عزلهم عن الأطفال الأسوياء . ولكن دعنا نركز على الأسوياء العاديين ، وذلك لأن الشواذ ، قد تخصص فى تربيتهم معلمون لهم وسائلهم الخاصة التى لا نخوض فى الحديث عنها ، ولنركز جهدنا بإزاء الأسوياء من الأطفال فحسب .

المؤيد : أنا لا أوافقك على ما تقوله من استبعاد الحديث عن غير الأسوياء من الأطفال . ذلك أن أكثر الأطفال سوية ، يمكن أن يبدى بعض السلوك الشاذ فى لحظة غير متوقعة . فما رأيك فى طفل يشهد له جميع المتعاملين معه ، بأنه طفل مهذّب ، وإذ به يبدى بعض الانحرافات الجنسية فى تعامله مع زملائه أو زميلاته بالفصل . خذ مثالا لذلك بطفل بالصف الثالث الابتدائى بإحدى المدارس الابتدائية . كان طفلا هادئا وديعا وطيبا ، كما كان محبوبا من سائر زملائه وزميلاته ، ولكنه بدأ بعد مرور شهر تقريبا من العام الدراسى فى الهجوم على زميلاته بالفصل يحاول تقبيلهن والإمساك بهن ومعانقتهن . فكان من الطبيعى أن تقوم مدرّسة الفصل بضربه ضربا مُبرحا ، حتى يرعوى ويتوقف عن هذا السلوك المنحرف . فهل بمقدورك أن تعتب على هذه المدرّسة ، لأنها استخدمت هذا العنف مع ذلك الطفل ، ولأنها استخدمت العصا فى تأديبه ؟ وهل إذا كنت أنت مكانها ، ألم تكن تستخدم الأسلوب نفسه ، الذى استخدمته تلك المدرّسة بأن تضرب ذلك الطفل وتؤدبه ؟

المعارض : أحب أن أميّز بين فاعلية الضرب فى الحيلولة بين المرء وبين إبداء السلوك ، وبين فاعليته فى تعديل باعثية السلوك ، وإبدال الدوافع التى تعمل على إظهاره على الملأ . فالمدرّسة التى ضربت هذا الطفل ، ربما تكون قد نجحت فى تخويفه من أن يعتدى على زميلاته ، نتيجة ما يعتمل لديه من بواعث جنسية مبكرة ، ولكنها لم تنجح بالتأكيد فى إدخال تعديلات سلوكية جوهرية فى شخصيته . إن ما قامت به لا يدخل فى نطاق التربية ، بل يدخل فى نطاق عمل رجل الشرطة ، الذى يضرب المجرم ، لكى يتوقف عن الإجرام . فمهمة التربية هى فى الواقع العمل على تعديل السلوك الداخلى ، قبل أن تتبدى ثماره فى التعامل مع الناس .

المؤيد : ما دمت قد قلت إن هذه المدرّسة قد تنجح فى إخفاء ما يتبدى من سلوك خارجى أمام الناس ، فإنى أركز على هذه النقطة التى اعترفت بها ، وأذكرك بما قال به وليم جيمس **James, William** (١٨٤٢ ـ ١٩١٠) من أن الإتيان بالسلوك الخارجى ينعكس على قوام المرء الداخلى . فهو القائل نحن نفرح لأننا نضحك ، ونحن نحزن لأننا نبكى ، فهذا الطفل إذا ما توقف من حيث ظاهرية السلوك عن الاعتداء على زميلاته ، فإن توقفه هذا ، سوف ينعكس على دخيلته ، فيتوقف عن تخيل نفسه ، وهو يعتدى عليهن ويعدّل بالتالى بواعثه السلوكية . وأنت تعلم أيضا أن الممثل على المسرح ، عندما يمثل أدوار الأشخاص الورعين الأتقياء عدة مرات ، فإنه يستحيل بالفعل إلى شخص ورع تقى . وعلى العكس من هذا فإن الممثل الذى يمثل أدوار اللئام أو المجرمين باستمرار ، يتأثر بهم شخصيا فى قوامه النفسى ، بما لعبه من أدوار تدور حول سلوكهم . وهناك ممثلة مثّلت دور المجنونة على المسرح عدة ليال متعاقبات ،

Looloo
www.dvd4arab.com

فاستمرت بعد ذلك متلبّسة فى حياتها العادية به ، ولم تعد قادرة على التخلص من تأثير ذلك الدور الذى مثلته فى شخصيتها ، مما اضطرها إلى اللجوء إلى الطبيب النفسى ، حتى يعالجها مما أصابها من اعوجاج نفسى .

المعارض : وحتى إذا كان ما تقوله صحيحًا ، فالأصح منه أن نتناول هذا الطفل الذى شذ عن زملائه بالمدرسة بالفحص والمدارسة . فربما تكون هناك أسباب بيولوجية ــ وهذا هو الأرجح ــ تعمل على اندفاعه فى هذا التيار السلوكى الشاذ . ألا تعلم أن بعض الأطفال يحملون تكوينات جنسية فائرة . فمنهم من لم يبلغوا سوى الخامسة من العمر الزمنى ، ولكن عمرهم الجنسى قد يصل إلى خمسة عشر عامًا أو أكثر . فالمحتمل أن يكون الولد الذى ذكرته فى حاجة إلى إجراءات طبية . فبدلاً من توقيع عقوبة الضرب المُبَرِّح عليه ، يقوم الطبيب المختص بإعطائه بعض العقاقير أو الحقن التى تعمل على إبطاء نموه الجنسى ، فيستحيل بذلك إلى شخص سوى . والواقع أن من يضرب طفلاً كهذا ، يشبه والد المريض بالجنون الذى يضربه بعنف حتى يقلع عن جنونه ، وحتى يستحيل إلى شخص عاقل ، مع أن الأحرى به أن يعرضه على طبيب الأمراض النفسية والعصبية . فهو الذى يعرف كيف يتعامل معه طبيًا . وبالمناسبة أقول لك ، إن التربية والطب حليفان وصديقان حميمان . فالمربى لا يستغنى عن الوعى الطبى ، كما لا يستغنى الطبيب عن الوعى السيكولوجى والتربوى .

المؤيد : إنك فى الواقع منحاز لمسألة البحث فى أغوار الإنسان الداخلية . وهذا الاتجاه فى رأيى لا طائل وراءه ، فأنتم المتحيزون إلى علم النفس تذهبون إلى ترجمة الشر إلى مرض نفسى ،

والانحراف إلى عوامل وراثية أو بيئية . وبالتالى فإنكم تلغون حقيقتين أساسيتين ، هما الخير والشر ، وتحلون محلهما الصحة النفسية والمرض النفسى . وهذا ما نتهمكم به نحن المتحمسين للمجتمع ، والمدافعين عن حقوقه . إن ما يهمنا هو النتائج السلوكية البادية للعيان . أما التمحُّك بدخائل الناس والتمسُّح فى دوافعهم وغرائزهم وغير ذلك من تعلاّت فارغة من المضمون ، فهو ما لا نقبله بأى حال من الأحوال . فلو أننا سرنا وراء ما تريدون ، فإن الفوضى ستعم الأسر والمؤسسات الاجتماعية . ولعلى لا أبالغ إذا ما قررت أن الكثير من العلاقات الأسرية والمدرسية ، قد أصيبت بالاعوجاج والفوضى ، لأن كثيرًا من الآباء والأمهات والمعلمين والمعلمات ، قد انتحوا هذا النحو الفارغ من المضمون الواقعى الذى أشعتموه بينهم . فكل انحراف يبدو فى سلوك الأطفال أو المراهقين أو الشباب ، يجد له مبررًا فيما تزعمونه من بواعث وغرائز وأمراض نفسية ، أو علل جسدية بيولوجية . وبذا فقد ضاعت المسئولية بسببكم ، ونتيجة لما تشيعونه بين الناس من أفكار سيكولوجية لا تجدى نفعًا ، وليس لها نتائج طيّبة مباشرة أو غير مباشرة ، بل إنها تفسد الناشئة ، وتترك لهم الحبل على الغارب ، بل وتبرر كل ما يتبدى فى سلوكهم من انحرافات ومن أخلاق سيئة . ورحم الله أجيالاً كانت تستخدم العصا بالبيت والمدرسة على السواء ، فكان الأولاد والبنات ينشأون على الأخلاق الكريمة ، كما كانوا يعملون الحساب كل الحساب للمدرس ويخشون بأسه ، خلافًا لما هو شائع اليوم من انهدام لهيبة الآباء والأمهات والمعلمين والمعلمات ، بعد أن اطمأن الصغار إلى أن أحدًا سوف لا يقرع العصا على أيديهم أو على ظهورهم ، وقد تقلصت سلطة المسئولين عن التربية بالبيت والمدرسة على السواء ، نتيجة تلك الأفكار السيكولوجية والتربوية الفارغة من المضمون ، والتى لا يمكن ترجمتها إلى واقع

www.dvd4arab.com

سلوكى مباشر فى نطاق الواقع الاجتماعى الأسرى والمدرسى على السواء .

المعارض : يؤسفنى أن أقول إن موقفك هذا كموقف الشخص الذى يؤمن بالوصفات البلدية فى معالجة الأمراض ، فيقاطع الطب والأطباء ، وهو أيضا كموقف الشخص الذى لا يؤمن بالعلم ، بل يعتقد أن الخبرة المباشرة ، التى تستقى من الورش ومن مجالات العمل المتباينة بغير توافر أساس علمى لدى المتمرن ، هى الكفيلة بالتقدير والاعتراف . ومن ثمّ فإنه يقاطع المعاهد والكليات والكتب والمراجع ، ولا يعترف إلا باكتساب الخبرة من خلال ممارسة العمل المباشر . فها أنت ترفض المكتشفات العلمية المتعلقة بالإنسان ، أعنى مكتشفات علماء النفس وعلماء التربية ، ولا تعترف إلا بالنتائج السلوكية التى تصدر عن الناس . فلا يهمك أن تقف على العوامل المؤثرة فى السلوك ، أو على الديناميات التى ينبعث منها ، والتى تعتبر ثمارا لاعتمالها فى قوام الشخصية الإنسانية . ومعنى هذا فى الواقع ، أنك تريد أن ترجع بنا القهقرى إلى ظلمات الجهل .

المؤيد : أنا لا أنادى بالرجوع إلى ظلمات الجهل ، بل على العكس من هذا ، فأنا أريد أن أبصرك بالوسائل الفعّالة فى توجيه السلوك . فأنت باختصار ترجّح كفة التدليل ، بينما أنا أرجّح كفة الحزم . فأنت تتناول الشخص المنحرف سلوكيا ، باعتباره مريضا يستحق الشفقة والحنان ، بينما أتناوله أنا باعتباره شخصية مسئولة ، تستحق أن تعاقب على ما صدر عنها من أخطاء . قل لى بالله عليك : ماذا يفعل المدرس عندما يجد أن التلاميذ لا يطيعونه ، ويهملون الواجبات المدرسية التى يطلب منهم أداءها ؟ وماذا يفعل الوالدان إذا ما ظل الطفل نائما فى سريره فى الصباح ، ولا يريد أن ينهض من فراشه

مبكرا ليتوجه إلى المدرسة ؟ هل يرتبون عليه ، أو يمسحون له الجوخ حتى يلين فيطيعهم ، أم يأخذونه بالحزم ، فيضربونه لينهض ويمارس واجباته ، ويتحمل المسئوليات ؟ إخال أنك تنادى بأفكار وشعارات ولكنك لا تمارسها ، أو أن ممارساتك فى الحياة العملية متناقضة مع ما تعلنه على الملأ . وأسف أن أصف موقفك هذا بأنه النفاق بعينه .

المعارض : انك ما تزال تلقى الكلام على عواهنه ، ولا تسبر أغوار كلامى واتجاهاتى . فأنا لست ضد الحزم ، بل أنا ضد الوسيلة الأثيرة لديك فى ممارسة الحزم والتعبير عنه ، وهى الضرب . فأنا أعتقد أن من يستخدم الضرب فى تربية النشء ، كمن يستخدم العكاز فى المشى ، والانتقال بواسطته من مكان لآخر . فكما أن الشخص الذى يستخدم العكاز فى التحرك من مكان لآخر ، يحس بعجزه عن المشى إذا لم يستعن به ، كذا فان المربى الذى يستخدم العصا ، هو شخص عاجز عن توظيف حزمه ، إلا بتلك الوسيلة الدنيئة . طبعا أنت تعلم أن صاحب الشخصية القوية ليس بحاجة إلى عصا يخيف بها الناس الذين يتولى أمرهم ، ويقوم بتربيتهم . أما صاحب الشخصية الضعيفة ، فإنه بحاجة إلى مساندة تلك الأداة الجمادية . فالواقع أن السلطة النفسية التى تتمثل فى ملامح الوجه ونبرات الصوت والحركات المتزنة ، وفى مدى تقدير الصغير للكبير ، وحبه له ، وخوفه من أن يثلم مشاعره أو أن يفقد شيئا من حبه وحنانه عليه ... أقول إن هذه السلطة النفسية ، هى الخليقة بأن تكون فى حوزة المربى . ومن المؤكد أنك فى معاملاتك منذ طفولتك حتى اليوم قد قابلت الكثير من أصحاب الشخصيات القوية ، الذين لم يكونوا فى حاجة إلى الاستناد إلى عكاكيز ، أعنى العصى التى يهددون بها الصغار ،

Looloo
www.dvd4arab.com

ويضربون بها المخالفين والخارجين على النظام أو المشيحين عن أوامرهم .

المؤيد : إنك فى الواقع تركز ذهنك فى نطاق الشخصية القوية ، من حيث الصبغة العامة لحياتها ، ولكنك أسقطت من حسابك ، الحالات المستثناة التى تجابهها تلك الشخصية ، وهى الحالات الشاذة عن الشائع ، أو الخارجة عن نطاق الصبغة العامة فى مسار حياتها . خذ مثالا لذلك بالقاضى المتزن والمثالى . إنه الشخصية التى تتحرز جدا فى إصدار أحكام قاسية كالحكم بالإعدام مثلا . فهو لا يكاد يصدر حكما بالإعدام إلا بعد أن يثق تماما بأن المتهم مستحق لهذا الحكم القاسى ، وأن لا سبيل أمامه سوى إصداره . ولكن هذا لا يصل إلى درجة أن ذلك القاضى الحكيم ، لا يصدر أى حكم بالإعدام ، فتكون أحكامه كلها رحيمة . إنه إذا كان هذا هو حاله ، فإنه لا يكون عندئذ قاضيا حكيما ، بل يكون قاضيا متهاونا فى عمله . والأب والأم والمعلم والمعلمة ليسوا مربين فحسب ، بل هم قضاة أيضا ، بل هم أيضا منفذو الأحكام التى يصدرونها . وأنا لا أنادى باستخدام الضرب عمّال على بطّال ، بل أنادى باستخدام الوسيلة المناسبة لكل موقف ، وعدم الاستمساك بمبدأ نظرى يقوم المربى بتطبيقه حرفيا ، دون النظر إلى ظروف وملابسات الموقف . وبتعبير آخر فإن المربى كالطبيب الذى ، وإن امتلأ عقله بالعلوم والنظريات الطبية ، فإنه لدى قيامه بالكشف على المريض ، يبدأ من الواقع المحسوس ، أعنى الحالة المرضية التى يتناولها بالفحص ، ومنها ينطلق إلى التشخيص ، وإعمال النظريات والعلوم الطبية التى اكتسبها ، وتوظيف خبرته السابقة ، لتحديد نوع العلاج الذى ينبغى أن يخضع له المريض . ومعنى هذا أن الطبيب والمربى يجب أن يتبعا المنهج الاستقرائى

inductive ، أى أنهما يبدآن من الواقع ، ويفصّلان خبرتهما عليه ، لا أن يكونا مقيّدين بالأفكار والنظريات المُسْبقة التى تسيطر على أذهانهما ، ويلتزمان بحرفيتها .

المعارض : الحمد لله أنك اعترفت بأهمية المعرفة بالنسبة للمربى ، وطبعًا أهم معرفة يحوزها المربى هى علم النفس والتربية . وأنا معك على طول الخط ، بإزاء ما ذكرته من وجوب تشخيص حالة الشخص المخالف . بيد أن هناك نوعين من التشخيص : نوع يتعلق بتشخيص السلوك الخاطئ ، ونوع يتعلق بتشخيص الشخص نفسه صاحب ذلك السلوك الخاطئ . فالقاضى الذى ضربت مثالا به ، يهتم بالنوع الأول من التشخيص . فهو يحدد الجُرْم الذى اقترفه المتهم ، ويحدد العقوبة فى ضوء مدى الأضرار التى تأتت عن ذلك الجُرْم . أما المربى الخليق بالتقدير ، فهو ذاك الذى يهتم بالنوع الثانى من التشخيص . فمثلا إذا وجد أن واحدا ممن يقوم بتربيتهم قد سرق شيئا من أحد زملائه ، فإنه لا يشخص عملية السرقة ، بل يشخص السارق نفسه ، ليقف على الدوافع التى حملته على اقتراف السرقة . فلقد يكتشف أن ذلك الطفل أو المراهق أو الشاب ، مصاب بالسرقة المرضية **Kleptomania** ، وفى هذه الحالة فإنه يحيله إلى المعالج النفسى ، وقد تكون السرقة نتيجةَ الحرمان من نوعية معينة من الأشياء ، هى تلك النوعية التى تتركز فيها السرقة . فإذا ما أشْبع الشخص السارق حاجته النفسية من هذه النوعية ، فإنه يكف عن السرقة . وقد تكون السرقة نتيجة الغيرة من الشخص الذى يستولى السارق على أشيائه . فهو يعتقد أن ذلك الشىء الذى يسرقه هو سر امتياز ذلك الشخص المسروق . إلى آخر تلك الاعتبارات والتشخيصات التى لا تنصب على عملية السرقة ذاتها ، بل تنصب على

Looloo
www.dvd4arab.com

شخصية السارق نفسه . ولعلنا نقول إن عمل المربى يكمل عمل القاضى . فبينما يركز المربى ذهنه فى شخصية المتهم ، فإن القاضى يركز ذهنه فى الجريمة التى وقعت . وبذا تكتمل الصورة ، وتساند كل نظرة من هاتين النظرتين النظرة الأخرى ، ولا تتعارض معها .

المؤيد : على الرغم من أنى لا أعترض على ما ذكرته الآن ، فإنى أتساءل : أليس من الممكن أن يكتشف المربى أن الضرب ، يشكل وسيلة من بين وسائل علاج الانحراف الذى يصدر عن بعض الأشخاص الذين يقوم بتربيتهم . فأنا سوف أسايرك فى القول بأن المربى يركز ذهنه فى شخصية من يقوم بتربيته ، ولا يركز ذهنه فى الانحراف الذى اقترف . إنك تعلم أن المدرس أو المدرسة يتعاملان مع أكثر من سبعين طفلاً بالفصل الواحد . ومن الطبيعى أن الفروق الفردية بين هذا الجمع الغفير من الأطفال كثيرة ومتباينة . فهل من الممكن أن نتخيل أن جميع أولئك الأطفال يهابون مدرسهم أو مدرستهم بنفس القدر ؟ ألا يوجد من بينهم من اعتاد على أن يُضْرب فى البيت ، وبالتالى فإنه لا يخاف أو يرعوى إلا إذا ضُرب ؟ إنك بالتأكيد توافقنى على أن المدرس أو المدرسة اللذين يقومان بتدريس فصل كهذا ، مشحون بالأطفال ، وقد رصُوا كالسردين فى علبة صغيرة اسمها الفصل ، لابد لهما أن يتذرعا بخلطة تربوية عسكرية فى الوقت نفسه ، حتى يتسنى لهما ممارسة عملهما بالحد الأدنى من النجاح ، وإلا فإن الزمام يفلت من أيديهما ، ويتهمان بضعف الشخصية .

* * *

المناظرة الرابعة

لابد أن تتناول التربية الأطفال والمراهقين والشباب باعتبارهم خامات بشرية ، يجب أن تُصَب فى قوالب مناسبة لصبهم فيها ، وذلك لإعدادهم لكى يكونوا مواطنين منتجين فى المستقبل .

المؤيد : من البديهيات التى لا تحتاج إلى برهان ، أن تربية المرء التى تبدأ من الأسرة ، وتستمر فى التأثير فى شخصيته بالمدرسة والمعهد والكلية ، خلال الطفولة والمراهقة والشباب ، إنما تستهدف إعداده للمستقبل ، لكى يحتل مكانه بين المنتجين بالمجتمع ، سواء كان الإنتاج ماديًا ، أم معنويًا . ومن يقول بغير ذلك ، فإنما يكون مغالطًا ومغمضًا عينيه عن الواقع الممارس بالفعل .

المعارض : أنا لا أنكر أن من بين الأهداف التى تتوخاها التربية فى جميع مراحل نمو المرء بدءًا بالطفولة ، هو هذا الهدف الإنتاجى ، أعنى توفير كل الفرص والمؤثرات التى تجعل منه شخصية منتجة . ولكن ما أعترض عليه ، هو أنك جعلت التربية لا تستهدف سوى هذا الهدف الإنتاجى . وبذا فإنك تكون قد أغفلت الزوايا المتعددة التى يجب أن تأخذها التربية فى اعتبارها ، ومن بين تلك الزوايا المتعددة ، الزاوية الإنتاجية التى اقتصرت على النظر منها إلى التربية .

المؤيد : وحتى إذا كانت هناك زوايا أخرى تنظر أنت منها إلى التربية ، فهى زوايا عديمة الجدوى ، وأحرى بك أن تغض النظر

Looloo
www.dvd4arab.com

عنها ، ولا تنظر إلى التربية إلا من الزاوية التى أنظر أنا منها ، وهى زاوية المهارات الإنتاجية ، التى يجب تسليح الناشئة بها . ولعلى أزعم بحق أن من أهم الأسباب التى جعلتنا لا نتقدم بالمعدل الذى تقدمت به الدول التى سبقتنا فى مضمار التقدم ، هو أننا ظللنا ننظر من زوايا عديدة إلى التربية ، وبالتالى فإننا قمنا بتوزيع جهدنا وطاقاتنا على تلك الزوايا العديدة ، التى عمل الكثير منها ، على تأخرنا وتخلفنا عن سباق التقدم مع الدول والشعوب الأخرى المتقدمة .

المعارض : إنك تتحدث عن التقدم ، مع أنك بنظرتك القاصرة إلى التربية ، تحكم على الأجيال الناشئة بالتأخر والتخلف . ألا تعلم أن القوالب الجاهزة ، التى تريد صب الأطفال والمراهقين والشباب فيها ، هى قوالب مجهَّزة فى ضوء الحاضر والماضى فحسب ، ولا تأخذ المستقبل فى اعتبارها ؟ افترض أنك جهزت هذه القوالب بالفعل ، وصمّمت على صب الناشئة فيها . أفلا تتغير الدنيا من حولك وحول الخامات التى تصبها فيها ، أعنى الأطفال والمراهقين والشباب ؟ ألا تعلم أن الحضارة فى تطور دافق ، وأن اليوم غير الأمس ، والغد سوف يكون خلاف اليوم ، وأن التقدم الحضارى يتسارع وفق متتالية هندسية تضاعفية ؟ فماذا يكون حال تلك القوالب المجهَّزة من قبل بعد أن تتقدم الحضارة أشواطا بعيدة إلى الأمام ، بينما أنت وناشئتك قابعين فى نطاق تلك القوالب الجامدة المجهَّزة من قبل ؟

المؤيد : أنا لم أدعُ إلى تجميد القوالب التى نصب فيها الناشئة من أطفال ومراهقين وشباب ، بل قلت إن القوالب الخبْرية تكون مجهزة وجاهزة ، لصب الخامات البشرية التى يمثلها هؤلاء الناشئة فيها . ولكن كلامى لا يحمل معنى الجمود وعدم التطور بتلك القوالب ، بل إنى على عكس ما زعمته واحد من أنصار التطور . فلنتفق

ولنوضح أن تلك القوالب المجهَّزة من قبل ، تتطور مع تطور الدنيا من حولنا ، ومع إيقاع التدفقات الحضارية التى تغمرنا يوما بعد يوم . ألا توافقنى إذن على فكرة القوالب الخبْرية المجهَّزة من قبل ، لكى نصب الناشئة فيها ؟

المعارض : آسف أنا لا أوافقك على فكرة القوالب من أساسها . ذلك أن مجرد ذكر كلمة " قوالب " ، يعنى أنك صادرت حرية الأطفال والمراهقين والشباب تماما ، وجعلت منهم عبيدا ، بل إنك جعلت منهم بنص كلامك مجرد " خامات " أى أشياء جامدة ، لا تحس ولا تفكر ولا تحب وتكره ، ولا تشق طريقها بأى قدر من الحرية فى الحياة ، بل إنك لم ترتفع بهم حتى إلى مستوى العبيد ، بل هبطت بهم إلى درك الجوامد التى تخضع لمن يقوم بتشكيلها حسبما يريد . فكيف أوافقك على تصور كهذا ، وأنت قد صادرت آدمية الناشئة ، وجعلتهم أشبه بالطين الصلصال الذى يتشكل بصبه فى القوالب التى تريد صبه فيها ؟

المؤيد : أليس هذا هو الواقع من حولنا ؟ خذ مثالا بكلية الطب أو بكلية الهندسة . ألا تقوم هاتان الكليتان بصب الطلبة الذين يلتحقون بهما فى قوالب خبْرية لكى يستحيل الملتحق بكلية الطب إلى طبيب ، ويستحيل الملتحق بكلية الهندسة إلى مهندس . وقس على هذا جميع الكليات ، بل وجميع الورش والمصانع . إن أى ملتحق بأى مؤسسة تربوية أو حرفية أو مهنية ، لابد أن يصب نفسه فى قوالبها ، كما لو أنه خامة ، تصب فى قالب قد أعد من قبل . فما رأيك ؟ وهل لديك اعتراض على هذه الحقيقة التى نعايشها ونراها تحت أبصارنا ؟

المعارض : مازلت أقول لك إنك حصرت مفهوم ووظيفة التربية فى نطاق ضيق للغاية . ولعل حماسك لعملية التوظيف ، راجعا إلى النظرة النفعية التى تنظر بها إلى التربية . فكأن لا هم

Looloo
www.dvd4arab.com

للتربية ، إلا تجهيز الناشئة لكسب قوتهم ، وإحراز الأرباح المالية فى المستقبل . وأنا أعذرك بعض العذر لتحمسك بهذا الشكل للجانب النفعى ، جريا وراء نغمة العصر الحالى الذى نعيش فى إطاره . ولكن الواقع أن التربية تهتم أيضا بشخصية المرء وسعادته .

المؤيد : ماذا تقصد بالاهتمام بشخصية المرء وسعادته ؟ أنا أفهم أن شخصية المرء وسعادته تتحققان ، فى ضوء مدى شعوره بقيمته الذاتية فى المجتمع الذى يعيش فى إطاره . وطبيعى أن هذا الشعور ، لا يتأتى له إلا إذا استحال إلى شخصية منتجة . وحتى بالنسبة للأطفال والمراهقين والشباب من الجنسين ، فإنهم لا يحسون بتحقيق شخصياتهم وبسعادتهم ، إلا أذا هم تخيلوا حالهم الذى سيحققونه فى المستقبل ، وما عسى أن يصيروا إليه كشخصيات منتجة .

المعارض : إنك تحصر الشخصية وسعادتها فى نطاق الصدى الاجتماعى الذى يتحقق للمرء فى قوامه الداخلى . وقد ركّزت ذهنك فى النتيجة أو الثمرة ، بينما عزفت عن العوامل المؤدية إلى تلك النتيجة ، أو عن الشجرة التى قدمت الثمرة بدءا من جذورها ومن صلب قوامها إلى أن يتسنى لها أن تثمر . أفليست هناك خطوات أو مراحل سابقة على الثمار المادية التى يجنيها المرء فى حياته العملية ، سواء كانت مالا أم شهرة أم مكانة اجتماعية أم السلطة التى تكون فى حوزة المرء ؟

المؤيد : ماذا تقصد بالخطوات أو المراحل التى تقول إنها تسبق النتائج أو الثمار المتأتية عنها ؟

المعارض : أقصد القوام النفسى للطفل أو المراهق أو الشاب . فثمة الاستعدادات والمواهب ، التى جبل عليها المرء ، ومدى

استثماره لها ، وإخراجها من حيز الكمون إلى حيز الواقع السلوكى . فأنا زعيم لك بأن المرء كلما استثمر تلك الاستعدادات والمواهب ، واستطاع أن يخرجها من نطاق الكمون إلى نطاق الواقع السلوكى ، بحيث تصير قدرات فى مكنته أن يستخدمها ونتبدى فى مراحل حياته المتباينة ، فإنه يكون بذلك قد حقق شخصيته بالفعل ، ومن ثم فإنه يحس بقدر أكبر من السعادة .

المؤيد : وهل يتسنى للمرء أن يستثمر استعداداته ومواهبه المطمورة بداخله ، والتى جبل عليها كما تقول ، بغير أن يواجه الواقع ويشارك فى أنشطته المتباينة ؟ إنى أؤكد لك أن المرء لا يستطيع أن يكتشف شخصيته ، إلا بعد أن يتخرج فى معاهد التعليم . فتلك المعاهد بدءا من الحضانة حتى الجامعة ، ما هى سوى أماكن لإعداد المرء للحياة . فبعد التخرج فيها ، والعمل فى الحياة الواقعية ، أعنى عندما يمارس حرفة أو مهنة ، ويحصل على المال الكافى من عمله بها لسد حاجاته وحاجات ذويه ، ويكون بذلك قد حقق استقلاله الاقتصادى والاجتماعى ، فإنه يكون خليقا عندئذ بالشعور بشخصيته ، وبالتالى فإن السعادة تشيع فى أنحائه .

المعارض : إنك فى الواقع تستمد رأيك هذا من الشائع فى أوساطنا ، وما تأتىّ عن تطبيق أيديولوجية تربوية زائغة عن الطريق السليم ، هى تلك الأيديولوجية التى تؤمن بأن معاهد التعليم المتباينة ، إنما هى أماكن لإعداد الطفل والمراهق والشاب للحياة ، وليست أماكن يشارك فيها المرء فى الحياة بالفعل . والواقع أن هذا النحو الذى انتحت إليه التربية ، عبر عصور كثيرة متعاقبة ، قد أدى إلى تقسيم عمر المرء إلى مرحلتين : مرحلة إعداد للحياة ، ومرحلة مشاركة فى الحياة . وحيث إن المرء فى ظل الحضارة يقضى حوالى نصف

Looloo
www.dvd4arab.com

عمره فى التعليم بالمدارس والمعاهد أو الكليات ، لذا فإن نصف عمره يضيع سدى فى إعداده للحياة . وبالأسف فإن الحضارة تتطور كما قلنا بشكل تضاعفى ، وبالتالى فإن معظم ما يبذل من جهد فى تعليم الطفل والمراهق والشاب يذهب هباء ، وذلك لأن الكثير مما يتعلمه يبطل استخدامه ، أو ينتفى الاعتقاد فى صحته مع التطورات المتلاحقة والسريعة . ناهيك عن أن المدارس والمعاهد والكليات ، تتقاعس عن ملاحقة التطورات التكنولوجية التى تستجد فى نطاق الأدوات والأجهزة الإلكترونية ، التى تغنى عن كثير من الأدوات والأجهزة التى ظلت تستخدم ، وما تزال تستخدم بها عبر قرون عديدة .

المؤيد : إذن فأنت تريد أن تجعل الطفل والمراهق والشاب ، يعملون ويمارسون الحياة ، وهم فى المدارس والمعاهد والكليات . فأنت إذن معى فى أن المرء لا يستطيع أن يكتشف شخصيته ، أو أن يحس بسعادته ، إلا إذا هو مارس الحياة ، وشارك فى ركبها . وطبيعى أن الطفل والمراهق والشاب ، إذا ما شاركوا فى الحياة ، وهم فى المدرسة أو المعهد أو الكلية ، فإنهم سوف يحصلون على أجر نظير ما يبذلونه من جهد ، وما يؤدونه من نشاط . فنحن إذن نلتقى حول ما سبق أن فندته ، وهو الحصول على المال والمكانة الاجتماعية واكتساب المهارات التى تجعل للمرء قيمة فى نظر نفسه ، وفى نظر الآخرين من حوله .

المعارض : أنا لم أقصد ما استنتجته من كلامى ، بأن لا تكون المدارس والمعاهد والكليات أماكن للإعداد للحياة ، بل تكون أماكن للمشاركة فى الحياة ، فأنت عُدْت إلى التركيز على الناحية المالية والمكانة الاجتماعية . إن ما أقصده هو المشاركة فى الحياة ، بمعنى أن تلاحق المدارس والمعاهد والكليات ، تلك التطورات التى توصل

وسيتوصل إليها المجتمع ، والتى تدفقت وسوف تتدفق فى عروق الحضارة البشرية . فأنا أريد أن تكون الأدوات والأجهزة المستخدمة فى الشركات المتقدمة موجودة ومستخدمة بالمدرسة والمعهد والكلية . وأكثر من هذا فإنى أومن بضرورة استبعاد الأدوات والأجهزة القديمة ، التى يمكن أن تحل محلها الأدوات والأجهزة الحديثة . فمثلا السبورة الخشبية يجب أن تخلع من الحائط ، وتحل محلها السبورة الضوئية . وأن يحل الكومبيوتر محل الآلة الكاتبة بمدارس وكليات التجارة ، وأن تحل الآلة الحاسبة محل اللعب التعليمية ، التى تستخدم فى تعليم الحساب حاليا للأطفال . وأكثر من هذا ، فإن الكثير من المناهج وطرق التدريس التى تشحن بها المناهج حاليا ، يمكن بل يجب أن تستبعد ، وتحل محلها مناهج وطرق تدريس مناسبة لنغمات العصر والحضارة الحالية ، بل والحضارة المستقبلية إن أمكن .

المؤيد : أعتقد أننا قد اقتربنا من نقطة الالتقاء . فسواء مارس الطفل الحياة بداخل المدرسة أم بخارجها ، فإن نقطة الالتقاء بيننا تتمثل فيما قلته فى مستهل المناظرة ، وهى ضرورة صب الأطفال والمراهقين والشباب فى قوالب معدّة لهم من قبل ، وقد أكدت لك أن تلك القوالب ، ستكون قوالب متطوّرة مع تطور الحياة الواقعية حول المدرسة ، ومع التدفقات الحضارية والتكنولوجية المستمرة .

المعارض : أسف أن أقول لك إننا على طرفى نقيض . فأنت تريد أن تخضع المدرسة للواقع الخارجى ، وأن تصوغ مناهجها ــ أو قوالبها جريا وراء تعبيرك ــ فى ضوء ذلك الواقع ، بينما أذهب أنا إلى القول ، بأن الواقع الخارجى ، هو الذى يجب أن يتبع المدرسة والمعهد والكلية . وأؤكد لك أن خضوع المدرسة والمعهد والكلية للواقع الخارجى ، هو من أخطر الأسباب التى جعلت مجتمعنا متخلفا

www.dvd4arab.com

عن ركب المجتمعات المتطورة . فمعاهد التعليم يجب أن تكون مصادر إشعاع للبيئة ، ولا تكون مجرد انعكاس لما يشع عليها من إشعاع صادر عن المجتمع . فأنا أومن بأن المدرسة والمعهد والكلية ، أماكن لتفريخ الإبداعات المتباينة ، وليست مجرد مخازن لتخزين المعارف والمعلومات فى عقول روادها من التلاميذ والطلاب . فالنظرة إلى الطفل والمراهق والشاب حاليًا ، هى نظرة تقول بأن من الواجب أن تصب فى ذاكرتهم المعلومات التى تم التوصل إليها بالفعل ، وأن يتمرنوا على تلك الأداءات التى تمارس بالواقع الاجتماعى . أما النظرة التى أرجو أن تسود ، فهى أن المدرسة والمعهد والكلية ، يجب أن تسبق الواقع الخارجى ، وأن تفرّخ مفكرين مبدعين من جهة ، كما تساعد على شق خطوط جديدة غير مسبوقة من جهة أخرى .

المؤيد : ألست بهذا تذهب شططًا ، وتبالغ فى رسم صورة للمدرسة والمعهد والكلية ، كتلك الصورة التى رسمها أفلاطون لأكاديميته ؟ إن الفرق بينى وبينك ، هو أنك شخص خيالى ، أما أنا فإنى شخص واقعى إلى أبعد حد للواقعية . فلو أن أحدًا حاول أن يطبق مذهبك هذا ، إذن لعطّل مسيرة التعليم ، ولجعل آلاف التلاميذ والطلاب خالين الوفاض ، فلاهم يستوعبون الموجود والمطبّق بالفعل ، ولاهم يبدعون شيئًا جديدًا .

المعارض : وأنا بدورى أتهمك بأنك رجعى ، ولا تماشى التطورات الواقعية الحالية ، بل إنك ما تزال تجعل للذاكرة نصيب الأسد فى التعليم . ألست تريد أن تشحن ذاكرة التلاميذ والطلاب بالمعلومات ؟ وأن تدربهم على الواقع الممارس بالفعل خارج المدرسة ؟ انظر إلى ما استجد من تطورات وإبداعات فى الواقع الخارجى ، وقارن بينه وبين ما يمارس بالفعل بالمدارس والمعاهد والكليات . إن

المناهج التى تطبّق حتى اليوم ، هى تلك المناهج التى استهدفت صب الناشئة فى قوالب جاهزة ، وهى قوالب جامعة مانعة ، بمعنى أنها تجمع كل القديم ، وتضيفه إلى بعض ما يعتبره واضعو المناهج جديدًا ، مع أنه فى وقت وضع تلك المناهج ، كان قد صار قديمًا ، وسرى عليه التقادم . خذ مثالاً لذلك ، الاهتمام بتجهيز مدارس التجارة بالآلات الكاتبة . لقد اعتبر واضعو المناهج ، أن تدريب الطلبة على تلك الآلات الكاتبة هو نهاية المطاف ، وهو يشكل المثل الأعلى الذى سوف يظل قائمًا ولا يبطل . ولكن الواقع أن الآلات الكاتبة قد فقدت قيمتها وحل الكومبيوتر محلها . وقس على هذا جميع الطرائق التعليمية التى ما تزال المدارس تستمسك بها ، كتحفيظ التلاميذ بالابتدائى جداول الجمع والطرح والضرب والقسمة ، مع أن الآلات الحاسبة تغنى عن ذلك . وما يزال الاهتمام منصبًا على الخط وأصول استخدام الأقلام فى الكتابة ، مع أن إيقاع التقدم العصرى ، يتجه إلى تعميم الكتابة على الكومبيوتر ، وتضييق نطاق الكتابة بالقلم ، لدرجة أن تلاميذ الأجيال القادمة سوف يحلون واجباتهم المدرسية بواسطة الكومبيوتر ، كما سوف يلغى استخدام الكراسات أو يكاد من المدارس والمعاهد والكليات .

المؤيد : أنا احترت معك فى الواقع . فأنت لم تحدد موقفك بالضبط بل تتأرجح بين موقفين متباينين . فبينما تدعو إلى عدم خضوع المدارس والمعاهد والكليات للواقع الخارجى ، وتزعم أنها يجب أن تسبق المجتمع ، وأن تكون رائدة له ، فإنك فى المقابل تقول ، إن معاهد التعليم المختلفة ، يجب أن تتواكب مع التقدم المتحقق بالفعل . فمثلاً بالنسبة لمسألة استخدام الكومبيوتر بدلاً من استخدام الآلة الكاتبة ، أسألك : أليست الآلة الكاتبة والكومبيوتر وطرائق استخدامهما ، عبارة عن قوالب سلوكية اكتمل قوامها خارج نطاق

Looloo
www.dvd4arab.com

المدرسة والمعهد والكلية ، وأن تلك المؤسسات التعليمية تستورد الآلة الكاتبة والكومبيوتر من الأسواق التى تبيعهما ؟ إذن فليس بينى وبينك أى خلاف أساسى ، سوى أنك تؤكد على مسايرة معاهد التعليم لأخر صيحات تكنولوجية ، ولآخر مستوى حضارى وتقدمى يقع فى ربوع المجتمع أو فى المجتمعات المتقدمة . أليس كذلك ؟

المعارض : ليس بالضبط . فالمسألة التى نختلف بصددها تمتد إلى جوهر التعليم نفسه . فبينما تؤمن أنت بمسألة القوالب المجهّزة من قبل ، فإنى أومن بالاختيار ، وبالتالى تحطيم تلك القوالب المجهزة من قبل التى تسمى بالمناهج الدراسية . فأنا أومن بأن التعليم بأسرة يتضمن نوعين من الخبرات : النوع الأول ــ المضامين الخبرية أو المعارف والمعلومات ، والنوع الثانى ــ الوسائل التى يتسنى بواسطتها تحصيل تلك المضامين الخبرية أو المعارف أو المعلومات . فبينما نجدك تقدّس تلك القوالب التى تستمسك بها ، أعنى المناهج المدرسية التى تتضمن المضامين المعرفية ، ووسائل تحصيل تلك المضامين ، فأنا أدعو إلى استبعاد النوع الأول ، أعنى المضامين المعرفية من المناهج الدراسية ، والإبقاء على النوع الثانى فقط ، أعنى المهارات التى تستخدم فى تحصيلها . ولكى أوضح فكرتى أقول إن على المدرسة والمعهد والكلية ، أن تكون مراكز تدريب على المهارات التعليمية . ففى المدرسة الابتدائية مثلا ، تتمركز تلك المهارات التعليمية فى القراءة والكتابة والحساب والكتابة على الكومبيوتر واستخدام الأدوات والخامات المختلفة ، وغير ذلك من مهارات ذهنية أو أدائية . وكلما تدرج المرء فى مراحل التعليم ، فإن المهارات التعليمية تتفتح أمامه أكثر فأكثر . أما بالنسبة للمضامين المعرفية ، فإن من الواجب فتح مجال الخيار على مصراعيه أمام

التلاميذ والطلاب بإزائها بجميع المراحل التعليمية ، لكى يطّلعوا على ما يشاءون منه . فلا ضير فى أن يتبحّر بعضهم فى جانب ما ، بينما لا يعرف عنه بعضهم الآخر أى شىء . فلا لزوم إذن لفرض المعلومات على التلاميذ والطلاب ، ولا لزوم أيضا لعقد الامتحانات للوقوف على ما خزّنه التلميذ أو الطالب من معلومات بعينها فى ذهنه . فالمعلومات متوافرة وجاهزة أمام المرء طالما أنه يجيد القراءة والكتابة والحساب ووسائل استخدام الكومبيوتر والآلات الحاسبة وغيرهما من أدوات والآلات حديثة . وبتعبير موجز فإن التعليم المتطوّر ، يجب أن يهتم بالكيفيات وأن يغض النظر عن الماذات .

المؤيد : هل يعنى كلامك أن عمل المدرس والأستاذ بجميع مراحل التعليم ، سوف يقتصر على عمليات التدريب ، ولا يهتم من قريب أو من بعيد بالمضامين المعرفية ؟

المعارض : أنا لم أقل ذلك ، ولكنى أدعو إلى أن يكون الهم الأكبر لمعاهد التعليم هو القيام بالتدريبات المستمرة على ما هو موجود ، وأيضا على ما سوف يستجد من كيفات ، أعنى المهارات التى تتواكب مع الأجهزة التى تتدفق بالسوق . ولكن تلك التدريبات التى يجب أن يتمكن منها التلاميذ والطلاب ، لا تعدو أن تكون مجرد وسائل تحقق ما تصبو إليه المدرسة والمعهد والكلية من مشاركة فى المضامين المعرفية ، ولكنها مشاركة إيجابية ، وليست مشاركة سلبية استيعابية ، كما هو الحال حاليا . فالمكتبة المقروءة والمرئية ، هى التى سوف تكون العمود الفقرى بالمدرسة والمعهد والكلية ، ولا تكون مجرد عامل مساعد لعمل المدرس والأستاذ . وبتعبير آخر ، فإن ثلث الوقت الذى يقضيه التلميذ أو الطالب بالمدرسية أو المعهد أو الكلية ، سوف يقضى فى التدرب على

Looloo
www.dvd4arab.com

المهارات التعليمية ، بينما يقضى ثلثا الوقت المدرسى فى المكتبة للبحث والتنقيب ، والمشاركة الإيجابية بالبحوث التى يتولى كل تلميذ أو طالب القيام بها ، تحت إشراف مدرسه أو أستاذه . وفى هذه الطريقة التى نتمنى تطبيقها ، سوف تتاح أمام التلميذ أو الطالب الخيارات الكثيرة ، التى يقع على ما يستهويه منها ، فيعكف على البحث فيه . وبهذه الطريقة فإننا سوف نخرج من بين أيدينا شخصيات إيجابية تمارس الحياة ، ولا تكون مجرد شخصيات اسفنجية تستوعب ما يملى عليها من معلومات جاهزة ، وفق ما تؤمن به أنت من قوالب جاهزة أعنى المناهج المقررة . فأنا ضد قولبة التلاميذ والطلاب ، وأدعو إلى تحقيق شخصية كل واحد منهم وبلورتها فى ضوء نشاطه الإيجابى ، وذلك باطلاعه على ما يستهويه ويجذبه إليه من مجالات معرفية متباينة .

المؤيد : إنك فى ضوء ما تذهب إليه ، تكون قد أحلت المدرس والأستاذ إلى أمين مكتبه . فهل بهذا التصور ، يمكن أن يفيد التلاميذ والطلاب من المعلومات الغزيرة الموجودة فى جعبة معلمهم أو أستاذهم ؟

المعارض : الواقع أننا مختلفان فى تصور مهمة المعلم فى أى مرحلة تعليمية . فبينما تستمسك أنت بالصورة القديمة للمعلم ، التى يكون فيها هو الشخص الذى يتكلم ، فيأخذ عنه التلاميذ والطلاب ، ويحفظون ما يفوه به ، فإنى أقدم إليك تصورا جديدا للمعلم ، بأنه الموجّه للتلميذ والطالب ، والمعين له على تحسس المصادر المعرفية ، دون أن يقدم المعارف إليهما جاهزة . فمتعة المعرفة ، تتمثل فى الوقوف عليها واستيعابها عن طريق بذل الجهد الشخصى ، وعلى العكس ، فإن أسمح معرفة هى تلك التى تقدم جاهزة أمام المرء لكى يستوعبها .

المؤيد : أليست النتيجة واحدة فى الحالتين ، سواء قدمت المعلومات جاهزة ، أم حصل عليها التلميذ أو الطالب بنفسه ؟

المعارض : إنك فى الواقع تنظر إلى التحصيل المعرفى بطريقة مباينة تماما لما أفهمه أنا من ذلك التحصيل . فبينما تعتبر أنت أن ما يحصله المرء من معرفة يظل كما هو ولا يطرأ عليه أى تغيير ، وأن أى تغيرات تطرأ على ما حصله المرء من معرفة ، إنما هو تشويه لتلك المعرفة ، فإنى على عكس ذلك ، أعتقد أن التحصيل المعرفى الذى لم يتم هضمه تماما كما يحدث بالنسبة للطعام ، الذى يستحيل إلى مركبات مباينة تماما للطعام الذى وصل إلى المعدة ، لا يكون مفيدا للمرء . فالتعليم الخليق بالتقدير ، هو ذلك التعليم ، الذى يلعب فيه المتعلم دورا إيجابيا ، بحيث يستحيل إلى قوام من قوامه ، وإلى نسيج خبرى خاص به ، وملك له . وبتعبير آخر فأنا أرفض تماما فكرة القوالب الجاهزة التى تؤمن أنت بها ، بل أومن بأن الخبرات المعرفية التى يحصّلها التلميذ أو الطالب بنفسه من بطون الكتب والمراجع والدوريات ، لا تكون مفروضة عليه من جهة ، ولا تستمر فى حالة جمود كما هى من جهة أخرى ، وبالتالى فإنها لا تشكل قوالب ينصب ذهنه فيها ، وبتشكل فكره وفقها ، لأن دوره فى التعلم ، ليس دورا اسفنجيا تقبليا ، بل دورا إيجابيا إبداعيا .

المؤيد : إنك فى الواقع تكون بهذا التصور البعيد جدا عن المطبّق فى المدارس والمعاهد والكليات ، قد نسفت النظم التعليمية من أساسها ، ولم تبق عليها حجرا على حجر . ألست بهذا تقضى على التراث الذى نعتز به ، والذى نحرص على تشريبه لأبنائنا التلاميذ والطلاب ؟

المعارض : أنا لا أناهض التراث بأى حال من الأحوال ، ولا أحاول أن أقضى عليه كما تتهمنى ، بل أختلف معك فقط فى النظر إليه . فبينما تنظر أنت إليه باعتباره قوالب جامدة ، لا تقبل الهضم أو التفاعل مع قوام المرء الذهنى والوجدانى ، أو بتعبير أدق

Looloo
www.dvd4arab.com

قوالب لا تقبل التفاعل مع الثقافة المعاصرة ، فإنى أنظر إليه باعتباره غذاء ثقافيًا يقبل الهضم ، ويقبل التفاعل مع المستحدثات الثقافية . فأنا أعتقد أن الاقتصار على تخزين التراث فى الذاكرة ، فيه إساءة إليه . فأنت تجعل منه جثثًا محنَّطة تجتهد فى الحفاظ عليها حتى لا تندثر ، بينما أنظر أنا إليه باعتباره كائنًا حيًا ، يستطيع أن يتعامل ويتفاعل مع الثقافة المعاصرة .

المؤيد : إنك فى الواقع بهذا الزعم الذى تدَّعى أنه يقى التراث من الاندثار والضياع ، تخبئ مؤامرة مستخفية ضده . فأنت تريد أن تعمل على إذابته فى طيات الثقافة المعاصرة ، فيفقد بذلك هويَّته ، ويضيع إلى غير رجعة . فبدلاً من محاولة الحفاظ عليه وصيانته من الضياع أو من الذوبان ، فإنك تحاول جاهدًا أن تدخله فى معمعة التفاعلات الخبرِّية التى تحيله إلى عصارات خبرِّية شخصية ، تتباين من شخص لآخر ، وبالتالى فإنه يضيع بالفعل ، ولا يظل قائمًا برأسه ، ومستقلاً عن الثقافة المعاصرة .

المعارض : الواقع أن الفرق بينى وبينك ، أنك تنظر إلى التراث كشىء ثابت وجامد فى ذاته ، لا يقبل التفاعل مع الثقافة المعاصرة ، بينما أنظر أنا إليه فى تدرُّجه ونزوله إلينا منذ العصور القديمة واستمراره فى التفاعل بعضه مع بعض عبْر العصور المتعاقبة إلى أن استحال إلى ما بين أيدينا اليوم من ثقافة معاصرة ، تمامًا كما هو حال النهر بدءًا من منبعه حتى مصبِّه . فهو نهر واحد وإن اختلفت البيئات الجغرافية التى يمر بها . فلا مبرر إذن لأن تعمد إلى فصل التراث عن الثقافة المعاصرة . ذلك أن هذه الثقافة المعاصرة ، ليست سوى امتداد للتراث الذى استمر فى تفاعل دائب منذ القدم حتى العصر الحالى . فلماذا تحاول فصله ووضعه فى نعش وتحنطه ،

فيفقد بذلك ما يتمتع به من حياة وحيوية ، وتحول بين الناس وبين التفاعل معه ، وتجعله جامدًا لا يقبل التفاعل مع التطورات المتلاحقة والمستمرة ، والتى ستظل مستمرة ومتلاحقة عبر الزمن ؟

المؤيد : على عكس ما تزعمه ، فإنى حريص على الحفاظ على التراث مفعمًا بالحياة والحيوية ، بل إنى حريص أيضًا على توظيفه فى حياة الناشئة . فمثلاً بالنسبة للمناهج الدراسية بالمدارس ، فإنى حريص على القول بضرورة تقديم جانب منه ممثلاً فى النصوص الأدبية الرائعة ، وفى بعض القصائد الشعرية التى نظمت فى العصر الجاهلى وعبْر عصور ازدهار الشعر ، فنقدِّم إلى التلاميذ بعض أشعار المتنبى وأبى العلاء مثلاً فيحفظونها ، ومن يكون لديه منهم استعداد للإفادة منها ، والضرب على منوالها ، فإنها تكون عندئذ خير معوان له فى تحقيق مُبْتغاه . ولكن المبدأ الذى نتوخاه دائمًا هو عدم تعديل أو تطوير التراث بأى حال من الأحوال كما ترنو من كلامك أنك تبغى تعديله وتطويره .

المعارض : أنا لم أقل بأن من الواجب تعديل أو تطوير التراث ، وإنما قلت إن إقامة حاجز بين القديم والحديث هو موطن الخطأ . وبتعبير آخر فإنى أختلف معك فى منهج التفكير . فبينما تنحاز أنت إلى التراث ، وتخشى عليه من الإهمال أو الضياع ، فإنى لا أخشى عليه ، بل أتناوله بطريقة توظيفية . فمثلاً بالنسبة لمسألة الحفظ والتذوق . فإنى إخال أنك تهتم بالحفظ الاستظهارى للنصوص الأدبية ، بينما أومن أنا بالتذوق مع عدم الالتزام بمثل ذلك الحفظ الاستظهارى . فبالنسبة لقراءة الشعر والنثر الفنى ، فأنا أعتقد أن تذوق موسيقى الكلام التى يتضمنها ، لا يعنى بالضرورة حفظ ما يقوم المرء بقراءته بتذوق . فالتذوق الفنى للنصوص الأدبية المتباينة دون الوقوف عند

Looloo
www.dvd4arab.com

محطة حتى يتسنى استظهارها ، هو الخليق بتكوين الشخصية الأدبية . ولك أن تلاحظ أن الحفظ الاستظهارى لا يؤدى بالضرورة إلى تكوين الشخصية الفنية الإبداعية . وبتعبير آخر فإن الكثير من الأدباء المجيدين لم يكونوا حريصين على استظهار النصوص الأدبية ، بينما العكس أيضا صحيح . ذلك أن الكثير ممن استظهروا الكثير من الشعر والنصوص النثرية ، لم يستحيلوا إلى أدباء يشار إليهم بالبنان ، بل توقفوا عند حدود شحن ذاكرتهم بالنصوص التى استظهروها .

المؤيد : إنك فى الواقع تفصل فيما بين الحفظ الاستظهارى وبين التذوق الفنى . وهذا عين الخطأ . فهل هناك فاصل أو تعارض فيما بين الحفظ الاستظهارى وبين التذوق الفنى ؟ أليس العكوف على إحدى قصائد المتنبى أو أبى العلاء وحفظها استظهاريا بشكل جيد ، كفيلا بأن يكون المرء الذى يفعل ذلك ، قد امتص رحيقها ، وتشرّب ما فيها من موسيقى شعرية ؟ وعلى العكس من ذلك فإن من يمر مرور الكرام على تلك القصيدة ويقرؤها دون أن يستوعبها ، أقلا يكون ذلك الشخص ، قد اكتفى بالقشور دون اللب ؟ اسمح لى أن أقول إن التفرقة التى تقول بها بين الحفظ الاستظهارى وبين التذوق الفنى الأدبى ، إنما هى تفرقة فى غير محلها ، بل هى تشويه للواقع ، وبعد عن الحقيقة بعدا سحيقا .

المعارض : اسمح لى أن اختلف معك بصدد هذه المسألة . صحيح أن من يعكف على قصيدة من قصائد المتنبى أو أبى العلاء ، ويأخذ فى حفظها ، يكون قد سبر أغوارها وامتص رحيقها ، ولكنى أميّز بين جهدين : جهد يبذل فى اكتساب التذوق الفنى الأدبى ، وجهد يبذل فى شحن الذاكرة بالقصيدة التى يراد حفظها استظهاريا . هذه واحدة . ثم إن المتذوق الفنى الأدبى إذا ما انطلق بحرية تامة يقرأ

الدواوين المختلفة ، فينتقل بين أرجاء الأدب بحرية وبسرعة مناسبة ، دون أن يتوقف عند محطة بالذات ، فإنه بلا شك يكتسب ألوانا موسيقية متباينة من موسيقى الكلام . فبدلا من الافادة من قصيدة أو قصيدتين فحسب ، فإنه يفيد ويستوعب عشرين قصيدة فى الجلسة الواحدة . ناهيك عن تنقله بين آداب العصور المتباينة ، ولا يتوقف عند حدود القدماء ، بل يطوف فى أرجاء الأدب العربى الحديث والمعاصر على السواء . وبذا فإنه يكتسب شخصية تذوقية ، ولا يستعبد نفسه لواحد مثل المتنبى أو أبى العلاء ، بل يتحرر وينطلق فى آفاق متباينة وغزيرة .

المؤيد : إنك فى الواقع تنادى بالسطحية دون التعمق . ذلك أن هناك فرقا بين من يسبر أغوار النص الأدبى ، وبين من يكتفى بقشور ذلك النص الذى يمر عليه مرور الكرام ، لا يلوى على شىء ، ولا يتمهل ليتأمل ما يحتويه من أسرار فنية رائعة . وقل لى بالله عليك ، هل نلغى النصوص الأدبية الرائعة ونستبعدها من المقررات الدراسية ، ونقول للتلاميذ والطلاب ، من يرغب منكم أن يقرأ ويحفظ فليقرأ ويحفظ ، ومن لا يحب أن يقرأ ولا يحب أن يحفظ فليمتنع عن القراءة والحفظ ؟ » .

المعارض : أنا فى الواقع من دعاة الحرية ، ومن المعترفين بالفروق الفردية واسعة النطاق بين تلاميذ أو طلبة الفصل الواحد . وبتعبير آخر فإنى أدعو إلى توفير خيارات كثيرة أمام التلاميذ والطلاب بكل الفصول وبجميع مراحل التعليم المختلفة . وقد سبق أن قلت إن الإلزام يجب ألا يفرض إلا بإزاء التدريب على المهارات المتباينة ، مثل مهارة القراءة ومهارة الكتابة ومهارة الحساب ، والمهارات اليدوية والحركية المتباينة . أما بالنسبة لتقرير نصوص على تلاميذ أو

www.dvd4arab.com

طلبة الفصل الواحد جميعا ، لكى يحفظوها عن ظهر قلب ، فأنا أرى أن مثل هذا الإجراء مناف لقاعدة الفروق الفردية . فمن المعروف أن بعض الأطفال وبعض المراهقين وبعض الشباب ، يتمتعون بموهبة الحفظ ، ولكنهم قد يكونون محرومين فى الوقت نفسه من مواهب أخرى كموهبة الإبداع ، وعلى العكس من ذلك أيضا ، فإن البعض منهم يكونون متمتعين بموهبة الإبداع ، ولا يكونون متمتعين بموهبة الحفظ الاستظهارى . فيكون من العدالة إذن أن نوفر الخيارات الكثيرة أمام جميع التلاميذ والطلاب ، بحيث يجد كل منهم ما يناسبه من خبرات ، فيقبل على اكتسابها دون أن نفرض أى ضغط خارجى عليه .

المؤيد : أخشى أن تستحيل الحرية التى تؤمن بها وتحاول إشاعتها إلى فوضى . فأنت تعلم أن الفروق الفردية التى تقول بها غير مقننة ، وغير محددة المعالم ، وغير متعينة واقعيا وعمليا بالنسبة لتلاميذ الفصل الواحد . فما يذكر بكتب علم النفس من وجود فروق فردية بين الأطفال والمراهقين والشباب ، لا يعدو نطاق تلك الكتب ، وأنت أول من يعلم أن مقاييس تلك الفروق الفردية بما فيها الفروق المتعلقة بالذكاء والقدرات الخاصة ، لا تعدو نطاق الكتب التى وردت بها تلك الدراسات النفسية . أما الواقع الممارس بالفعل بالمدارس على اختلاف أنواعها ومستوياتها ، فإنه يخلو من تلك المقاييس التى تذكر بالتفاصيل بالكتب والمراجع ، ولا أثر لها فى الواقع الممارس بالفعل . فما تنادى به من مراعاة للفروق الفردية ، سوف يعمل على إشاعة التسيُّب . ولو طبقت سياستك التحررية التى هى فى الواقع سياسة فوضوية ، فإن الإهمال والتكاسل سوف يشيعان بين التلاميذ والطلاب ، وسوف تضيع معالم التربية والتعليم ، وتستحيل المدارس والمعاهد والكليات إلى مراكز تدريب قاصرة على القراءة والكتابة

والحساب ، وعلى بعض المهارات اليدوية والحركية . وبتعبير آخر فإن تسلق السلم التعليمى سيكون متعذرا ، وتختلط المراحل التعليمية بعضها ببعض ، وتضيع معالمها . وباختصار فإن النظام التعليمى سيتهدم من أساسه ، ونرجع إلى عصور الجهل والأمية الثقافية .

المعارض : إنك تبالغ فى تخيل النتائج الوخيمة التى سوف لا تقع بأى حال من الأحوال ، إذا ما اتبعت المدارس والمعاهد والكليات ما أرمى إليه . فلقد قلت لك إننا قد أقبلنا بالفعل على عصر الكيفيات أما عصر الماذات فقد ولّى الأدبار ، ولن يعود بعد أن توافرت وسائل التسجيل الصوتى والمرئى ، وبعد أن صار فى الإمكان استرجاع المعلومات والنصوص وقتما نشاء . ناهيك عن عدم جدوى التكنولوجيات التعليمية القديمة واحتلال التكنولوجيات التعليمية الجديدة محلها . فالمسألة إذن مسألة ملاحقة التغيرات والتطورات الحضارية بصفة مستمرة . ذلك أن الطرائق التربوية يجب أن تتواكب مع المتطلبات الحضارية الحالية والمستقبلية . فلقد كان القدماء حريصين كل الحرص على التحفيظ النصى خوفا من ضياع تلك النصوص ونسيانها . أما اليوم فلا محل لمثل هذا الخوف . وبالتالى فإن التعليم يجب أن يتجه وجهات عصرية ومستقبلية دائبة التطور والملاحقة ، وألا يظل متلحفا بلحف الماضى السحيق . وباختصار فلا جدوى من إعداد قوالب تعليمية خبرية نصب فيها التلاميذ والطلاب كما تدعو إلى ذلك .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

المناظرة الخامسة

الدروس الخصوصية آفة خطيرة أصابت التعليم ، يجب القضاء عليها بحزم وحسم ، واجتثاثها من جذورها .

المؤيد : لقد صارت الدروس الخصوصية عبئا ثقيلا على ميزانية غالبية الأسر من جهة ، كما أنها صارت من جهة أخرى ، عبئا ثقيلا على الطفل والمراهق والشاب ، الذين يبذلون جهدا نفسيا وعصبيا فى تلقيها من العديد من المدرسين الخصوصيين من أول العام الدراسى حتى نهايته . فكل مدرس خصوصى يقوم بدوره بتسلم الواحد من التلاميذ أو الطلبة ، لكى يُفرِّغ فى ذاكرته المقرر الدراسى الخاص بمادته . فبالإضافة إلى الجهد النفسى والعصبى الذى يبذله التلميذ أو الطالب فى تلقيه للمعلومات المقررة بالمناهج فى أثناء انتظامه بالفصل ، فإنه يبذل جهدا نفسيا وعصبيا أكثر عناء فى تلقيه للجرعات المركزة من المعلومات لدى تلقيه للدروس الخصوصية . وبذا فإن نواقيس الخطر تدق للتنبيه إلى ما تعانيه أسر التلاميذ والطلاب من نفقات باهظة ، وما يعانيه أبناؤهم وبناتهم أنفسهم من إرهاق بدنى وعقلى ونفسى ، وما يترتب على ذلك الإرهاق من عواقب وخيمة تحيق بالأسر وأبنائها جميعا . ولذا فإن من الواجب العمل بسرعة على اقتلاع هذه الآفة الخطيرة من جذورها ، إنقاذا للمطحونين من الآباء والأمهات وأبنائهم ، المضطربن للخضوع لمطالب تلك الدروس الخصوصية الوخيمة .

المعارض : إنك تضخم المشكلة أكثر من اللازم . فالدروس الخصوصية اختيارية كما تعلم ، ولا يفرض أى من المدرسين نفسه على تلاميذه ، ولا يجبرهم لكى يأخذوا منه دروسا خصوصية فى مادته التى يحسون بانخفاض مستواهم فيها . فالتلميذ أو الطالب هو الذى يطلب إلى أسرته أن يأخذ دروسا خصوصية . فهو إذن غير مجبر على أخذها ، بل إن أسرته أيضا غير مجبرة على أن تستجيب لطلب ابنها أو ابنتها بأن يأخذ درسا خصوصيا . فالاختيار إذن والحرية فى المشاركة فى تلك الدروس ، أو عدم المشاركة فيها ، واضحان بازائها . وقولك إن الأسرة تنوء بعبء مالى ثقيل ، وأن التلميذ أو الطالب يعانى من الإرهاق فى تلقيه لتلك الدروس الخصوصية ، زعم فى غير محله ، طالما أن المسألة اختيارية . فالأسرة المرهقة ماليا ، ليست بحاجة أو فى حالة اضطرار للمشاركة فى هذا النشاط التعليمى ، وكذا فإن الابن أو الابنة المرهقة من جراء تلك الدروس الخصوصية ، بمقدورهما أن ينقطعا عنها ، وأن يعتمدا على جهدهما الذاتى فى الاستذكار دون ما حاجة إلى اللجوء إلى المدرسين الخصوصيين ، ويكفيهما شرح المدرسين بالفصل ، وما بين أيديهم من كتب ومراجع ومذكرات .

المؤيد : الواقع أن المسألة ليست بهذه البساطة . فهناك نوعان من الإجبار : إجبار من الخارج ، وإجبار من الداخل . فالإجبار الخارجى عبارة عن ضغط يفرضه شخص أو هيئة على المرء ، وذلك كإجبار شرطى المرور لقائدى السيارات للالتزام بقواعد المرور . أما الإجبار الداخلى فمن أمثلته ما يحدث عندما يجبر رب الأسرة على أن يستدين لسد نفقات أسرته الضرورية ، ومنه أيضا الحالة التى نحن بصددها الآن . فالأسرة التى تضطر إلى الانسياق فى تيار الدروس

Looloo
www.dvd4arab.com

الخصوصية هى وأولادها ، إنما يكون الضغط عليها ضغطا داخليا وليس ضغطا خارجيا . فلا المدرسة ولا المدرس الخصوصى أجبراها على أن تشترك فى تلك الدروس الخصوصية ، ولكن شعورها هى وأولادها بخطر الرسوب فى آخر العام ، والتخلف عن ركب الزملاء ، هو الذى يضطرها إلى الانسياق فى تيار تلك الدروس الخصوصية .

المعارض : الحمد لله . فها أنت قد اعترفت بلسانك بأنه لا يوجد ضغط من الخارج على أى أسرة ، ولا على أى تلميذ أو طالب لأخذ الدروس الخصوصية ، وإنما المسألة صادرة ونابعة من صميم قوام الأسرة ومن تقديرها للموقف ، وكذا تقدير الابن أو البنت لحالته ومستواه الدراسى . فلو أن الأسرة كانت مطمئنة إلى مستوى أبنائها ، ولو أن أولئك الأبناء كانوا مطمئنين إلى مستواهم الدراسى ، ما كانوا إذن بحاجة إلى تلقى تلك الدروس الخصوصية . إذن فالمسألة اختيارية بحتة ، ولا يوجد أى اضطرار خارجى للمشاركة فيها . ولعلنا نشبّه الموقف هنا بالموقف بإزاء العيادة الخاصة التى يقبل عليها المرضى باختيارهم البحت ، على الرغم من توافر المستشفيات العامة أمامهم ، ولكن لولا إحساسهم بأن العيادة الخاصة ، سوف توفر لهم عناية أكثر فاعلية ، وأن الفوائد التى ستعود عليهم من التردد عليها أكثر نجوعا ، ما كانوا إذن قد توجهوا إليها . وبالمثل فإن المدرس الخصوصى يستقبل من يرغب من التلاميذ أو الطلبة فى الاستزادة من علمه ، ويحس بأنه بحاجة إلى مشورة تربوية ، وإلى مساندة فى استيعاب المناهج المقررة .

المؤيد : إنك فى الواقع عندما شبهت المدرس الخصوصى بالطبيب الخصوصى بعيادته ، فإنك تكون قد وجهت أصبع الاتهام إلى

المسئولين عن المستشفيات العامة ، كما تكون قد وجهت أصبع الاتهام إلى المدارس بإزاء ما تقدمه من خدمات تعليمية . فلو أن المستشفيات العامة تقوم بواجبها على خير وجه ، ما كانت ثمة حاجة إذن إلى اللجوء إلى العيادات الخاصة ، وعلى النحو نفسه ، فلو كانت المدارس تضطلع بواجبها على خير وجه ، ما كانت هناك حاجة إذن إلى اللجوء إلى المدرسين الخصوصيين . ومن يدريك فربما يكون الإهمال الشائع بالمستشفيات الحكومية وبالمدارس ، مقصودا من جانب الأطباء بالمستشفيات ، ومن جانب المعلمين بالمدارس ، حتى تروج بضاعتهم فى عملهم الخصوصى . فكلما كانت المستشفيات مهملة ، ويحس المترددون عليها بأنها لا تقدم الخدمة الطبية الكافية والناجعة ، فإنهم يلجأون إلى العيادات الخاصة . وبالمثل فكلما أحس التلاميذ والطلبة وأولياء الأمور بأن المدرسة لا تضطلع بواجبها كما يجب ، فإنهم يقرعون أبواب المدرسين الخصوصيين ، لسد الثغرات التى تتركها المدرسة عن قصد بإزاء ما كان يجب أن تضطلع به ، ولتغطية الإهمال المستشرى بها .

المعارض : مهلاً صديقى . أخشى أن تكون قد انزلقت فى خطأ بالغ الخطورة ، وقد أخذت توجه الاتهامات جزافا إلى المستشفيات والمدارس بغير حق ولا سند تستند إليه . وأحسب أنه قد فاتك اعتبار هام وأساسى ، وهو أن المستشفيات والمدارس تتعاملان مع مجموعات من روادها ، بينما يتعامل الطبيب الخاص والمدرس الخصوصى مع حالات فردية . ولعلنى أشبّه الموقف فى الحالتين ، بالخطيب الذى يخاطب الجماهير من جهة ، وبمن يتحدث مع صديق له على انفراد من جهة أخرى ، فيكون موقفه كموقف الطبيب الخاص بعيادته ، وكموقف المدرس الخصوصى بإزاء التلميذ أو الطالب الذى

Looloo
www.dvd4arab.com

يعطيه الدرس الخصوصى . فثمة نوعان إذن من التعامل : نوع عام وجماهيرى ، ونوع خاص وفردى . وأظنك تستطيع أن تقدّر الفرق بين الموقفين ، وما ينشأ بهما من علاقات .

المؤيد : آسف أن أرفض هذا التمييز الذى حاولت إبرازه بين المستشفى وبين الطبيب الخصوصى من جهة ، وبين المدرسة والمدرس الخصوصى من جهة أخرى . فالواقع أن تشبيه موقف الطبيب فى المستشفى ، والمدرس بالفصل ، بموقف الخطيب أمام الجماهير ، إنما هو تشبيه صحيح من جهة ، وغير صحيح من جهة أخرى . فهو صحيح فى ضوء الموجود الآن والمطبّق بالفعل ، ولكنه غير صحيح فى ضوء ما يجب أن تكون عليه المستشفى والمدرسة بإزاء المرضى والتلاميذ أو الطلبة . فالواقع أن التعامل بالجملة ، سواء بالمستشفى أم بالمدرسة ، هو تعامل خاطئ ومنحرف عن الجادة مائة فى المائة . فتعامل الطبيب بالمستشفى العام ، يجب أن يكون تعاملاً فرديًا ، بمعنى أن يكون بين طبيب ومريض واحد ، وليس بين طبيب ومجموعة من المرضى . وكذا الحال بالنسبة لتعامل المدرس مع تلاميذه بالفصل ، فهو يجب أن يكون تعاملاً بين شخص وشخص آخر ، وليس تعاملاً بين خطيب وجمهرة غير متعينة من المستمعين ، كما هو حادث اليوم . والعيب الرئيسى فى حالتى طبيب المستشفى ومدرس المدرسة يتركز فى الإيديولوجية الصحية ، والإيديولوجية التربوية . فبالنسبة لطبيب المستشفى ، يجب أن تحد مسئوليته فتقتصر على عدد معين من المرضى لا يتعدى أصابع اليدين خلال عمله ، بحيث يظل هؤلاء المرضى العشرة فى نطاق مسئوليته ، ولا يناط به مرضى جدد ، إلا بعد أن يخرج أى منهم من المستشفى . وبالنسبة لمدرس المدرسة ، فإن النظرة إلى وظيفته ، يجب أن تتحول من كونه

شخصًا يلقى المحاضرات على مجموعات من المستمعين ، إلى مدرّب تتركز مسئوليته فى تدريب التلاميذ أو الطلاب على مجموعة من المهارات الذهنية والأدائية . وواضح أن ما قلناه بإزاء الطبيب ، ينطبق بإزاء مدرس الفصل . فيجب أن يُحد من عدد تلاميذ أو طلاب الفصل الواحد ، بحيث لا يزيد عددهم عن ثلاثين تلميذًا أو طالبًا . وحيث إن عمل المدرّب سوف يقتصر على تعليم المهارات الذهنية ، أعنى القراءة والكتابة والحساب ، وعلى المهارات اليدوية والحركية المتباينة ، فمن الممكن إذن اختصار وقت الدراسة بالمدرسة ، فيقتصر على ساعتين أو على ثلاث ساعات على الأكثر كل يوم من أيام الدراسة . وبالتالى فإن الأعداد المكدّسة حاليا من التلاميذ والطلاب بالفصول ، سوف تتوزع على فترات كثيرة خلال اليوم الواحد ، كما سوف يعين العدد الكافى من المدرسين الذين يعملون كمدربين . وبذا تُحل المشكلة التعليمية من جذورها ، ويكون التعامل فرديا بين المدرس أو المدرب ، وبين من يقوم بتدريبهم من أفراد ، ولا يكون التعليم جمعيًا أو جماهيريًا ، كما هو حادث الآن . وبالتالى فإن الحجة التى تسوقها ، من أن التعامل فى المدرسة بين المعلم وتلاميذه أو طلبته ، هو تعامل جماهيرى ، سوف تنهار تماما ، وبالتالى فإن مشكلة الدروس الخصوصية سوف تحل من جذورها ، ولا تظل هناك مبررات لاستمرارها . وواضح أن هذا ينسحب أيضا بإزاء العيادات الخاصة .

المعارض : إنك فى الواقع خيالى أكثر من اللازم . فما يجب أن يحدث ، إما أن يكون فى نطاق الممكن ، وإما أن يكون فى نطاق الصعب ، وإما أن يكون فى نطاق الصعب جدا ، وإما أن يكون فى نطاق المستحيل . وما تقول به أنه يجب أن يطبق بالمستشفيات ،

Looloo
www.dvd4arab.com

والمدارس ، يقع فى نطاق الصعب جدا . فهل تتخيل أن من الممكن الأخذ بهذه الإيديولوجية الجديدة التى تقول بها ، من أن المدرس يجب أن يستحيل من كونه شارحا للغامض للتلاميذ والطلاب ، إلى كونه مدرّبا على مجموعة محدودة من المهارات الذهنية والحركية ؟ وهل تعتقد أن من السهولة بمكان ، الضرب صفحا عن التراث التعليمى الذى استمرت مدارسنا تأخذ به منذ القدم ، وتقليصه إلى أن يصير محصورا فى نطاق ضيق للغاية ، هو نطاق التدريبات ؟ إن ما ترمى إليه مرفوض مقدما يا أخى ، ولا يوجد شخص واحد من المتحمسين للتربية وعلم النفس ، يوافقك على تقليص مسئولية المدرسة فى نطاق التدريب على المهارات ، مع الغض عن عملها الأصلى ، وهو تربية الناشئة من جميع جوانب شخصياتهم . لقد كان أولى بك أن تنادى بالتوسُع فى عمل المدرسين ، بدلا من أن تنادى بتقليص عملهم ، وتحيلهم إلى مجرد مدرّبين على تلك المهارات المعرفية والأدائية . فأنت تريد أن تحوّل المدارس إلى كتاتيب كتلك الكتاتيب القديمة التى كانت مقتصرة فى ممارستها التربوية على التدريب على القراءة والكتابة والحساب ، ولم تكن تهتم بالعلوم والمعارف المتباينة ، التى تعمل على تفتيق شخصيات التلاميذ وتفتحها على الجديد من الآفاق الحضارية المتباينة .

المؤيد : إنك تتهمنى بكلام لم أقله . فأنا لم أقل إن عمل المدرسة يجب أن ينكمش بحيث يقتصر على تدريب التلاميذ والطلاب على المهارات ، بل قلت إن عمل المدرس بالفصل يجب أن يقتصر على تلك التدريبات . أما المكتبة المدرسية والمعامل والملاعب وغير ذلك من أماكن وإمكانات يتسنى للتلاميذ والطلاب تنمية آفاقهم المعرفية والاجتماعية من خلالها ، فإنى أحبّذ تنشيطها . والواقع أنى متحمس وواقعى فى الوقت نفسه بإزاء هذه المسألة . فلو أنك تصفحت المناهج

المدرسية الحالية ، بل والمناهج الجامعية ، إذن لوجدتها مكدّسة بالمواد الدراسية التى لا تترك الفرصة الكافية للتلميذ أو الطالب لكى يستكشف استعداداته ومواهبه ، وبالأولى لكى يستثمرها . وحتى حصص المكتبة فقد تقرر لها منهج يضطلع به أمين المكتبة . وبتعبير آخر فإن الدراسة بالمدارس والمعاهد والكليات ، قد صارت تلقينية بمعنى الكلمة ، ولم تعُد تختلف عن نظام الكتاتيب الذى تقول عنه . والعجيب أنك تتهمنى بأنى أريد أن أعود بالمدارس والمعاهد والكليات إليه مع أنى على عكس ما تتهمنى به ، أريد أن أحرر المعاهد التعليمية من تلك النزعة التلقينية الكُتّابية التى سادت واستشرت ، إلى أن صارت ممسكة بخناق التلاميذ والطلاب ، فصادرت بذلك حريتهم ، وجعلت منهم أجهزة تسجيل لا هم لها سوى أن تُحشى بالمعلومات ثم تفرغها على أوراق الإجابة فى آخر العام الدراسى .

المعارض : ولكنك تقترح تقسيم اليوم الدراسى إلى فترات كثيرة ، حتى يتسنى التخلص من زحام الفصول ، وحتى يتسنى النزول بعدد تلاميذ أو طلاب كل فصل إلى ثلاثين تلميذا فقط . فهل هذا الاقتراح يتفق مع قولك بفتح المكتبات والمعامل والملاعب أمام التلاميذ والطلاب لكى يمارسوا فيها النشاط ؟ فهل سيجد المعلمون وقتا لتوجيههم فى تلك الأنشطة التربوية المتباينة ؟

المؤيد : أرجو أن أوضح هذه النقطة بشىء من التفصيل . الواقع أن عملية التوجية تختلف عن عملية التدريب . فالمدرّب ـ أعنى المدرس ـ فى وضعه الجديد ، الذى أقترحه ، سوف يقتصر على القيام بالتدريبات الخاصة بمادته التى تخصص فيها . فمدرس اللغة العربية يقوم بتدريب التلاميذ على القراءة والكتابة ، ومدرس

Looloo
www.dvd4arab.com

الرياضيات سوف يقوم بتدريبهم على الحساب والهندسة وعلى غير ذلك من مواد رياضية . أما مدرب الكومبيوتر فسوف يقوم بتدريبهم على فنون استخدام هذه الجهاز . أما أمين المكتبة فسوف يختص بتدريبهم على فنون البحث عن المعلومات التى يرغبون فى البحث عنها والوقوف عليها ، كما أنه سوف يقوم بتموين مكتبة المدرسة بالجديد والهام والجذاب من الكتب والمراجع وأفلام الفيديو وأشرطة الكاسيت وغير ذلك من مستحدثات فى مجال المكتبات . أما الملاعب الرياضية ، فهى من اختصاص مدرسى التربية الرياضية بما فى مكنتهم من تخصصات ومهارات ، وبما فى عنقهم من مسئولية توفير الأدوات والأجهزة الرياضية وصيانتها وتجديدها وتحديثها باستمرار .

وبهذا التصور أرجو أن تكون الصورة قد اتضحت ولا تكون المدرسة أو المعهد أو الكلية مجرد مؤسسة تدريبية ، بل تكون جامعة مانعة لجميع الأنشطة التربوية . أما بالنسبة لتقليص الوقت المدرسى المخصص للتدريبات ، فإنه سوف يتيح وقتا أكبر لممارسة الأنشطة الثقافية بالمكتبة والأنشطة الرياضية بالملاعب .

المعارض : ولكنك لم تذكر شيئا بالنسبة للتربية الدينية ؟ فهل نسقطها من المناهج الدراسية ؟

المؤيد : بالطبع لا . ولكن التربية الدينية التى أرجو أن تمارس بالمدارس والمعاهد والكليات ، هى تلك التربية التى تتخطى نطاق الإفهام والتحفيظ ، إلى نطاق الممارسة التدريبية . فمن الواجب أن تضم كل مدرسة مسجدا وكنيسة ، حتى يتسنى للمسلمين والمسيحيين ممارسة شعائر دينهم تحت رعاية رجال دين متخصصين ، فيتسنى بذلك أن يتربوا تربية دينية حقيقية . ذلك أن اعتبار التربية الدينية إحدى المواد الدراسية المقررة ، التى يستذكرها التلميذ أو الطالب

ويؤدى فيها امتحانا تحريريا فى آخر العام ، يبعدها عن تحقيق الهدف المرجو منها . فرجل الدين المسلم ، ورجل الدين المسيحى بمقدورهما أن يواكبا بين الفهم والممارسة الدينية . ذلك أن الفهم إذا ما انفصل عن الممارسة التدريبية لمضمون الدين ، فإنه يحيل التربية الدينية إلى مادة دراسية نظرية ، سرعان ما تنسى ، بل وتكون خالية خلوا تاما من الثمار السلوكية .

المعارض : أرجو ألا نخرج عن موضوع المناظرة وهو الدروس الخصوصية . فلقد استطردنا فى الحديث عن النظام المدرسى بمناسبة دعوتك إلى إصلاح النظام المدرسى ، حتى يتسنى الاستغناء عن الدروس الخصوصية . ولكنى أثير نقطة هامة لا تخرج عن نطاق موضوعنا ، هى أن التعليم فى أول نشأته ، كان تعليما فرديا يأخذ بنظام المدرس الخصوصى tutor .

المؤيد : ولكن بعد أن انتشر التعليم ، وصار حقا لأبناء جميع فئات الشعب ، فإنه استحال إلى هدف يبغى الغنى والفقير على السواء تحقيقه . وبتعبير آخر فإن التعليم قد صار جماهيريا ، ولم يعد فرديا . وبهذا الشكل فإنه قضى على النظام الإقطاعى الذى كان سائدا فى التعليم . ولكن مع انتشار الدروس الخصوصية ، التى لا يحظى بها إلا القادر على الإنفاق عليها ، فإن صراعا نشب بين المدرسة وبين الدروس الخصوصية ، وأخشى أن أقول إن المدرسة تكاد تقع صريعة الدروس الخصوصية ، فيكون الانتصار مقيّضا للدروس الخصوصية ، والهزيمة المنكرة مقيّضة للمدرسة . فإذا أنت سألت اليوم عن الأهم فى نظر ولى الأمر والتلميذ والطالب : أهو الدرس الخصوصى أم المدرسة ؟ فإن الإجابة ستكون الدرس الخصوصى . فالتلميذ والطالب يتسربان من المدرسة ولا ينتظمان عليها ، ولكنهما لا يتسربان من

Looloo
www.dvd4arab.com

الدرس الخصوصى ولا ينقطعان عنه ، بل يحرصان على حضوره حرصا تاما . ومعنى هذا كما هو واضح ، أننا صرنا فى عصر الدروس الخصوصية ، ولم نعد فى عصر المدرسة والمعهد والكلية . وبتعبير آخر فإننا عدنا القهقرى إلى الوراء إلى عصر الإقطاع التعليمى ، فلا ينجح فى الامتحانات سوى القادرين الذين انتظموا على الدروس الخصوصية برغم انقطاعهم معظم العام الدراسى عن الدراسة . من هنا فأنا أنادى بضرورة القيام بثورة ضد الدروس الخصوصية ، وضربها فى مقتل حتى تنتصر المدرسة ، ونقوم من كبوتها التى تردت فيها .

المعارض : إنك واقعتنى على أن التعليم عندما بدأ فى العصور الخوالى ، كان تعليما فرديا بنظام التيوتور أى المدرس الخصوصى . ومن الطبيعى أن مهمة المدرس الخصوصى فى ذلك الوقت كانت مهمة تدريبية وليست مهمة تلقينية . وما أصبو إلى تحقيقه هو أن نتشبث بالدروس الخصوصية ، ولكن بشرط أن تكون مهمتها مهمة توجيهية وإشرافية على الطفل أو المراهق أو الشاب ، وليست مجرد تلقينه وتشريبه المقرر الدراسى ، ومحاولة شحن ذاكرته بالمعلومات . فأنا أرجو أن يكون موقف المدرس الخصوصى ، هو موقف المعالج للمشكلات النفسية والتعليمية التى يتعرض لها الطفل أو المراهق أو الشاب ، والمحدّد للوسائل التى يتسنى بها تذليل الصعاب التى تعترض طريقهم فى الدراسة . وبتعبير آخر ، فأنا لا أريد أن يكون الدرس الخصوصى منافسا للمدرسة ، بل يكون معينا لها ، ومكملا لوظيفتها . فحيث إن مدرس المدرسة ، لا يستطيع أن يوجه اهتمامه المركز ، إلى كل تلميذ أو طالب على حدة ، فإن عمل المدرس الخصوصى ،

هو توفير ذلك الاهتمام ، فيتحقق بالتالى التكامل فيما بين عمل المدرسة ، وعمل ذلك المدرس الخصوصى .

المؤيد : إن ما تسميه تكاملا بين عمل المدرس ، وعمل المدرس الخصوصى ، هو فى الواقع تحطيم لمبدأ تكافؤ الفرص بين التلاميذ بعضهم وبعض . فمن المفروض أن تكون المدرسة هى المصدر الوحيد لاكتساب الخبرات المنظمة بالنسبة لجميع التلاميذ أو الطلاب ، بحيث لا يكون هناك تفاوت فيما بين التلاميذ بعضهم وبعض بإزاء الفرص المتاحة لاكتساب الخبرات . ولكن فى ضوء نظام الدروس الخصوصية ، فإن الأغنياء من الأسر وأبنائهم ، يحظون وحدهم بنصيب الأسد فى التعليم ، أما المتوسطون والفقراء ، فإنهم يحرمون من تلقى تلك الدروس الخصوصية . وأنت تعلم أن المسألة صارت مسألة عرض وطلب ، فيحظى بها من يدفع أكثر . فكلما استطاع المتوسطون والفقراء سداد نفقات تلك الدروس ، فإن المدرسين يرفعون أسعارهم ، لأن أولاد الأغنياء مستعدون لتقديم مبالغ أكبر . ولعلنا نصرح بالقول ، بأن ثمة حربا غير معلنة بين أولاد الأغنياء وبين أولاد المتوسطين والفقراء . فكلما أقبل أحد المدرسين على تدريس واحد من أولاد محدودى الدخل درسا خصوصيا ، فإن واحدا من أبناء الأغنياء يستولى عليه ويستأثر به ، بما يغرى به ذلك المدرس من مال كثير فيترك تلميذه غير القادر ويكرّس وقته له ، بدلا من تضييعه مع ذلك الذى لا يقدم له سوى مبالغ ضئيلة . من هنا فإن أولاد الأغنياء هم وحدهم الذين يحصلون على المجاميع المرتفعة فى الامتحانات العامة . أما أبناء المتوسطين والفقراء ، فإن مصيرهم الرسوب ، أو على أحسن تقدير ، الحصول على مجاميع ضئيلة لا تؤهلهم للالتحاق بكليات القمة كما تعنى بذلك ، أعنى الكليات التى

Looloo
www.dvd4arab.com

تبشر بمستقبل مادى مرتفع المستوى . أما أبناء الفقراء والمتوسطين ، فيكفيهم الالتحاق بالكليات التى لا تبشر إلا بمستقبل محدود ماديا ، بفرض أنهم اجتهدوا وبذلوا أقصى طاقتهم فى الانتظام على الاستذكار . وحتى إذا ما أتيحت لهم الفرصة للالتحاق بإحدى كليات القمة ، فإنهم يحسبون ألف حساب قبل الإقدام على الالتحاق الفعلى بها ، لأنهم يعلمون أن الدروس الخصوصية التى يقدمها مدرسو تلك الكلية مرتفعة للغاية ، فلا ينسنى لهم مسايرة زملائهم الأغنياء الذين بمقدورهم أن يحظوا بتلك الدروس الخصوصية الجامعية .

المعارض : الواقع أنك تبالغ وتحاول تضخيم المسألة أكثر من اللازم . فأنت تعلم أن هناك نظام المجموعات ، التى هى فى الواقع شكل من أشكال الدروس الخصوصية ، ولكن بطريقة منظمة وتحت إشراف مباشر من جانب المدرسة ، فهى دروس للتقوية التى تتاح أمام جميع التلاميذ والطلبة بنفقات متواضعة . ولكن الواقع أن الدروس الخصوصية وأيضا المجموعات التى تشرف عليها المدرسة ، تشكل ضرورة تربوية فى عصر انصرف فيه الأب والأم إلى عملهما خارج البيت . فلم تعد هناك رعاية أسرية كافية ، وحتى إذا توافرت تلك الرعاية ، فإن جهل الوالدين بالمناهج الدراسية ، وبأصول التدريس ، قد يجعل من رعايتهما للابن أو للبنت ، مصدرا للضرر ، وليس مصدرا للنفع . والواقع أن الكثير من الأبناء والبنات يرفضون تدخل الوالدين فى توجيههما لهم فيما يتعلق بالتعليم ، وقد يعزى هذا إلى ما يكتشفه الابن أو البنت من جهلهما المُطبق بالمناهج المقررة ، وبأصول التعليم . ومن ثم فلا يكون ثمة مناص من اللجوء إلى المدرس الخصوصى ، لكى يسد الفجوة فى الرعاية الوالدية التربوية المتعلقة بالمناهج الدراسية .

المؤيد : كل هذا مردود عليه إذا ما انضبطت الإدارة المدرسية ، وإذا ما قام الناظر والموجهون بالإشراف الجدّى والمجدى على العمليات التعليمية بالفصول . فالواقع أن هناك نقصا شديدا فى الإشراف التعليمى ، بحجة أن المدرس هو المسئول الأول عن العملية التعليمية ، وأن الناظر ليس سوى مدرس قديم تخصص فى مادة معينة ، ثم هجرها منذ فترة طويلة فنسيها . ناهيك عن أن الكثير من المدرسين يوجهون أصبع الاتهام إلى الموجهين ، فيزعمون أنهم موظفون جهلة ، قد نسوا مضامين المقررات بعد أن ترقّوا إلى مناصب التوجيه . فهم يحضرون إلى الفصول لتقديم توجيهات قشرية سطحية ، لا تصيب صلب المقرر ، كما أن الكثيرين منهم لا يقدمون توجيهات مفيدة أو ذات قيمة أو فى صلب العمليات التعليمية ، بل إن الكثير من توجيهاتهم ضار ، ولا يتأتى عنه أى فائدة يُعتد بها .

المعارض : هل تعلم أن بعض التلاميذ والطلاب تكتنفهم ظروف خاصة صعبة كالمرض أو كالكوارث الأسرية كموت أحد الوالدين أو أحد الأشقاء أو الشقيقات ، وبالتالى ينقطع الواحد منهم عن المدرسة فترة من الزمن ، ومن ثمّ فإنه يكون بحاجة ملحة إلى تلقى الدروس الخصوصية ، حتى يتسنى له اللحاق بأقرانه بالفصل ، وحتى يتسنى له تغطية الأجزاء التى فاتته من المقرر فى أثناء انقطاعه عن المدرسة ؟ وألا تعلم أن بعض الأطفال والمراهقين والشباب من الجنسين ، لا يستطيعون الإفادة من شرح المدرس بالفصل ، مثلما يفيدون من شرح المدرس الخصوصى لهم ، وقد وقف على مستوى ذكائهم ، وعلى مدى سرعتهم فى استيعاب ما يدرّس لهم ؟ الواقع أن الدروس الخصوصية ، لا تمثل فى كثير من الحالات ترفا يتمتع به الأغنياء دون الفقراء ، بل تشكل ضرورة لازبة لا غنى عنها ،

Looloo
www.dvd4arab.com

وتكون هى الحل الوحيد لإنقاذ التلميذ أو الطالب من هوة الرسوب فى امتحان آخر العام الدراسى .

المؤيد : وحتى إذا أنا وافقتك على ما تقدمه من حجج ، فإن ما لا أوافقك عليه هو التعميم . فلقد انتحيت إلى النعال بالتخصيص أو بالاستثناء ، على الرغم من أننا لسنا بصدد الحالات المستثناة أو الشاذة عن القاعدة ، بل بصدد قضية عامة . فمن الملاحظ فى السنوات الأخيرة أن الدروس الخصوصية قد صارت هى القاعدة ، وصار الشاذ من التلاميذ والطلاب ، هو الذى لا يأخذ دروسا خصوصية . ومعنى هذا أن ثمة مؤسسة اجتماعية جديدة قد بزغت إلى الوجود ، هى مؤسسة الدروس الخصوصية . فهل هذه المؤسسة المتضخمة ، والتى صارت منافسة للمؤسسة التربوية الحكومية ، هى مؤسسة مشروعة ، أم أنها مؤسسة خارجة عن حدود القانون ؟ وهل قام مجلس الشعب بمناقشة هذه القضية التى صارت تهم معظم البيوت المصرية ؟

المعارض : الواقع أن هذه المسألة ليست كما تصوّرها بكثير من المبالغة ، وقد اعتبرت الدروس الخصوصية مؤسسة اجتماعية جديدة . فالواقع أن المدرس الخصوصى ، ليس سوى واحد من العاملين فى مجال التربية ، وهو فى الغالب من أعضاء هيئة التدريس بالمدرسة التى يتردد عليها التلميذ أو الطالب الذى يعطيه الدرس الخصوصى . فهو إذن يحمل ترخيصا ومؤهلا تربويا يتيح له أن يعطى الدرس الخصوصى . فهو ليس غريبا عن هذه المهنة ، وشأنه شأن الطبيب الذى يفتح عيادة خاصة ويكون من الأطباء المعتمدين الحاصلين على بكالوريوس الطب وعضو بنقابة الأطباء .

المؤيد : ولكن هل تعلم أن الطبيب الخاص صاحب العيادة يقوم بتسديد الضرائب عن كل مريض يكشف عليه ويتولى علاجه . وعلى العكس من هذا فإن المدرس الخصوصى لا يدفع الضرائب المستحقة عن نشاطه بإعطاء الدروس الخصوصية بالبيوت ، ولا يفتح مدرسة خاصة ، أو يخصص مكانا ثابتا يعطى الدروس الخصوصية به . أفلا يعتبر هذا تهرّبا من حق الدولة عليه ؟

المعارض : سواء كان هذا حق للدولة أم لا ، فلا شأن لنا به فثمة متخصصون فى موضوع الضرائب ، هم الذين يقررون ذلك ، ويحسمون الموقف بازائه . ولكن ما نناقشه الآن ، هو ما إذا كان إعطاء المدرس الخصوصى جائزا أم لا ، ومفيدا أم ضارا . من جهتى فإنى أرى أنه ليس جائزا ومفيدا فحسب ، بل إنه ضرورى أيضا . وكما قلت فى السابق ، فإن ثمة تكاملا فيما بين ما تضطلع به المدرسة ، وما يضطلع به الدرس الخصوصى ، وأن الدرس الخصوصى ليس تكرارا لعمل المدرسة ، بل إنه عمل علاجى وتوجيهى وسد لفجوة خبْرية فى القوام المعرفى لدى التلميذ الذى يتلقى ذلك الدرس الخصوصى .

المؤيد : ماذا تعنى بالفجوة الخبرية ؟

المعارض : أقصد بالفجوة الخبْرية أن بعض التلاميذ ، تنقصهم بعض المهارات الذهنية ، أو المهارات اليدوية التى كان ينبغى أن يكونوا قد حصّلوها وتمكنوا منها جيدا فى مرحلة سابقة من المراحل التعليمية التى مروا بها . من ذلك مثلا الفجوة الخبْرية الخاصة بالجمع أو الطرح أو الضرب أو القسمة ، أو الفجوة الخبْرية المتعلقة بهجاء بعض الكلمات ، أو الفجوة الخبرية الخاصة بالخط أو بطريقة الكتابة ،

Looloo
www.dvd4arab.com

أو الفجوة الخبْرية الخاصة بنطق بعض الكلمات أو الأسماء وغير ذلك من فجوات خبْرية . فمن واجب المدرس الخصوصى سد تلك الفجوات التى تعمل على تعطيل التلميذ أو الطالب عن مسايرة زملائه بالفصل ، والتى تعرّضه للرسوب المتكرر فى الامتحانات . فلولا الدرس الخصوصى ، لا يكون ثمة سبيل لتخليص مثل هذا التلميذ أو الطالب من تلك الفجوات الخبْرية التى تسبب له عثرات أو كبوات فى مسيرته التعليمية . فهو مهما انكب على الكتب يستذكر محتوياتها المقررة ، ومهما انتظم على حضور المدرسة أو المعهد أو الكلية ، فانه لا يستطيع أن يجتاز الامتحانات بسبب تلك الفجوات الخبرية الكأداء ، التى لا يمكن علاجها وسدها إلا بواسطة الدروس الخصوصية العلاجية .

المؤيد : مازلت مصمما على أن ظاهرة الدروس الخصوصية ، قد انبثقت نتيجة إهمال المدرسة وعدم قيامها بواجباتها . فما تذكره عن الفجوات الخبْرية ، من الواجب على المدرس بالمدرسة أن يكتشفه ، وأن يضطلع بمعالجته . وإنى أستطيع أن أؤكد لك أن طريقة التعليم الأحادية التى تنهج مدارسنا ومعاهدنا وفقها ، هى المسئولة عن جميع الأخطاء التربوية التى يشكو منها المعلمون وأولياء الأمور على السواء . والجدير بالمسئولين عن التعليم أن يقلعوا عن ممارسة هذه الطريقة الأحادية ، وأن يحلوا محلها الطريقة الفارقية فى التعليم .

المعارض : ماذا تقصد بالطريقة الفارقية والطريقة الأحادية ؟

المؤيد : إن الطريقة الأحادية فى التعليم — وهى الطريقة التى دأبنا على انتهاجها عبر الأجيال المتعاقبة ، ولم نكد نأخذ بغيرها من طرائق فى التعليم — هى تلك الطريقة التى تعتبر أن الفصل بما يضمه من عدد كبير أو صغير من التلاميذ ، بمثابة عقل واحد ، ومستوى تحصيلى واحد ، وسرعة أدائية واستقبالية واحدة ، وهى الطريقة التى

بمقتضاها يقوم المدرس بإعداد درس واحد من حيث الكم والكيف ، ويقدمه فى الحصة الواحدة . وهى الطريقة التى يتقرر بمقتضاها كتاب واحد لكل صف دون إضافة عليه أو انتقاص منه . أما الطريقة الفارقية ، فهى على عكس هذه الطريقة الأحادية ، تعتبر أن كل تلميذ فئة قائمة بذاتها . ولذا فإن كل تلميذ يقدّم إليه من الخبرات التعليمية ما يناسبه . فمثلاً بالنسبة لحل المسائل الحسابية ، فإن كل تلميذ يقوم بحل المسائل التى يستطيع حلها ، فيقدم إليه عدد من مسائل الحساب بعضها فى مستواه ، وبعضها الآخر أعلى من مستواه . وكذا فإن عدد المسائل المقدّمة إليه ، تكون أكثر مما يستطيع حله فى أثناء الحصة . وبذا يُقضى قضاء تاما على البطالة التعليمية . وبالنسبة لما تقول عنه من فجوات خبْرية ، فإن التوجيه الخاص الذى يضطلع به المدرس ، يعمل على سدّها . وباختصار فإن الطريقة الفارقية هى عبارة عن درس خصوصى يمارس بالفصل ككل ، أو هى المعالجة الفردية لكل تلميذ بالفصل على حدة .

المعارض : ألا ترى أن هذه الطريقة الفارقية مستحيلة التنفيذ وبخاصة فيما يتعلق بالعمليات التدريبية ؟

المؤيد : الواقع أن هذه الطريقة الفارقية تعمل على إحالة المدرس من كونه شارحًا أو خطيبًا ، إلى كونه موجّها ومرشدا ومدرّبا . ولكن موقفه هذا من أفراد التلاميذ ، لا يحول بينه وبين تقديم بعض التوجيهات العامة أو الملاحظات التى يرى أن من الواجب تقديمها إلى جميع تلاميذ الفصل لأنها تخصهم جميعًا ، أو تخص معظمهم على الأقل . وكما سبق أن قلت لك فإن من الواجب أن يكون تعامل المدرس مع تلاميذه بالفصل فرديا وليس جمعيا . فالمدرس غير المحاضر . ذلك أنه مدرّب يقوم بتدريب التلاميذ على مجموعة من العمليات الأدائية ، أو هو البديل للمدرس الخصوصى .

Looloo
www.dvd4arab.com

المعارض : فلنكن واقعيين لا خياليين . فأنت تعترف بأن الطريقة التى يتبعها المدرسون حاليا ، وهى الطريقة المعتمدة والمعترف بها من قبل وزارة التعليم ، وقد نعتها بانها الطريقة الأحادية ، هى التى انبثقت عنها الدروس الخصوصية ، نتيجة عدم كفايتها فى توجيه كل تلميذ بالفصل بطريق مباشر ، ولأنها تخاطب تلاميذ أو طلاب الفصل كما لو أنهم شخص واحد ، ولا تتبين الفروق الفردية بين كل تلميذ وآخر ، ولا توفر الفرصة الكافية للافادة والاستيعاب ، سواء بالنسبة للضعفاء ، أم بالنسبة للمتفوقين ، وذلك لأن المدرس يخاطب المتوسطين بالفصل ، أعنى أنه يهتم بالعالبية فيه . ولكن طالما أن هذا هو الوضع السائد والمعمول به ، إذن فأنت تعترف بأن العناية بالضعفاء من جهة ، واستثمار مواهب الموهوبين المتفوقين من جهة أخرى ، لا تتأتى إلا عن طريق الدروس الخصوصية . ومن المؤكد أننا لا نستطيع أن نلغى الدروس الخصوصية ، بينما تنهج المدارس هذا النهج كما ترى ، وكما تشهد أنت بأنه وضع لا يشبع الحاجات الضرورية ، التى تتطلب إشباعا لدى الضعفاء ولدى الأقوياء من التلاميذ والطلبة على السواء . فحتى يحين الحين ، وتتعدل النظم المدرسية ، ويتسنى القضاء على الطريقة الأحادية ، والأخذ بالطريقة الفارقية ، فلابد إذن من استمرار الدروس الخصوصية وتقدير القائمين بها وعدم الوقوف فى طريقهم أو محاربتهم ، أو اعتبار ما يبذلونه من جهد استغلالا وطمعا . ذلك أن الرسالة التى يضطلعون بها تستحق التقدير والشكر والامتنان ، ومهما حصلوا من مال نظير جهودهم المضنية والمثمرة ، فإن الآباء والأمهات لا يوفونهم حقهم (انظر كتابنا : التربية لمجتمع متحرر) .

* * *

المناظرة السادسة

من الأخطاء البالغة أن يربط المرء نفسه بوظيفة بالحكومة أو بغيرها ، إذ أن الموظف عبد لوظيفته ، وسجين فى إطارها .

المؤيد : أنا من مؤيدى هذا الرأى من كل قلبى . ذلك أن من يركن إلى الوظيفة ، يكون شأنه كشأن من يُسلم نفسه للعبودية بيده ، وقد تنازل عن حريته فى التفكير ، وفى التخطيط لحاضره ومستقبله . فالواقع أن الوظيفة ــ أيا كانت ــ مقيّدة بقوانين ولوائح ، بل إن كل خطوة من خطوات العمل فى أى وظيفة ، تكون قد قيّدت وتحددت بدقة بالغة ، بحيث لا تترك أى فجوة للموظف لكى يُعمل فيها ذكاءه . وبتعبير آخر فإن الوظيفة تعمل على قولبة المشتغل بها على نحو معين ، وكأنه قد صار قطعة من الصلصال تتشكل فى قالب الوظيفة التى ارتمى فى أحضانها ، فصار عبدا ذليلا لها .

المعارض : الواقع أنك تبالغ فيما تذهب إليه . فالوظيفة مهما تحدد لها من روتين للعمل به ، فإنه يكون لتسهيل ممارستها ، ومع ذلك فإن أى روتين ، لا يعدو أن يكون إطارا عاما للعمل ، ولا يتطرق إلى تفاصيل الوظيفة . فالحرية المطلقة التى تصبو أنت إليها ، لا يمكن أن تتوافر فى الواقع الممارس بالفعل ، بل هى أمنية تداعب خيالك الخصب . فأى شخص فى هذه الحياة منذ ميلاده حتى وفاته ، يلتزم بأنماط سلوكية عامة ، عليه أن يصب سلوكه فيها ، ولا يستطيع

Looloo
www.dvd4arab.com

أن ينفك من قيودها . أو أن يتحلل مما نلزمه به بأى حال من الأحوال . خذ مثالاً بسيطاً لذلك . فأنت لا يمكن أن تخلع عنك الملابس كلها وتسير فى الشارع عاريا ، مهما كان الجو حارا ، فأنت ملزم بارتداء الملابس التى تستر بها جسدك على النحو الذى يقره المجتمع من حولك . ولكنك حر بإزاء تفاصيل الملابس التى ترتديها من حيث ألوانها وأشكالها . وقل الشيء نفسه بإزاء كل شيء فى الحياة . وحتى الرجل الذى يشتغل فى أى عمل حر ، يتقيد بأطر عامة ، فيما يتعلق بنشاطه الحر ، أو فيما تزعمه أنت أنه حر فى ممارسته . فثمة رقابة بشكل أو بآخر على جميع الأعمال الحرة من الجهات الحكومية ، فصاحب المخبز مثلاً ، ليس حرا فى صنع الخبز من أى دقيق وبأى وزن ، أو بأى شكل يشاء ، بل إنه مقيد بالمواصفات العامة التى يسمح له بأن يسيّر بها عمله فى المخبز . وما ينطبق بإزاء المخبز ، ينطبق أيضا بإزاء جميع الأعمال الحرة . فثمة أطر عريضة موضوعة ومحددة لجميع الأعمال والأنشطة الاقتصادية . وشأن المشتغل بالعمل الحر ، كشأن الموظف بالحكومة ، وبأى شركة أو جهة محلية أو أجنبية .

المؤيد : وبفرض أنى أوافقك على ما تذهب إليه ، فإن المسألة نسبية فى الواقع . وبتعبير آخر فإن المساحة التى يتسنى للمشتغل بالعمل الحر أن يتحرك بحرية فيها ، أكبر بكثير من المساحة التى يتسنى للموظف أن يتحرك فيها . وطبعا أنا أستخدم لفظ مساحة مجازا ، وأعنى بها مدى الحرية التى يتمتع بها كل منهما فى أداء العمل . فالمشتغل بالعمل الحر ، مسئول عن تصريف أموره بنفسه ، وهو صاحب القرار الأول والأخير فيه . فهو لا يتحرك من الخارج

بواسطة رئيس أو مدير ، بل يتحرك من دخيلته ، أى بعقله وإرادته . فهو الآمر والمأمور فى الوقت نفسه .

المعارض : انك نسيت عاملاً آخر يعتمل خارج نطاق المشتغل بالعمل الحر ، يجب أن تضيفه إلى العامل الشخصى . فالواقع أن المشتغل بالعمل الحر ، ليس شأنه شأن الفنان التشكيلى الأصيل والمبدع ، الذى يصدر فى عمله الفنى عن اختياره وعن رغبته الشخصية ، فلا يفرض عليه أحد أن يرسم لوحة بعينها ، بل هو شخص يتعامل مع ظروف خارجية ، أعنى تلك الفرص المتوافرة أحيانا ، والشحيحة أو المنعدمة أحيانا أخرى ، والتى تقف فى صفه فى وقت ما ، وتعطيه ظهرها فى وقت آخر . فواقع الحياة العملية ليس ثابتا . إنه كموج البحر الذى يعلو أحيانا ، ويهبط أحيانا أخرى بفعل المد والجزر . فأنت أخطأت فى الواقع عندما قلت ، إن المشتغل بالعمل الحر يصدر فى قراراته بحرية من دخيلته ، وأنه الآمر والمأمور فى الوقت نفسه . فحقيقة الأمر أنه مأمور بالواقع الخارجى وخاضع له ، ومسيّر بواسطة الظروف المحيطة بعمله . وأكثر من هذا فإن الظروف التى تضغط على المشتغل بالعمل الحر ، لا تقتصر على الظروف الراهنة فحسب ، بل تتسع أيضا لتشمل الظروف المستقبلية أيضا . فهو لابد أن يستشرف المستقبل لكى يعمل له الحساب كل الحساب ، ولكى يعد نفسه لملاقاته والإفادة منه ، والتخفف من الأضرار التى سوف يحملها إليه ، فى القريب العاجل ، أو فى البعيد الأجل .

المؤيد : أرى أنك قد أغفلت اعتبارا هاما ونقطة أساسية بإزاء الحرية والمسئولية . فأنت صادرت حرية المشتغل بالعمل الحر لمجرد وجود ظروف أو مواقف خارجية متغيرة باستمرار . ولكنك

www.dvd4arab.com

نسيت أن ثمة خيارين أو أكثر يتواجدان أمام من يشتغل بالأنشطة الحرة . فالمستقبل والحاضر لا يفرضان عليه فرضا واحدا ووحيدا ، عليه أن يأخذ به دون سواه ، بل يوفران له خيارين أو أكثر ، لكي يختار من بينها . وكلما كان المرء أكثر ذكاء وسبرا لأغوار الحاضر والمستقبل ، وكلما كان صاحب خبرة فى المجال الذى يشتغل به ، فإنه يكون خليقا بالتالى لأن يكتشف خيارات أكثر وأنجع ينتقى من بينها . فالواقع أن الناجحين فى أعمالهم الحرة ، هم أولئك الذين توافر لديهم الذكاء والحصافة والخبرة ، فصاروا بذلك قادرين على تبيُّن واستكشاف خيارات غزيرة ، تختبئ عن أنظار زملائهم الذين لم تفيّض لهم تلك المواهب بالقدر الذى فيّض لهم .

المعارض : وحتى ما تزعمه من خيارات يمكن أن تتوافر أمام المشتغل بالعمل الحر بفضل ما توافر لديه من ذكاء وخُنْكة وخبرة ، فإن تلك الخيارات مشروطة بشرط توافر الذكاء والحنكة والخبرة . فهل تضمن ذلك لكل شاب يرفض الالتحاق بالوظيفة الحكومية ، وينخرط فى العمل الحر ؟ ناهيك عن أن الذكاء ليس نوعا واحدا ، بل أنواعا متباينة . واعتقادى هو أن كل عمل من الأعمال الحرة ، بحاجة إلى نوع معين من الذكاء . فإذا نحن عرّفنا الذكاء بأنه القدرة على الوقوف على العلاقات المتوافرة بالموقف ، فإننا نقول إن هذه القدرة تتباين بتباين الأعمال والأنشطة الحرة . فالذكاء الذى يجب أن يتوافر لقائد السيارة ، غير الذكاء الذى يجب أن يتوافر لقائد الطائرة ، والذكاء الذى يجب أن يتوافر للسمسار ، غير الذكاء الذى يجب أن يتوافر للبقال . وأنا شخصيا لا أرغب فى عزل الذكاء عن القدرات الخاصة ، بل أعتقد أن القدرة الخاصة هي ذكاء متعين ، وخاص بنوع معين من النشاط . وحيث إننا لسنا معلّقين فى الفراغ ، بل نرتبط

بالواقع برباط عملى مستمر ، فإنى أحصر مفهوم الذكاء فى إطار الأنشطة التى يضطلع بها المرء ، فتكون لدينا أنواع متباينة من الذكاء . فإذا ما اتجه المرء إلى نشاط حر ما ، ولا يكون لديه نوع الذكاء المتعلق بذلك النشاط بوفرة ، فإن مصيره يكون إذن الفشل فى ممارسته . وبالتالى فإنه مهما اشتغل به ، فإنه لا يستطيع أن يحرز تبريزا فيه ، كما لا يستطيع أن يحصل على خبرة يُعتد بها بإزائه .

المؤيد : إنك ما تزال تحصر تفكيرك فى دخيلة المرء المشتغل بالعمل الحر ، وقد أغضيت عن الواقع الخارجى وعن الظروف والأحداث الخارجية . فأنت تعلم أن المرء مهما كان على مستوى عظيم جدا من الذكاء النوعى الذى تقول به والخاص بالعمل المشتغل به ، فإنه لا يكون قادرا على التحكم فى سير الأحداث الخارجية . فمهما كان حماسك لما يكون فى جعبة المرء من ذكاء ، ومن قدرة على الاختيار من بين مقومات الموقف ، فإنك لا تستطيع أن تنكر أن الواقع الخارجى الاجتماعى خارج عن نطاق سلطة الفرد ، بل وخارج عن نطاق سلطة الدولة نفسها . فالظروف الداخلية والظروف الخارجية جميعا تلعب بها مشيئة الأقدار .

المعارض : الحمد لله أنك تعترف بأن هناك ظروفا خارجية تعبث بها مشيئة الأقدار . فمهما كان المرء حريصا وذكيا ومستشرفا المستقبل ، فإن استشرافه هذا لا يصل إلى درجة اليقين المطلق . فثمة المفاجآت المستقبلية التى تسمى بالقدر المكتوب ، الذى لا يتسنى للمرء أن يتنبأ به ، أو أن يتوقعه . فماذا يستطيع المشتغل بالعمل الحر أن يفعل بإزاء تلك الأقدار المشؤومة التى لا حيلة له بإزائها ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

المؤيد : ولكن أليس القدر المشؤوم محيطا بالجميع ، سواء كانوا مشتغلين بالعمل الحر ، أم كانوا مشتغلين بالوظائف ؟ فهل القدر المشؤوم وقف على المشتغلين بالأعمال الحرة ، بينما يعفى منه المشتغلون بالوظائف الحكومية وغير الحكومية ؟ ألا تعلم أن المشتغل بالعمل الحكومى معرّض هو أيضا للخضوع لأحداث تفوق طاقة الحكومة أو طاقة الشركة التى يعمل بها ، فتكون الكارثة عندئذ بالجملة ، وتطيح بالجميع ؟ خذ مثالا لذلك باشتعال أوار حرب داسية على نطاق واسع ، فلا تبقى ولا تذر ، فتكلف الحكومة بسببها مالا كثيرا للغاية . أفلا يحتمل أن تعجز الدولة فى هذه الحالة عن سداد مرتبات الموظفين بالكامل ، فتصرف لكل موظف نصف أو ربع مرتبه الشهرى فقط ؟ وألا يجوز أن تنقل إحدى الشركات نشاطها الى دولة أخرى بعيدة عن الحرب ، فتستغنى بذلك عن موظفيها جميعا وتستعين بموظفين من القطر الذى تنتقل إليه ؟ ولماذا نفترض فروضا غير محتملة . أو لم نقع بالفعل ، ولماذا لا نقدم إليك مثالا من الواقع الحالى ؟ ألم يشتعل الغلاء اشتعالا منقطع النظير فى العالم بأسره ، وفى منطقتنا العربية بشكل خاص ، وبذا فمهما حاولت الحكومة أن ترضى الموظفين ، أو أن توفر لهم الحد الأدنى من المعيشة وذلك بمنحهم العلاوات الاستثنائية ، فإن الموظف يجد نفسه مع ذلك على حافة الهاوية ، فلا يستطيع أن يسدد نفقات معيشته ومعيشة أسرته ، مما يحمل بعضهم أو الكثير منهم على الارتشاء والاختلاس ، كما أنه يحمل الأمناء منهم على أن يبحثوا عن أعمال حرة يعملون بها بعد ساعات العمل الرسمية ؟ ولقد صار يضرب المثل بالموظف فى عوزه واحتياجه ، بينما نجد أن المشتغل فى أى عمل حر مهما كان متواضعا ، فإنه يحصل نتيجة ممارسته له على دخل أكبر بكثير من دخل

وكيل الوزارة الشريف ، الذى لا يتلاعب بالسلطات التى تخولها له وظيفته .

المعارض : ولكن ألا تعلم أن العمل الحر بحاجة إلى رأسمال لا يتوافر فى الغالب لمعظم الشباب ؟ فإذا ما لجأ الشاب أو لجأت الشابة إلى الاشتغال عند شخص لديه مشروع تجارى أو غير تجارى ، فإنهما يكونان عندئذ قد صارا مجرد موظفين ، وبالتالى فإنهما يصيران مخرطين فى عمل لا ترضاه أنت لهما ، لأنك ضد العمل فى الوظائف ، وتحبذ العمل الحر ، فماذا يفعلان إذن وأبواب الرزق موصدة أمامهما ؟

المؤيد : إن الدولة توفر أمام الشباب فرص عمل كثيرة ، سواء بالمحافظات ، أم بالمدن الجديدة ، ومن الممكن أن يسعى الشاب ، أو تسعى الشابة للعمل بالأجر مؤقتا ، إلى أن يتشربا أصول العمل الحر ، ثم يخطوان بعد ذلك خطوات حثيثة إلى الأمام فى نطاق ذلك العمل الحر الذى تمكنا منه . وليس عيبا أن يبدأ الشاب ، أو أن تبدأ الشابة ، بتعلم إحدى الحرف من أربابها ، ثم يستقلان بعد ذلك فى ممارستها . فمن الممكن أن يعمل الشاب الجامعى بعد تخرجه فى أحد المعاهد أو فى إحدى الكليات فى أعمال البناء مثلا ، وذلك بالبدء من الصفر . وليت المسئولين عن قطاع الأعمال بالشركات والهيئات العامة والمؤسسات الحكومية ، يوفرون فرص التدريب على الكثير من الحرف أمام الشباب بالمجان ، بحيث تركز كل فترة تدريبية بالنسبة لكل حرفة فى حوالى شهر ، فيتسنى خلال تلك المدة اكتساب المهارات الأساسية الخاصة بها ، كما تتوافر الفرصة بعد ذلك ، أمام من يرغب فى الاحتراف بها فى سوق العمل الحر والكسب عن طريق ممارسته لها . ومن الممكن أن تساهم البنوك بالقروض الميسرة

Looloo
www.dvd4arab.com

للشباب ، لكى يجهز كل منهم مشروعه الحر ، بما يحتاج إليه من أدوات وآلات للبدء فى ممارسته .

المعارض : الواقع : أن المسألة ليست مجرد توفير إمكانات ، وعقد تدريبات على بعض الحرف ، بل انها مسألة تربية وإعداد نفسى ، لا يمكن إحراز هما بين ليلة وضحاها ، أو خلال فترات قصيرة من التدريب . وكذا فإن المسألة ليست مسألة اقتناع عقلانى من جانب الشباب ، بل هى مسألة غرس اتجاه نفسى لا شعورى لديهم . فالشاب الذى ولد ونشأ فى مدينة كمدينة القاهرة ، لا يستطيع أن ينسلخ عنها ويرحل إلى سيناء أو إلى غيرها من مناطق صحراوية لكى يستزرع الأراضى البور هناك . فمهما وفرت له الإمكانات والفرص الاقتصادية ، ومهما منحته القروض والمنح ، ومهما قدمت إليه جميع المعلومات والتدريبات والتسهيلات اللازمة لممارسة عمله الجديد ، فانه فى النهاية يخرج من هذا كله بلا شىء ، وذلك لأن تعلقه بموطنه الأصلى شديد للغاية ، وبالتالى فإنه لا يستطيع أن يتحمل المشقات التى يجب عليه أن يتحملها فى ذلك الموطن الجديد الذى لم يألفه ، ولم يعتد على التعامل معه . فالواقع أن الكثير من شبابنا يرتبطون نفسيا بنوع معين من أنماط الحياة ، بحيث لا يمكن تغيير ما اعتادوا عليه برغم إتاحة الفرص السانحة أمامهم . فما نشأ عليه المرء منذ الميلاد حتى الشباب من اتجاهات نفسية ومن عواطف ، لا يمكن ابداله بسهولة ، وإحلال نمط حياة جديد محله .

المؤيد : انك فى الواقع تقيس الآخرين فى ضوء مزاجك الشخصى . فربما لأنك مرتبط ارتباطا عميقا بمسقط رأسك ، فإنك تعتقد أن جميع الشباب ينهجون على منوالك ، مع أن الواقع أن الكثير من الشباب يتوقون إلى الجديد من البيئات التى لم يألفوها . ولك أن

تشاهد الأعداد الغفيرة من الشباب الذين يتكدسون أمام السفارات العربية ، يتقدمون بطلباتهم للنزوح إلى الأقطار العربية للعمل هناك . ولك أيضا أن تقرأ عن المصريين الذين يعدون بالآلاف وقد هاجروا إلى أمريكا واستراليا وغيرهما من أقطار بعيدة إلى الأبد ، وكونوا هناك جاليات مصرية لها أنشطتها المتباينة ، وقد احتل الكثير منهم مواقع قيادية وعلمية وثقافية هناك . فالواقع أن الأجيال الجديدة من الشباب تواقون للمغامرة ، ولم يعد الانتماء إلى الوطن مقتصرا فى مفهومه على معنى الارتباط بالأرض ، بل اتسع لمعنى الارتباط النفسى بالتراث والثقافة المتعلقين بالوطن . فالواقع أن انتماء الجاليات المصرية إلى مصر بتلك الأقطار البعيدة ، واضح جدا ، وعميق للغاية . فهم ما يزالون غيورين على لغتهم القومية برغم اكتسابهم للغة وعادات وتقاليد الأقطار التى نزحوا إليها .

المعارض : انك فى الواقع تبرهن على ما ترغب التوصل إليه عن طريق الاستشهاد بالحالات الشاذة ، وليس بالعموم والسائد بين الغالبية العظمى من الشباب . فالواقع أن الراغبين فى الترحال إلى الدول العربية وإلى بلاد المهجر ، لا يمثلون سوى قلة قليلة من الشباب للعمل هناك . وبالمثل فإن الراغبين فى المغامرات بالرحيل من موطنهم الأصلى إلى المدن الجديدة ، قلة أيضا . والواقع أن هناك معادلة صعبة عليك أن تقدم حلا ناجعا لها . فأنت تعلم أن غالبية الشباب من خريجى الجامعات ، لا يملكون إلا الكفاف من المال . فغالبيتهم أبناء وبنات موظفين كافحوا حتى تخرج أبناؤهم فى المعاهد والجامعات . ومن جهة أخرى فإن الرحيل من نطاق الأسرة الأم إلى أى منطقة جديدة قريبة أو بعيدة عن مكان إقامتهم ، بحاجة إلى رأسمال . فالدولة إذا ما قدمت بعض المساعدات ، فإنها لا تستطيع أن

Looloo
www.dvd4arab.com

تتكفّل بكل النفقات التى تلزم للسكن والإقامة والإنفاق على لوازم المعيشة . وإذا قلت لى إن الدولة ستتكفل بذلك ، وسوف تقدم المرتبات إلى من يغامر بالهجرة إلى تلك الأماكن النائية ، فإنى أقول لك إنك قد رجعت إذن إلى مسألة التوظيف الذى ترفضه صراحة وتحض الشباب على عدم اللجوء إليه . فسواء قدمت الدولة مرتبات شهرية أم مساعدات عينية أو مالية ، فإنها بالتأكيد سوف تطالب بالمقابل نظير ما تقدمه . وبتعبير آخر فإن الشاب أو الشابة سوف يستحيلان إلى أجيرين أو موظفين فى نهاية المطاف . فهل عندك حل لهذه المعادلة الصعبة أو المستحيلة ؟

المؤيد : الواقع أن هذه المعادلة التى تذكرها ليست صعبة ولا مستحيلة ، بل إنها سهلة الحل للغاية ، ولا تحتاج إلى إعمال للذهن فيها . فما تقدمه الدولة إلى الشباب ليس أجرا ، بل هو قروض ميسّرة . وحتى إذا هى قدمت مساعدات أو مرتبات شهرية إلى العاملين بتلك المناطق الجديدة التى يضطلع الشباب فيها بإصلاح الأراضى أو بإنشاء المرافق أو غير ذلك ، فإن كل ما تقدمه إليهم ليس نظير شغلهم لوظائف ينهضون بها ، بل هو تمليك للأرض أو لغيرها من ممتلكات . فالفرق بين الموظف وبين مالك رأس المال ، فرق واضح . فما تقدمه الدولة إلى الشباب ، يؤول إليهم بعد فترة السداد . فهى توفر لهم إذن جميع فرص العمل مع بث الشعور فيهم ، بأن ما يعملون من أجله ، إنما هو ملك لهم ولأولادهم وأحفادهم من بعدهم . وهى عندما توفر لهم المرشدين الزراعيين المنتدبين من وزارة الزراعة ، أو عندما تبعث بالمسؤولين الماليين لكى يضعوا لهم الميزانيات ، وعندما تبعث الإخصائيين الاجتماعيين إليهم لمدارسة مشكلاتهم النفسية والاجتماعية ، فإنها لا تكون فارضة أوامرها فى

جميع تلك الحالات ، بل تكون عاملة على حمايتهم ، دون التدخل فى تفاصيل أعمالهم . فهم أصحاب العمل ، ولهم أن يخططوا وأن يتصرفوا فى كل شىء كما يشاؤون . ولكن عليهم فى الوقت نفسه أن يتحملوا مسؤولية اتخاذ القرارات . ولا شك أن بعضهم يتسم بالحكمة فى قراراته التى يصدرها ، بينما يكون بعضهم الآخر غير حكيم فيبور عمله ، ولا يستطيع أن يعمل على تنمية رأسماله الذى توافر بين يديه ، بل يبدده بحماقة ورعونة . وكذا فإن بعضهم يتحملون الصعوبات والمشقات التى يجابهونها فى ممارسة نشاطهم الذى لم يعتادوا عليه من قبل ، بينما لا يستطيع بعضهم الآخر أن يتحملوا ذلك ، وبالتالى فإنهم يقعون صرعى الأزمات النفسية ، ويفشلون فى الاستمرار فى القيام بواجباتهم بإزاء الأنشطة الجديدة التى تحتاج إلى المثابرة وبذل العرق ، وإعمال الذكاء والتذرع بالقدرات الخاصة فى كل موقف جديد يجابهونه فى أثناء ممارسة العمل . ناهيك عن القدرة اللازمة لهم على التكيف والتواؤم مع المناخ الاجتماعى الجديد .

المعارض : لقد قلت بلسانك إن الدولة ترسل الموظفين من وزارة الزراعة ، ومن وزارة الاقتصاد ، ومن وزارة الشئون الاجتماعية لتوجيه الشباب فى المناطق الجديدة . والواقع أنك حاولت التخفيف من وقع هذا على الآذان ، فقلت إنهم يوجّهون إليهم لمساعدتهم ، ولا يفتشون على ما أنجزوه من أعمال . والواقع أن عمل هؤلاء المندوبين من الوزارات المختلفة هو التفتيش بعينه . ناهيك عن أن الدولة سوف تحسب جميع ما تقدمه من نفقات بالتأكيد ، فتحمل المسؤولين عن تلك المناطق الجديدة مرتبات أولئك الموظفين أو المفتشين ، فترهق بذلك ميزانية الشباب الكادحين فى تلك المناطق الجديدة . وأنت تعلم الباقى . فكل من أولئك المفتشين لابد أن

Looloo
www.dvd4arab.com

يسترضى بالولائم الحافلة ، وبالهدايا إن لم يكن بالرشاوى ، حتى يقدم التقارير الزائفة عن النشاط العظيم الذى شاهده بتلك المناطق الجديدة ، مع أنه لم ير سوى الضياع وفقدان أموال الدولة سدى فى مشروعات زراعية فاشلة ، تماما كما حدث قديما فى مديرية التحرير التى أنفقت عليها الدولة أموالا كثيرة ، ولم تجن منها سوى الخسران .

المؤيد : لا محل للتشاؤم بذكر مديرية التحرير أو غيرها . فالواقع أن فشل أحد المشروعات لا يعطيك الحق فى الحكم على جميع المشروعات بالفشل . ذلك أن الممارسة الجيدة والتخطيط الجيد الذى يسبقها ، يعدان شرطا أساسيا لنجاح أى مشروع . فمن الضرورى أن يدرس المشروع بطريقة جيدة قبل البدء فى تنفيذه ، حتى تتوافر له فرص النجاح والازدهار . وعلينا ألا نحصر كلامنا فى المناطق الجديدة . فالأعمال الحرة ليست منحصرة فى تلك المناطق الجديدة ، بل إن الأعمال الحرة الكثيرة موجودة بالفعل فى نطاق المدن والقرى . ولكن اسمح لى أن أوضح الفرق بين العمل الحر وبين الوظيفة ، حتى يكون كلامنا محددا ومنضبطا وواضحا ، وذلك لأنى أحسست فى أثناء هذه المناظرة ، أن هناك لبسا يحيط بمفهومىَ العمل الحر والوظيفة . فالعمل الحر فى رأيى هو النشاط الذى يمتلكه الممارس له ، أو أنه العمل الذى ينتهى بانتهاء القيام به وإنجازه ، أو أنه العمل الذى يتحدد بمدة معينة يمكن تجديدها ويمكن فسخ التعاقد بعدها ، وفى ضوء هذه المفاهيم الثلاثة للعمل الحر ، فإن السبّاك الذى يضطلع بمقاولة معينة بإحدى العمارات يكون نشاطه ضمن الأعمال الحرة . وكذا الطبيب الذى يكلّف بالكشف على أحد المرضى وينتهى عمله بانتهاء الكشف عليه ، يكون نشاطه ضمن الأعمال الحرة . وكذا الحال بالنسبة للمدرس بإحدى المدارس الخاصة الذى تتعاقد معه

المدرسة للتدريس لمدة عام دراسى واحد ينتهى بعدها التعاقد بينهما ، أو يكون قابلا للتجديد لعام دراسى آخر بشرط موافقة الطرفين . فعمل هذا المدرس يقع ضمن الأعمال الحرة . وأى موظف بأى شركة أو مؤسسة ، يتعاقد معها للعمل بها لمدة معينة يفسخ بعدها العقد أو يجدد ، إنما يكون عمله منخرطا فى نطاق الأعمال الحرة . أما الموظف الذى يتم تعيينه بإحدى الوزارات ، ولا ينص فى خطاب تعيينه على مدة تنتهى خدمته بعدها إلى أن يحال إلى المعاش ، فإن نشاطه الذى يضطلع به يعتبر وظيفة . وأنا ضد التوظيف بهذه الصورة ، لأن احساس الموظف بالديمومة ، يحيله إلى شخص كسلان ولا يطمح إلى بذل كل ما لديه من طاقة فى عمله . وكذا فإن المؤسسة الحكومية التى يعمل بها تحس أن صاحبنا قد فرض عليها فرضا ، وأنها صارت كفيلة به حتى بلوغه سن المعاش . فسواء كان شخصا كفئا فى عمله ، أم كان بليدا ، فإنها لا تستطيع أن تستبعده لتحل محله من هو أكفأ منه . وبالتالى فإن المؤسسات الحكومية التى تأخذ بنظام التوظيف تتسم بالركود نتيجة هذين العاملين : عامل تواكل الموظفين ، وعامل عجز المؤسسة الحكومية عن التخلص من البلداء والمهملين فيها من موظفين . ومن جهتى ، فإنى أرغب فى مناشدة الشباب للاتجاه إلى الأعمال الحرة التى تتضمن النوعيات الثلاث التى قمت باستعراضها ، وألا ينخرطوا فى سلك الوظائف الدائمة ، لأنهم بانخراطهم فيها ، يحكمون على أنفسهم بعدم التقدم ، ولا تتاح لهم الإفادة من الفرص التى يمكن أن تتوافر حولهم فى المؤسسات الحرة ، بل إنهم لا يستطيعون التخلص من وظائفهم المؤبدة حتى سن المعاش .

المعارض : الواقع أن ما ذكرته من تعريف للعمل الحر بهذه الزوايا الثلاث ، أعنى أن يكون المرء صاحب العمل من أوله إلى

Looloo
www.dvd4arab.com

اخره ، وأن يكون المالك له مالياً وإدارياً ومهارياً ، أو أن يكون التعاقد بين المرء وبين الزبون بإزاء عملية محددة ينتهي التعاقد بعد الانتهاء منها ، أو أن يكون التعاقد في حدود مدة معينة يلغي التعاقد بعدها أو يجدد بين الطرفين وبرضائهما ... أقول إن ما ذكرته يوضح الصورة تماماً ، ولكن ألست معي في أن هذه الزوايا الثلاث للعمل الحر متعذرة أو حتى مستحيلة التحقق بالنسبة لمعظم الشباب ، وأنها ليست لصالح العمل نفسه . فمثلاً بالنسبة لامتلاك العمل من أوله إلى اخره ، فإن مجرد إحراز الملكية لا يعني إحراز المهارات التي يمكن أن نستثمر بها تلك الملكية . فلقد يرث أحد الشباب ورشة أبيه ، ولكنه لم يكن قد تمرس بالمهارات التي تتطلبها تلك الورشة ، فامتلاكه لها لا يقدم ولا يؤخر . فهو إما أن يبيعها لمن يستطيع تشغيلها ، وإما أن يعيث بها ويستغله المحنكون من العمال فيمتصون معظم ما تدره من دخل .

أما بالنسبة للتعاقد على عمليات معينة وينتهي التعاقد بعد تنفيذها ، فإن الكثير من التعاقدات من هذا النوع تفضي إلى الفشل المحقق بالنسبة لمستوى انجاز العمل . فالعمارات التي تنهار في أثناء تشييدها ، أو بعد اقامتها بفترة قصيرة ، تكون في الغالب قد شيدت بهذا النوع من التعاقدات الشيئية ، أعني الاتفاق على انجاز عمليات بعينها ، ينصرف العمال بعدها . فتنهار العمارة وتضيع المسؤولية مع انصراف المشتركين في بنائها . أما بالنسبة للنوع الثالث من الأعمال الحرة ، وهو التعاقد لمدة محددة كأن تكون عاماً دراسياً واحداً بالنسبة للمدرسين ببعض المدارس الخاصة ، فإنه لا يوفر الشعور بالانتماء في قلوبهم تجاه مقر عملهم ، وبالتالي فإن المشتغل بهذا النوع من التعاقد ، لا يحس بحب المؤسسة التي يعمل بها ، بل يحس بصفة دائمة أنه غريب عنها ، وأنها غريبة عنه ، وبالتالي فإنه لا يتفانى في

خدمتها ، بل يترقب الوقت الذي سوف ينصرف فيه عنها إلى غيرها من مؤسسات ، وإذا كان هذا هو حال الغالبية العظمى من الموظفين بتلك المؤسسة ، فإن الترابط فيما بينهم يكون شبه مستحيل بالتأكيد .

المؤيد : الواقع أن ما تفسر به العلاقات التي تنشأ بين الناس بعضهم وبعض في العمل الحر ، مفعم بالتشاؤم . فما تزعمه من أن عدم الالتزام بالاستمرارية في المؤسسة التي يعمل بها المرء ، يؤدي إلى انعدام الضمير ، افتراض في غير محله على الإطلاق . فالشخص منعدم الضمير أو المهمل في عمله ، يكون منعدم الضمير ومهملاً ، سواء اشتغل بالقطعة وبشكل مؤقت ، أم اشتغل في وظيفة تتصف بالديمومة حتى سن المعاش . ولكن من المؤكد أن الشخص الذي يعمل بالقطعة وبطريقة مباشرة مع الزبون فيما يعمله ، يكون في الغالب بادلاً أقصى جهده لكي ينال الرضى ، فيستدعيه ذلك الزبون للعمل معه في المرات التالية التي يحتاج إليه فيها . وكذا الحال بالنسبة للشخص صاحب العمل والمالك له من أوله إلى اخره . فهو في الغالب يكون حريصاً على سمعته الطيبة عند زبائنه ، كما يكون حريصاً على ازدهار عمله اكثر فأكثر ، فيحاول إرضاء الزبائن الذين يتعاملون معه . ولكن هذا لا يستبعد الاستثناءات المتمثلة في أصحاب الأعمال الذين لا ضمير لهم ، ولكنها استثناءات قليلة بالطبع .

المعارض : على أية حال فمما لا شك فيه أن الشاب والشابة حديثي التخرج في المعهد أو الكلية ، لا يكونان على مستوى من الخبرة تسمح لهما بخوض غمار العمل الحر بأي صورة من الصور التي عرضت لها . فهما في المعهد أو الكلية قد اعتادا على أن يقادا ، وأن يؤمرا فيطيعا ، أو قل إن التربية عندنا بشكل عام بدءاً بالطفولة ومروراً بالمراهقة والشباب ، ترتكز على قاعدة أساسية ، هي قاعدة

Looloo
www.dvd4arab.com

الطاعة العمياء . فكيف تطلب من شخص اعتاد على أن يؤمر فيطيع طوال حياته السابقة منذ ميلاده حتى لحظة تخرجه وانخراطه فى الحياة العملية ، أن يسوس حياته ويسيّرها ، فيكون هو المخطط لنفسه ، والمنفذ لخططه التى يضعها ، والرقيب على ما يضطلع به من خطوات تنفيذية ، والمقيم لما أنجزه بالفعل من خططه التى وضعها لنفسه ، والمستشرف لما سوف يتلو خطواته التى نفذها من خطوات تاليه ؟ الواقع أنك تطلب المستحيل من الشباب ، عندما تحذرهم من الانخراط فى السلك الحكومى أو فى سلك التوظف بصفة عامة ، وتحملهم بما لا طاقة لهم به . فهل يتسنى للشاب والشابة أن يغيرا نمط حياتهما ، ويتلبسان بنمط حياة جديد ، أو حتى مناقض لنمط حياتهما الذى اعتادا عليه عبر مراحل عمرهما السابقة ؟

المؤيد : إذن فأنت تلقى اللوم على التربية التى يخضع لها الناس منذ بواكير حياتهم إلى أن ينخرطوا فى الحياة العملية . وأنا برغم اتفاقى معك بإزاء هذه الحجة ، فإنى لا أتفق معك على أنها عقبة كأداء لا سبيل الى التغلب عليها . فتغيير نمط العلاقة بين الكبار والصغار عبر مراحل نموهم بدءا بالطفولة ومرورا بالمراهقة والشباب ، ليس من المستحيلات . فبكل بساطة أقول لك إن من الممكن أن تقوم وزارة الشوون الاجتماعية ووزارة الثقافة ووزارة التربية والتعليم بعقد مؤتمر مشترك يعلن بعده عن الاتفاق على وثيقة خاصة بحقوق الصغار ، وفيها يعلن على الملأ أن فلسفة التربية التى تعتمد على قاعدة الأمر والطاعة العمياء ، ليست هى الفلسفة التى ينبغى أن تراعى فى ممارسة التربية ، سواء فى نطاق الأسرة أم فى نطاق المدرسة والمعهد والكلية ، بل يجب أن تنزاح هذه الفلسفة بعيدا عن نطاق التطبيق ، وأن تحل محلها فلسفة أخرى جديدة ، هى فلسفة الاعتماد على النفس .

ومجابهة الحياة ، أو بتعبير اخر تطبيق ما نادى به كثير من المربين فى مصر والعالم الغربى والعالم الشرقى باليابان وغيرها ، بأن تكون التربية جزءا لا ينفصل عن الحياة كما هى ممارسة بالفعل فى أبهى صورها ، وأن يكون التدريس بالمدارس والمعاهد والكليات على أساس تعاقدى ، أعنى أن يتعاقد المدرس مع التلميذ أو الطالب ، على انجاز مجموعة من العمليات أو الأنشطة ، بحيث يضفى عليها طابع شخصيته . وبتعبير اخر فإن الشاب أو الشابة يكون قد تمرن على الحياة منذ طفولته ، ولا يظل كما هو الشأن حاليا بمثابة اسفنجة تمتص ما حولها من سوائل ، أو بمثابة جهاز تسجيل يسجل عليه ما يصل اليه من أصوات . وبتعبير موجز فإن التربية المرتجاه هى التربية التى تحل فيها الإرادة محل الذاكرة .

المعارض : على الرغم من تقديرى لكلامك ، فإنى أعتقد أنه كلام نظرى بعيد عن الواقعية ، وأنه صعب التنفيذ جدا ، إن لم يكن مستحيل التنفيذ . فأنت تعلم أننا قد ورثنا تراثا اجتماعيا وحضاريا معقدا كأشد ما يكون التعقيد ، ومغروسا فى قوامنا النفسى كشعب بعمق بعيد الأغوار للغاية . فتغيير ما ورثناه منذ قدماء المصريين حتى اليوم ، من الصعوبة الكأداء بمكان . فالمسألة ليست مسألة وثائق تعلن على الملأ بعد عقد مؤتمر أو مؤتمرات . فأنت تعلم أن هناك وراثة بيولوجية على هيئة شفرات فى قوامنا البيولوجى ، تحمل معها خبرات الأجيال السابقة جميعا . فالمسألة ليست إذن مسألة تراث ثقافى فحسب ، بل هى مسألة معقدة للغاية ، يجمع بين التراث الثقافى وبين الوراثة الخبرية التى نبه الى وجودها كارل يونج C G . Jung. (ولد عام ١٨٧٥) تلميذ فرويد بقوله باللاشعور الجمعى المجاور والمتفاعل مع اللاشعور الفردى . فالمرء لا يحمل خبراته الشخصية المنسية فى

Looloo www.dvd4arab.com

لاشعوره الفردى فحسب ، بل يحمل أيضا فى لاشعوره الجمعى ، خبرات أسلافه المنسية ، والتى تلعب دورا مستخفيا فى حياة الفرد وفى حياة الجماعة على السواء . فإذا كان تغيير مقومات اللاشعور الفردى من الصعوبة بمكان ، برغم محاولات المحللين النفسيين لسبر أغواره والسيطرة عليه ، فما بالك بمحاولة تغيير مقومات اللاشعور الجمعى وتعديلها ، وكيف أن ذلك من المستحيلات تقريبا .

المؤيد : إنك تحتج بنظريات علم النفس التى لا أومن أنا شخصيا بها ، وذلك لأنى لا أومن إلا بالإرادة الفردية . فالفرد وليس المجتمع هو المنوط بالتغيير . فأئمة علماء النفس تبحثون فى أغوار دخيلة المرء ، ولكننا نحن المتحررين من قيود أبحاثكم العميقة والغامضة ، لا نؤمن إلا بما يريده الواحد من الناس أن يضطلع به ، فيفرضه على الواقع من حوله فرضا ، فيكون متغلبا بذلك على جميع الصعاب التى تعترض طريقه . فبالإرادة الصلبة ، يمكن تحطيم جميع الحواجز النفسية التى تزعمون سيطرتها على مقدرات المرء ، وعلى ذهنه ووجدانه وإرادته . وبالإرادة الشخصية الصلبة ، يتسنى له أن يشق طرقا حياتية جديدة غير مسبوقة ، وبها يتسنى له أيضا أن يغير ما اعتاد عليه من أشكال سلوكية متباينة . فبينما تعتقد أنت أن دخيلة المرء تسيطر على خارجيته ، فأنا أعتقد أن خارجية المرء هى التى لها السيطرة والسلطان على دخيلته . فمن الممكن بالنسبة للشخص الذى اعتاد على الطاعة العمياء منذ نعومة أظفاره إلى أن تخرج فى المعهد أو الكلية ، أن يحطم الصنم السلوكى الذى اعتاد أن يسجد له ، وأن يتحرر من سطوته عليه ، بل وأن يشق طريقه نحو الحرية بكل معانيها وأنحائها . فهو يستطيع أن يشتغل فى الأعمال الحرة ، وأن يستهدى بأخطائه ، بل وأن يتحسس طريقه نحو النجاح إلى أن يكتشف

آفاقا جديدة لم يكن قد اكتشفها من قبل ، فيثبت لنفسه وللعالم من حوله أنه بالإرادة الصلبة يستطيع أن يمارس العمل الحر ، دون أن يقع فى قوقعة الخبرات غير المواتية التى كبلته ، أو التى كبل هو بها شخصيته ، فحالت بينه وبين شق طريقه فى الحياة الفسيحة التى يمارس فيها أعماله الحرة ، وينشئ بها مشروعاته المبتكرة كما يشاء .

المعارض : وحتى إذا أنا سكت بإزاء ما تقول به بالنسبة للغض من قيمة علم النفس ومكتشفاته المتعلقة باللاشعور الشخصى واللاشعور الجمعى ، فإن ما لا أستطيع أن أغض النظر عنه هو ما يعتمل فى الواقع الخارجى من صعاب جمة ، ومشكلات وسدود خطيرة . وحتى إذا أنا وافقتك على ما تقول به من قوة الإرادة وفاعليتها فى حياة الشاب والشابة ، فهل قوة الإرادة تكفى وحدها لممارسة العمل الحر دون الحصول على الخبرات المتعلقة بالتعامل مع الواقع الخارجى ؟ فهل يستطيع الشاب الذى تخرج فى كلية التجارة ودرس فيها المحاسبة والعلوم التجارية المتباينة بعمق ودراية نظرية ، أن يسبر الحياة الواقعية ، فيشارك فى صفقات تجارية ناجحة ؟ الواقع أن النظرية مباينة للتطبيق ، والعلم مباين للعمل ، وسياسة المرء لذاكرته مباينة لسياسة إدانه ، وتعامل المرء مع الكتب والمراجع مباين تباينا تاما لتعامله مع الأصدقاء والأعداء فى مجالات الحياة وأنشطتها ، واعتياد التعاون مع الزملاء بالدراسة مباين للتعامل مع المنافسين له فى السوق ، إلى آخر تلك التباينات الكثيرة فيما بين الحياة بالمعهد أو الكلية وبين الحياة العملية فى الواقع الاجتماعى . فمن الظلم أن تطالب الشاب الأعجف ، والخاوى من الخبرات الواقعية العملية ، بأن يستحيل إلى متمرس بالحياة ، وسابر لأغوارها ، ومتمكن من تسيير دفة العمل الحر بها .

Looloo
www.dvd4arab.com

المؤيد : ليس هذا من الظلم فى شىء . فالحياة فى الواقع لا تمارس إلا عن طريق المحاولة والخطأ . ولكن نقطة انطلاق للمحاولة الأولى ، فإن على المرء أن يعتمد على ما سبق أن حصّله من علوم ومناهج عقلانية يقوم بتوظيفها فى مواقف الحياة المتباينة . ولكن نقطة الانطلاق هذه لا تضمن النجاح بغير وقوع فى أخطاء . ولكن المهم أن يفيد المرء من أخطائه ، وأن يكتشف طريق الصواب فيتّبعه ، وأن يكتشف طريق الخطأ فيجتنبه . وباختصار نقول إن التمرّس بالحياة ، لا يسير فى خط مستقيم ، بل يسير فى خط متعرّج . ولكن لكى يتجنب المرء التعرض لخسائر كبيرة ، فإن عليه أن يبدأ بالمشروعات الصغيرة ، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً منها ، الى المشروعات الأكبر فالأكبر ، إلى أن يتأكد من أنه قد تخلّص من الأخطاء الخطيرة . وبالمناسبة نقول إن الخبرات البشرية فى مجال الأعمال الحرة تنقسم إلى نوعين : نوع عام ، ونوع آخر فردى أو خاص . فبينما تكون هناك خبرات يشترك فيها جميع المشتغلين بالأعمال الحرة ، فإن كل واحد منهم يختص بخبرات فردية خاصة به . وكثير من المشتغلين بالأعمال الحرة ، يعتبرون تلك الخبرات الفردية أسراراً يخفونها عن جميع الناس حتى عن أقرب الناس إليهم . وحتى إذا هم أعلنوها على الملأ . فإن الواقع أنها لا تقبل التعميم لأنها خبرات فردية ، أو هى خلاصات خبرية شخصية لها صفة الفردانية التى لا تتكرر بين الأشخاص المتباينين المشتغلين بنفس تلك الأعمال الحرة .

المعارض : وحتى إذا أنا وافقتك على ما ذكرته ، فهل دعوتك للشباب للإقلاع عن الوظائف بالحكومة والمؤسسات العامة والخاصة ، يعنى هجر تلك المؤسسات الحكومية والخاصة فلا يشتغلون بها ؟ وهل يعنى هذا أن من يشتغل بالحكومة أو القطاع الخاص ، هو

شخص ضل طريقه فى الحياة ، وانحرف عن الجادة ، وأولى به أن يبادر بترك وظيفته وأن يلجأ إلى الإشتغال بالعمل الحر ؟

المؤيد : أنا لا أعتقد ذلك ، ولكنى أعتقد أن الكثير جداً من الهيئات الحكومية يجب أن تستحيل إلى النظام الذى ينهج القطاع الخاص وفقه ، أو قل إن الوزارات والمصالح الحكومية والشركات يجب أن تستفيد من خبرات الأعمال الحرة ، وأن تتخلص من التقاليد الحكومية ، وبخاصة التقليد الخاص باستمرار الموظف منذ تعيينه حتى إحالته إلى المعاش فى العمل مهما كانت كفاءته أو مثابرته على العمل ، ومهما كانت انتاجيته ، مع استمرار ما يحصل عليه من علاوات وترقيات بالأقدمية المطلقة . فكلما تحررت المؤسسات الحكومية والشركات من القيود المتعلقة بالتعيين والفصل من العمل ، فإنها تكون بذلك أكثر دينامية فى تحقيق أهدافها التى وجدت من أجل تحقيقها . وبتعبير موجز فإن تلك المؤسسات ، يجب أن تستحيل إلى قطاعات خاصة لا يحس أى شخص فيها بأنه مؤبّد بها حتى بلوغه سن المعاش . فإذا كان الوزير نفسه يتغير مع استقالة الوزارة ، أفلا ينطبق هذا على جميع المشتغلين تحت إمرته من أكبرهم حتى أصغرهم مكانة . فسياسة الحركة المستمرة بالتعيين والفصل من العمل ، وبالترقى والتنزيل إلى وظائف أقل مقاما ، هى السياسة التى تضمن استمرار دينامية العمل بتلك المؤسسات الحكومية بغير توقف . فالوضع الحالى يشبه الماء الراكد الذى يأسن ، ولكن إذا ما اتبع النظام الدينامى الذى أنادى به وأحبذه ، فإن تلك المؤسسات تصبح كالنهر الجارى الذى يتجدد ماؤه باستمرار ، فيظل ماء نقيا نظيفا من أى تلوث أو ركود .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

المناظرة السابعة

هجرة الشباب إلى أمريكا واستراليا ، استثمار فى أسواق العمل العالمى لطاقات بشرية معطلة ، وتصدير للقوى العاملة الزائدة عن حاجة البلاد .

المؤيد : من الحقائق التى لا تحتاج إلى برهان ، أن سوق العمل بالداخل ، قد اكتظ بالعاملين به ، مما أدى إلى بزوغ مشكلة كأداء ، هى مشكلة البطالة الصريحة والبطالة المقنعة . ذلك أن جهات العمل صارت مزدحمة بالموظفين الزائدين عن الحاجة ، مما يشكل عاملاً خطيرا فى تعطيل العمل بتلك الجهات المختلفة . فبدلا من تزايد المشكلة تفاقما واتساع رقعة البطالة فى البلاد ، فإن فتح باب الهجرة إلى أمريكا واستراليا وغيرهما من بلاد المهجر ، صار يشكل أحد الحلول الهامة ، للتخفف من حدة أزمة البطالة ، وما قد ينجم عنها من مشكلات اجتماعية كثيرة ، ومن ارتكاب للجرائم المتباينة ، وانتشار الإرهاب وغير ذلك من جرائم تهدد أمن المواطنين ، وتعمل على الحد من استقرار البلاد ، وتهدد بحدوث اهتزازات سياسية خطيرة لا تحمد مغبتها .

المعارض : الواقع أن نظرتك إلى مسالة الهجرة بعيدة عن الصواب . وشأن المهاجر فيما ذهبت إليه ، شأن الرجل الغنى الذى لا يعرف كيف يستثمر أمواله التى تكدست لديه ، فلجأ إلى بعثرتها يمينا ويسارا بغير ما هدف سوى أنه يرغب فى التخلص من تلك

الأموال التى تملأ خزائنه بغير استثمار فتضايقه ، مما حمله على أن يلجأ إلى حيلة رعناء ، وهى بعثرتها فى البحر أو فى الصحراء بعيدا عن الأنظار ، مع أن جيرانه ومواطنيه فى أشد الحاجة إلى تلك الأموال . ولكنه بدلا من إنفاقها على الفقراء . فإنه أخذ فى بعثرتها والإلقاء بها فى البحر أو فى الصحراء ، حتى يتخفف من ثقلها من جهة ، وحتى لا يفيد أحدا بها من جهة أخرى .

المؤيد : إنك ذهبت شططا يا عزيزى فى هذا التشبيه الذى انتحيت إليه . فأنت تشبه من يشجع هجرة الشباب إلى أمريكا أو إلى استراليا أو إلى غيرهما من بلاد المهجر ، بمن يلقى بأمواله المكدسة التى لا يعرف كيف يستثمرها فى البحر أو فى الصحراء . فهل تعتقد أن من نسمح بهجرتهم يضيعون فى تلك البلاد كما تضيع الأموال فى البحر أو الصحراء ؟ الحقيقة أن الغالبية العظمى من المهاجرين إلى تلك البلاد ، قد نجحوا فى شق طريقهم هناك . ولعلك تسمع وتقرأ عن أخبار الكثيرين منهم الذين نبغوا فى شتى المجالات العلمية والأدبية والاقتصادية ، فصاروا شخصيات عالمية نفخر بهم ، وقد أعلوا شأن وطننا فى تلك البلاد التى هاجروا إليها .

المعارض : إنك تعلم أن المهاجر يحصل على جنسية الدولة التى يهاجر إليها . فهو لم يعد من الرعايا المصريين ، بل صار من رعايا تلك البلاد الأجنبية . وبالتالى فلا يحق لك أن تنسبهم إلى بلادنا بعد أن خلعوا عن أنفسهم هويتهم المصرية ، وتلبسوا بهوية أخرى أجنبية . فهم قد صاروا أجانب عنا ، ولا يحسبون ضمن مواطنينا ؟ وأكثر من هذا فإن انتماءهم إلى بلادنا يأخذ فى الانقشاع شيئا فشيئا ، أو حتى لقد يكون قد انقشع بالفعل فى اللحظة التى ركبوا فيها الطائرة إلى تلك البلاد البعيدة عنا جغرافيًا وثقافيًا واجتماعيًا . وكيف يظل

Looloo
www.dvd4arab.com

انتماؤهم كما هو ، وقد انقطعت بهم الصلات ، ولم يعودوا مخالطين لنا ، أو متفاعلين مع واقعنا ، بل صاروا مخالطين ومتفاعلين مع المجتمعات التى نزحوا إليها ؟

المؤيد : انك تنظر إلى المسألة من زاوية خاطئة تماما . فالمهاجر برغم أنه يحصل على جنسية القطر الذى يهاجر اليه ، فإنه لا يتنازل عن جنسيته المصرية . فهو برغم حصوله على الجنسية الأمريكية أو الأسترالية مثلا ، فإن جنسيته المصرية تظل قائمة ، وتظل حقوقه وواجباته كمصرى نابضة بالحياة . ولعلك تعلم أن للكثير من المهاجرين المصريين ممتلكات هنا فى مصر ، بل ولهم مشاريع اقتصادية يديرونها بوكلاء عنهم ، ويدعمونها بالمال والخبرة وهم فى بلاد المهجر ، بل انهم يحضرون من وقت لآخر لمباشرة تلك المشاريع ويعملون على ترسيخها والتطور بها فى ضوء التطورات العلمية والتكنولوجيا العالمية . هذه واحدة ، أما أنك تقول إن انتماء المهاجر إلى مصر ينقشع شيئا فشيئا أو حتى لقد ينقشع بمجرد ركوبه الطائرة التى تقله إلى وطنه الجديد ، فأود أن أوضح لك حقيقة غائبة عنك ، وهى أن وسائل الاتصال الحديثة ، قد أحالت الكرة الأرضية إلى قرية صغيرة مترابطة للغاية . فبمجرد رفع سماعة التليفون فان أهل المهاجر إلى أمريكا أو استراليا يتصلون به فى التو واللحظة . ناهيك عن أجهزة الفاكس التى أخذت فى غزو الشقق فى مصر ، وهى بالطبع منتشرة بأمريكا واستراليا . ففى لمح البصر تصل الرسالة التى كتبها المرء بخطه . ناهيك عن سرعة الطيران التى تسمح بالسفر السريع للغاية من مصر إلى أى بقعة فى العالم ، ومن أى بقعة فى العالم إلى مصر . ولك أن تعلم أن مسألة الانتماء لم تعد انتماء حسيًا ، بل صار الانتماء انتماء معنويًا . وبتعبير آخر فإن انتماء

المصرى إلى مصر ، هو انتماء إلى تراثها وثقافتها وشعبها . فمن المؤكد أن حب المهاجر لبلاده لا يتزلزل بأى حال من الأحوال ، بل إن مصر تحتل مكان الصدارة فى قلبه . فهو يحن إليها ولا يستغنى عنها ، ولابد أنه يرتمى فى حضنها بين الفينة والفينة . ناهيك عن ارتباطه الوجدانى بأهله الذين تركهم فى مصر وهاجر بعيدا عنهم . فهو يعيش معهم فى أحلامه ، ويتذكر كل لحظة عاشها بينهم ، بل أقول لك إن ارتباطه العاطفى بأهله ـ وهو الغائب عنهم ـ يصبر أقوى مما كان ارتباطه بهم وقت أن كان يعيش بين ظهرانيهم .

المعارض : إنك تتحدث بلغة الشعراء ، وليس بلغة الواقعيين . فلو عرفت الحقيقة ، لما قلت ما قلته ، ولما ذهبت شططا على أجنحة الخيال ، فهل تعلم أن احتفاظ المهاجر بهويته المصرية لا يعنى شيئا بالنسبة له . وحتى عندما يقوم بزيارة مصر ، فإنه يفضل أن يزورها باعتباره شخصا أجنبيًا ، خوفا من أن يعاق فى الرجوع إلى البلاد التى هاجر إليها ، فاحتفاظه بجنسيته المصرية كاحتفاظك أنت بالأوراق القديمة التى تتكدس فى مكتبك ، ولا تفعل بها شيئا . فهى كم مهمل ولا قيمة لها على الإطلاق . أما ما تذكره عن الارتباطات العاطفية ، فإنها ارتباطات مؤقتة تذبل مع مرور الزمن . ولك أن تتساءل عن عدد المكالمات التليفونية التى يجريها المهاجر مع أهله فى السنة الأولى لهجرته ، وتقارنها بعدد المكالمات التى يجريها خلال السنة الثانية ، ثم خلال السنة الثالثة ، فالرابعة فالخامسة فالسادسة ... الخ . إنك سوف تدهش إذ تجد أن تلك الاتصالات تأخذ فى القلة شيئا فشيئا إلى أن تنقطع تماما بعد بضع سنوات . وحتى المكالمات التليفونية التى يجريها المهاجر فى السنة الأولى ، لا تحمل سوى عبارات نمطية عن الشوق العميق والسؤال عن الصحة وعن الأقرباء

Looloo
www.dvd4arab.com

والجيران ، ثم تقتصر فى المرات التالية على ذكر الأخبار الهامة إذا وجدت ، دون الدخول فى التفاصيل ، وذلك خوفا من ارتفاع فاتورة التليفون التى تحسب المكالمة المسجلة بها بالدقيقة أو بالثانية . ولعلك تعلم أن العلاقات الاجتماعية تخضع لقانون الهدم والبناء . فكما أننا نقيم علاقات اجتماعية مع أشخاص لم تكن بيننا وبينهم أى علاقات سابقة ، فإننا بالمثل نهدم علاقات اجتماعية قائمة بيننا وبين بعض الأشخاص . فالمهاجر يقيم علاقات اجتماعية جديدة حيث يعيش ويتعامل ، بينما يهدم لا شعوريًا علاقاته الاجتماعية القديمة التى كانت تربطه بأقربائه وأحبائه فى مصر . وأنت تعرف بالتأكيد المثل المصرى الذى يقول " البعيد عن العين بعيد عن القلب " ، أى أن البعيدين عن المشاهدة والذين لا يتعامل معهم المرء ، تتقشع الرابطة القلبية بهم . أضف إلى هذا أن الخبرات التى يكتسبها المهاجر فى المهجر تتباين شيئا فشيئا عن الخبرات التى سبق له أن اكتسبها وهو فى مصر . وبتعبير آخر فإن المهاجر يصير غريبا غربة نفسية وأخلاقية عن الشائع بمصر من اتجاهات نفسية ومن عادات وتقاليد وقيم أخلاقية .

المؤيد : أنا أوافقك على أن هناك تأثيرا فى مدى اكتساب المهاجر لخبرات جديدة من المجتمع الجديد الذى يرحل إليه ، ولكنى لا أوافقك على أن تلك المكتسبات الجديدة ، تعمل على طمس ما سبق له كسبه فى وطنه مصر منذ أن فتح عينيه على الدنيا واستمرارا عبر مراحل عمره التالية ، إن كلامك هذا يمكن أن يصح بازاء الأطفال الذين هاجروا مع والديهم إلى بلاد المهجر ، ولكنه لا يصح على الإطلاق بازاء الوالدين . فهل من المعقول أن الروابط العاطفية التى ربطت الابن أو البنت بأسرتها تتقشع وتخفت وتموت بسبب البعد مهما

طالت مدته ؟ ألا تعلم أن خبرات الطفولة والمراهقة والشباب تترسخ فى قوام المرء ؟ وألا تعلم أن مكتشفات مدرسة التحليل النفسى بزعامة فرويد ويونج وأدلر قد أكدت أن ما يكتسبه المرء فى طفولته يعتبر الأساس الراسخ فى بناء الشخصية ، وأن المكتسبات السلوكية التى يحرزها فى مراحل العمر التالية تأخذ فى الضعف شيئا فشيئا . وبتعبير آخر فإن ما يكتسبه المرء فى طفولته أقوى مما يكتسبه فى مراهقته ، وأن ما يكتسبه فى مراهقته أقوى مما يكتسبه فى شبابه ، وأن ما يكتسبه فى شبابه أقوى مما يكتسبه فى كهولته ، وأن ما يكتسبه فى كهولته أقوى مما يكتسبه فى شيخوخته ، إذا ما قيض له أن يظل على قيد الحياة حتى الشيخوخة .

المعارض : اسف لأنك تناولت المسألة من زاوية اكتساب الخبرات الجديدة ، ولم تتناولها من زاوية النسيان . أفلا تعلم أن النسيان يتزايد حدة كلما تقدم المرء فى العمر ، بمعنى أن النسيان فى الشيخوخة يزيد عن النسيان فى الكهولة ، وأن النسيان فى الكهولة يزيد عنه فى الشباب ، وأنه فى الشباب يزيد عنه فى المراهقة ، وأنه فى المراهقة أزيد من الطفولة . ومعنى هذا أن المهاجر فى الطفولة يتزايد نسيانه كلما تقدم فى مراحل عمره التالية بنسب متزايدة . وأنه فى الشباب يتضاعف نسيانه لأهله وذويه أكثر فأكثر كلما تقدم به العمر ؟

المؤيد : إن ما تذكره بازاء النسيان مشروط بعدم دعم الذاكرة باستمرار بالوقائع أو الأحداث ، ولكن إذا كان الدعم متوافرا ومتواترا بالاتصالات المستمرة بين المهاجر وبين أهله ، ووقوفه باستمرار على أخبارهم وأحوالهم ، فلا يكون هناك محل إذن لحدوث النسيان . ولكن إذا انقطع المرء تماما عن بلده وعن أهله ، فإن النسيان يشتد أكثر

Looloo
www.dvd4arab.com

فأكثر كما تقول . ولكن فى ضوء التدفقات التكنولوجية المستمرة ، وسرعة الاتصال والمواصلات المتضاعفة كما تعلم ، وما سوف يستجد من وسائل اتصال ومواصلات أكثر سرعة ودقة فى المستقبل القريب ، فإن نسيان المهاجر لأهله أو نسيانهم له ، سوف يكون مستحيلا .

المعارض : ما علينا ، فلنترك مسألة الروابط العاطفية وما إذا كانت ستقوى أم ستضعف فى قلب المهاجر وفى قلوب من تركهم خلفه من أقرباء وأصدقاء فى مصر ، ولنتناول نقطة هامة أخرى ، وهى تتعلق بما يمكن أن يعود على مصر من فوائد أو من خسارة ، نتيجة هجرة الشباب إلى بلاد المهجر . فأنا أعتقد أن الشاب أو الشابة المهاجرين ، قد كلفا الدولة آلاف الجنيهات منذ ميلادهما حتى اللحظة التى يهاجران فيها . فلو قمنا بحساب النفقات التى أنفقت على من هاجر من الشباب ، ومن سوف يهاجرون منذ أن ولدوا حتى لحظة هجرتهم ، إذن لوجدناها تبلغ آلاف المليارات من الجنيهات . وهذا بالطبع يشكل خسارة اقتصادية خطيرة لمصر ، بينما يشكل ربحا هائلا تجنيه الدولة التى يهاجر إليها الشباب وتتسلمهم جاهزين للعمل بعد تخرجهم فى الجامعات المصرية . ناهيك عما يمكن أن تحسبه أنت من خسارة مالية كبيرة إذا ما قمت بتقييم ما سوف تنتفع به الدولة الأجنبية من عمل وعرق وإنتاج أولئك الشباب ، علما بأن أمريكا وأستراليا وغيرهما من بلاد المهجر لا تقبل أى شخص كائنا من كان ليهاجر إليها ، بل تنتقى أفضل العناصر ذكاء وعلما وثقافة ولياقة بدنية وأكثرهم فائدة وإنتاجية . وبتعبير آخر فإن هجرة الشباب من مصر ، معناه فقدانها لمليارات الجنيهات التى لا يمكن حصرها لكثرتها . أما العائد من تلك الهجرة ، فهو لا شىء على الإطلاق ، أو أنه لا يعدو

الفتات الذى يرسله المهاجرون إلى أسرهم فى مصر إذا كانوا فى حاجة إلى ذلك الفتات .

المؤيد : إنك فى الواقع تنظر من زاوية خاطئة إلى هذه المسألة ، فالمهاجر الذى يعمل بالدولة التى يهاجر إليها ، يحصل على دخل نظير عمله هناك . فهو بدلا من أن يظل فى مصر فى حالة بطالة وتسكع على نواصى الشوارع ، أو أن ينضم إلى عصابة من العصابات الإجرامية بسبب ضيق ذات اليد ، وشعوره بالإفلاس النفسى والمادى ، فإنه يجد فى المهجر العمل الذى يربح من خلاله . ناهيك عن أن أسرته فى مصر لا تظل تنفق عليه لأنه لا يجد عملا يرتزق عن طريقه ، فهى تحس بأنها قد أنجبت شخصا يعول نفسه بنفسه فى البلد الذى هاجر إليه ، ولا يظل منتظرا لعدة سنوات كثيرة فرصة عمل غير مضمونة قد تتاح له أو لا تتاح . أليس معظم الشباب من الخريجين يظلون فى مصر لأكثر من عشر سنوات بلا عمل على الإطلاق وهم فى انتظار ما تتعطف عليهم به القوى العاملة لكى تعينهم بوظائف ، لا يكاد يكفى مرتبها لسد نفقاتهم لمدة أسبوع واحد ؟ فلماذا تصر على أن يبقى الشباب فى مصر عالة على أسرهم وعلى الوطن بالتالى ، ولا ترضى لهم أن يهاجروا إلى أمريكا أو إلى استراليا أو إلى غيرهما من بلاد المهجر لكى يلتقطوا رزقهم هناك بوفرة وسعة ، ولكى يتنسموا رحيق الحياة الرغدة هناك ؟ هل يتسنى لأى شاب من أى أسرة من أسر الطبقة الوسطى ، وقد بلغ عمره أكثر من ثلاثين عاما وتخرج فى الجامعة ـ أن يشترى شقة بأكثر من مائتين وخمسين ألف جنيه على الأقل ، أو أن يؤجر شقة ـ إن وجدت ـ بثلاثمائة جنيه فى الشهر ، بينما مرتبه الشهرى لا يزيد عن خمسة وسبعين جنيها ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

وهل يجرؤ شاب كهذا أن يتقدم لخطبة أى شابة ، وهو الذى لا يكاد يكفى نفقاته الشخصية بذلك المرتب الضئيل ؟

المعارض : كما سبق أن قلت لك ، فإن حل هذه المشكلة وأمثالها لا يكون بفتح باب الهجرة ، بحجة أن الهجرة استثمار بشرى ، بينما هى فى الواقع خسارة بشرية بكل المقاييس . لقد قلت لك إن بلاد المهجر تنتقى أفضل العناصر من البلاد التى يهاجر منها الشباب . وبتعبير آخر فإن تلك البلاد تستنزف الطاقات البشرية الممتازة من بلادنا ، بحيث لا يبقى لنا سوى الحثالة من الشباب . فبدلاً من الإفادة من الطاقات البشرية الممتازة التى لا تكاد تتوافر لدينا ، فإننا نتخلص منها ببساطة وبرعونة وغباء . أليس من المؤلم حقًا أن يهاجر الأطباء المبرزين إلى أمريكا لكى يعالجوا الأمريكيين ، ونحن شعب نئن تحت وطأة الأمراض الوبيلة التى تطحن الكثير جدًا من المصريين ؟ فأبناؤنا الأطباء يهاجرون إلى الأقطار المتقدمة جدًا فى مضمار الرعايا الصحية مع أنها ليست بحاجة إليهم لأن لديها وفرة من الأطباء ، ولكنها السياسة الاستعمارية التى تدأب على ممارسة الاستنزاف المستمر سواء للثروات الطبيعية أم للثروات البشرية وللكفاءات العلمية والتكنولوجية المتميزة حتى تظل بلادنا مطأطئة الرأس لها ، ولا تستطيع أن تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام .

المؤيد : أريد أن أسألك سؤالاً محددًا : هل بلاد المهجر التى تنعت ساستها بالمستعمرين ، هم الذين يطلبون إلى شبابنا أن يهاجروا إليها ، أم أن شبابنا هم الذين يتطلعون بشوق إلى الهجرة ، ويقدمون عليها بمحض إرادتهم ؟ وهل تعتقد أن بلدًا مثل استراليا تعتبر واحدة من بين الدول الاستعمارية ؟ أعتقد أن مسألة السياسة الاستعمارية التى تلوكها أنت وأمثالك ، قد صارت بمثابة شماعة تعلقون عليها كل شىء

تتضايقون منه أو تتبرمون به . وحتى أخطاؤنا التى نتورط فيها نبحث لها عن مستعمر نلصقها به . أليس هذا هو ما يسميه علماء النفس بالإسقاط projection ؟ أنا أرجو من كل قلبى أن نتخلص من عقدة النقص هذه ، بعد أن صرنا متحررين من كل ألوان الاستعمار منذ فترة طويلة .

المعارض : سواء كان الاستعمار قد ترسَّم سياسة تهجير الشباب إلى بلاد المهجر ، أم أن الشباب هم الذين يرغبون بمحض إرادتهم فى الهجرة ، ويسعون إليها بإرادتهم الحرة ، فإن النتيجة واحدة ، وهى أن صفوة الشباب والممتازين ، هم الذين يهاجرون إلى بلاد المهجر ، ويحرمون بلدهم الذى قام بتربيتهم ، من جهودهم فى مجالات العمل المتباينة لكى يردوا إليه الجميل بأن نشأهم تحت مظلته وألحقهم بالمدارس والمعاهد والكليات بالمجان . أليس المهاجر إذن شخصًا خان بلده وأهله وعشيرته ، وقد خلع جلده وأخذ يستعير جلد أهل البلد الذى هاجر إليه ؟

المؤيد : ليس هذا من الصواب فى شىء . فالواقع أن الروابط النفسية والاجتماعية والثقافية ، ما تزال معتملة وراسخة فى عقول وقلوب المهاجرين ، بل إن الغالبية العظمى منهم يحرصون على تعليم أبنائهم اللغة العربية ، ولدينا فى بلاد المهجر مكتبات تضم الكثير من الكتب العربية ، منها مكتبة الكونجرس بأمريكا التى تحرص على أن تضم بين أقسامها قسمًا كبيرًا للكتب العربية التى تصدر تباعًا فى مصر وفى غيرها من أقطار عربية . وحتى مؤسساتنا الدينية الإسلامية والمسيحية فى مصر وفى البلاد العربية ، حريصة على إنشاء المساجد والكنائس بدول المهجر ، حتى يظل المهاجر مرتبطًا بما نشأ عليه من معتقدات دينية . فإذا كنت تقصد أن المهاجر يفقد

Looloo
www.dvd4arab.com

انتماءاته ، فأنت مخطئ بالتأكيد ، بل الواقع أن كل واحد من المهاجرين يعتبر سفيرًا لبلده في تلك البلاد . فلا خوف من ذوبان المهاجرين إذن في شعوب تلك البلاد التي يهاجرون إليها . ولا تنس أن المهاجرين المصريين ينضم بعضهم إلى بعض ويشكلون مجتمعات خاصة بهم ، يمكن اعتبارها وطنا مصريًا مصغرا ، ولهم عمدة يرأسهم ويتحدث باسمهم ، ناهيك عن نشاط سفارتنا المصرية هناك وما توليه من اهتمام بمصالح المهاجرين المصريين ، ولا تتوانى عن أن تقدم إليهم الكثير من الخدمات الجليلة .

المعارض : إنك تبالغ في الواقع فيما تضفيه على الهجرة من مزايا ، وقد صورت المصريين المهاجرين إلى تلك البلاد الغربية عن وطنهم الأصلي ، بأنهم سعداء بهجرتهم ، وتناسيت ما يلاقيه الكثيرون منهم من ضياع ومن بطالة . وحتى ما يسدى لهم من بدل بطالة في حالة عدم العثور على وظائف هناك ، لا يكاد يكفيهم لسد احتياجاتهم الضرورية من مأكل وملبس ومسكن . والواقع أن الكثيرين ممن هاجروا ، يشعرون بالندم لأنهم هاجروا وتركوا بلادهم ، وقد أغراهم بعض الخبثاء هنا في مصر ، مصورين لهم أن تلك البلاد التي سوف يهاجرون إليها ، ستستقبلهم بالأحضان ، وأنهم سوف يجدون فرص العمل الكثيرة في انتظارهم ، ولكنهم يفاجأون بالبطالة المنتشرة على نطاق واسع هناك ، فلا هم ظلوا في مصر في انتظار دورهم للتعيين عن طريق القوى العاملة ، ولا هم وجدوا مبتغاهم في وظائف تقيهم شر الجوع والبرد في تلك الأقطار النائية . فهم لم يحوزوا إلا الشعور بتلك الغربة المضنية ، وقد صاروا بلا سند أو عزوة بعد أن هجروا أسرهم التي كانت تضمهم في عطف وتسمع لما يعبرون به عن آمالهم وآلامهم . فهم هناك في المهجر ، لا يجدون سوى وحشة

الغربة والضياع المادي والمعنوي معا . ولذلك فإن الكثيرين منهم قد استدانوا لكي يتسنى لهم الرجوع بخفي حنين إلى مصر بعد أن ذاقوا العذاب ألوانا ، والضنك أشكالا في المهجر .

المؤيد : أنا لا أنكر أن بعض المهاجرين من الشباب يحسون بالضياع وأن بعضهم قد قفلوا راجعين إلى مصر بعد اليأس والضنك . ولكن الواقع أن ما أحسوا به من ألم نفسي ، وما عانوا منه من فشل في المهجر صادر عن ذواتهم ، وليس عن الظروف التي يعتقدون أنها لم تكن مواتيه ، أو أنها لم تكن في غير صالحهم . فهذه الفئة من المهاجرين لم يعدوا أنفسهم الإعداد الكافي والضروري قبل الشروع في الهجرة لكي يلاقوا الظروف الجديدة والمجتمع الجديد الذي سوف ينخرطون فيه قبل رحيلهم إلى وطنهم الجديد بنجاح . فمثلا إذا لم يتمكن المهاجر من التحدث باللغة الإنجليزية والكتابة بها ، وهو مقبل على الهجرة إلى بلد لا تستخدم سوى اللغة الإنجليزية ، فإنه يفشل بالتأكيد في التعامل مع أهل ذلك البلد الجديد والغريب معا ، ولا يستطيع أن يتكيف معهم ، أو أن يتعايش مع مجتمعهم . ناهيك عن أن الكثير من الشباب المهاجرين قد اعتادوا بعض العادات في مصر طوال إقامتهم مع ذويهم . فهم اعتادوا الكسل والتواكل سواء في التفكير أم في الأداء ، كما ارتموا في حمأة العجز عن مواجهة المواقف الجديدة ، أو الانكفاء على الذات وعدم التعاون ، والعجز عن بذل الجهد المستمر لمدة طويلة ، أو العجز عن اكتساب الخبرات الجديدة إلى آخر تلك المقومات الشخصية التي تعتبر من المقومات الضرورية للنجاح في بلاد المهجر . ولكن على العكس من هذا ، فإنك تجد أن الأشخاص الذين استعدوا للهجرة بتسليح أنفسهم بالقدرات اللغوية والمهارية اللازمة للعمل هناك ، والذين درسوا أحوال البلاد

Looloo
www.dvd4arab.com

التى سوف يرحلون إليها ، والذين اكتسبت شخصياتهم العادات المناسبة للحياة هناك ، فإنهم نجحوا بعد أن هاجروا نجاحًا منقطع النظير .

المعارض : إذن أنت معى فيما قلته بالنسبة للمعذبين من المصريين فى بلاد المهجر . واعتقادى الراسخ ، هو أن هذه الفئة من المعذبين يشكلون الغالبية العظمى من المهاجرين . وما ذكرته عن الشخصيات الناجحة هناك ، يشكل نسبة قليلة جدًا منهم ، بل انك إذا قمت بمدارسة ما يعتمل شعوريًا ولا شعوريًا فى قلوب تلك الشخصيات الناجحة ظاهريًا ، أعنى أولئك الذين أخذوا وضعهم ماديًا هناك ، فإنك سوف تجد أنهم معذبون نفسيًا ، وغير راضين عما أقبلوا عليه من مغامرة ، وذلك بترك بلادهم ومسقط رأسهم ، ونزوحهم إلى تلك البلاد الغريبة . وشاهد ذلك ما تقرؤه فى طيات الكتابات الأدبية التى قام المهاجرون المصريون واللبنانيون وغيرهم من الأدباء العرب بإنتاجها ، وقد أفعموا بالحزن والكدر لفراق الأهل والأصدقاء ، مع ما يحسون به من حنين مرضى **home sickness** إلى مسقط رءوسهم . وبتعبير أدق ، فإن المهاجر يحس بالندم لأنه اتخذ تلك الخطوة المتهورة بأن هاجر وترك وطنه وأهله ، فصار بذلك غريبًا فى بلاد المهجر . وأكثر من هذا فإن الكثير من المهاجرين يحزنون حزنًا عميقًا ، عندما يجدون أولادهم الذين نزحوا بهم إلى البلاد الغربية وهم بعد أطفالاً ، قد تشربوا لغة تلك البلاد وعاداتها وتقاليدها ومعتقداتها ، فصاروا غريبين عنهم ، وقد نسوا اللغة العربية ، والتوت ألسنتهم ، وصاروا لا يتحدثون إلا بالإنجليزية ولا يفكرون إلا بها وعن طريقها . وهكذا ينشأ الصراع بين أولئك الأبناء والبنات وبين الأم والأب . فهم يعتبرون أن والديهم متخلفان وغير متحضرين ، وأنهما لا يمتان لهم بصلة ، إذ إنهما ينتميان إلى بلد لا يذكرون عنه شيئًا ، وقد هاجروا

منه وبعدوا عنه وهم بعدُ أطفال ، ثم تربوا فى تلك البلاد البعيدة ، حتى شبوا عن الطوق . وهيهات أن يؤثر فيهم الوالدان ، بعد أن انخرطوا فى ذلك المناخ الاجتماعى الغريب عن موطنهم الأصلى ، الذى نسوه تمامًا ، ولا يعلق بقلوبهم وعقولهم منه أى شىء .

المؤيد : إن ما تذكره بازاء الشعور بالاغتراب الذى يشيع بين الأبناء والبنات من جهة ، وبين والديهم من جهة أخرى فى بلاد المهجر بالأسر المصرية هناك ، إنما هو فى الواقع حقيقة نفسية لا يقتصر انتشارها بين أسر المهاجرين ، بل إنها منتشرة أيضا فى نطاق الأسر المصرية التى لم تهاجر ، بل ظلت باقية على أرض الوطن ، فالواقع أن التغيرات الحضارية والتكنولوجية متدفقة عبر العالم كله وفق متتالية هندسية تضاعفية سواء فى الخارج أم بالداخل ، أى أن تلك التطورات تتضاعف بين الفينة والفينة . وبينما يظل الآباء والأمهات على حالهم دون أن يتطوروا ودون أن يواكبوا تلك التطورات المستجدة بسرعة هائلة لا يلاحقونها ، فإن الأبناء والبنات يتسنى لهم ذلك لأن تفتحهم على الحياة أقوى مما صار إليه حال الكبار من حولهم . ذلك أن الكبار بوجه عام يرتبطون بالماضى من جهة ، وينشبثون بما اكتسبوه من خبرات خلال أعمارهم المبكرة وبخاصة خلال الطفولة والمراهقة من جهة أخرى . فهم لا يرضون أن يتماشوا مع تلك التطورات التى تتعارض مع مكتسباتهم الخبرية التى يحنون إليها وينشبثون بها ، ولا يرضون عنها بديلا . فلا تقل إذن إن الهجرة ونشأة الأبناء والبنات فى ربوع بلاد المهجر هما اللذان أحدثا تلك الفجوة بين الأبناء والبنات وبين الأب والأم . فلو أنك تتبعت الأوضاع فى مصر ، فإنك سوف تكتشف الحقيقة الغائبة عن ذهنك ، المتمثلة فى تلك الفجوة التى تزداد اتساعا بين الأجيال التالية ،

Looloo
www.dvd4arab.com

وبين الأجيال التى كبرت أو بعدت الشقة بينها وبين الناشئة من الأطفال والمراهقين والشباب .

المعارض : ولكن من المؤكد أنك لا تستطيع أن تنكر وجود واعتمال واحتدام الشعور بالغربة لدى الأسر التى هاجرت من مصر إلى تلك البلاد النائية التى تبعد عنا ، لا من الناحية الجغرافية فحسب ، بل أيضًا من الناحية الثقافية ، وما تأخذ به نفسها من قيم متباينة عن قيمنا ، أو حتى متضاربة معها . فمن الطبيعى أن يحدث شقاق نفسى فى سيكولوجية المهاجر الذى يحتدم الصراع فى قوامه بين القيم التى اكتسبها واعتاد عليها وهو فى مصر ، منذ نشأته طفلاً وعبر مراحل حياته حتى اللحظة التى هاجر فيها ، وبين تلك القيم المتعارضة تمامًا مع تلك القيم المتأصلة فى قوامه النفسى . ألا يُحدث هذا صراعًا نفسيًا خطيرًا فى قوام المهاجر ، مما يعرضه للانحرافات النفسية التى تهدد أمنه النفسى وسويته النفسية ؟

المؤيد : الواقع أن الصراعات النفسية محتدمة فى قوام كل إنسان ، سواء هاجر أم لم يهاجر . فحقيقة الواقع النفسى للمرء أنه يتضمن المتضادات ، أو قل إنه فى حالة مستمرة من عمل ديالكتيك بين تلك الأقطاب المتضادة فى دخيلته . ألسنا نحمل العديد من الثنائيات المتشاحنة والمتضادة فيما بينها مثل ثنائية الخير والشر ، وثنائية الأنانية والتضحية ، وثنائية التطور والجمود ، وثنائية الزهد فى الملذات والإقبال عليها ، وثنائية التسامح والانتقام ، إلى آخر تلك الثنائيات التى تعتمل فى قوام كل واحد منا ؟ ولكن الفرق بين شخص وآخر ، يتمثل فى الموقف الذى يتخذه تجاه تلك الثنائيات . فبعض الناس ينضمون إلى أحد الطرفين وينبذون الطرف الآخر ، والبعض الآخر يُحدثون عراكًا أو تفاعلاً بين طرفى كل ثنائية من تلك

الثنائيات ، فيتوصلون بذلك إلى مركّب جديد يحيون وفقه . وكذا الحال بالنسبة لموقف المهاجر بإزاء القيم التى اكتسبها عبر مراحل حياته فى مصر قبل أن يهاجر ، وبإزاء القيم الجديدة التى تحيط به بعد نزوحه إلى المهجر . فهو إما أن يتقوقع نفسيًا ويتشبث بالقيم التى اكتسبها وهو فى مصر ، وإما أن ينبذها ويكتسب القيم الجديدة التى وجدها بالمهجر ، وإما أن يجرى ذلك التفاعل الخبرى بين هذين النوعين من القيم ، فيخلص من ذلك التفاعل بسبيكة خبريّة جديدة يتسنى له بها أن يحتفظ بإنيته الذاتية من جهة ، وأن يتكيف ويتواءم مع المجتمع الجديد الذى انخرط فيه من جهة أخرى . فالواقع أن الكثير من المصريين الذين هاجروا إلى أقطار بعيدة ، قد انتحوا هذا المنحى الأخير ، واستطاعوا بذلك أن يوفقوا بين قيمنا والقيم السائدة بالمهجر .

المعارض : إنك بهذه الحيلة المنطقية تصبو إلى أن تتخلص من المأزق الذى تحس به بإزاء الصراع النفسى المعتمل فى قوام المهاجر ، وبخاصة ذلك الصراع الناشئ بين الوالدين وأولادهما الذين أخذوهم وهم بعد صغارًا إلى بلاد المهجر . ولكن هذه الحيلة لا تنطلى علىّ . فبنفس هذا المنطق أرد عليك ، مؤكدًا أن المتناقضات لا تتقابل فى نقطة وسط بين أطرافها المتناقضة ، فالصواب لا يلتقى فى نقطة وسط مع الخطأ . فإما أن قيمنا هى الصواب ، وقيم بلاد المهجر هى الخطأ ، وإما أن قيم تلك البلاد هى الصواب وقيمنا هى الخطأ . فتنازل المهاجر عن أى نأمة من القيم التى اكتسبها فى مصر قبل الهجرة ، أو عدم قبوله للقيم الشائعة بالمهجر برمتها ، معناه فشله تمامًا فى الحفاظ على قوامه النفسى والأخلاقى ، وفشله أيضًا فى القيام بذلك الديالكتيك المزعوم الذى نلصقه به الصاقًا مفتعلاً ، لا صلة له به فى سلوكه الفعلى من قريب أو من بعيد .

Looloo
www.dvd4arab.com

المؤيد : أسف أن أقول لك إنك أنت الذى لم تصب الهدف . فثمة فى المنطق ما يعرف بالمتناقضات من جهة ، وما يعرف بالمتضادات من جهة أخرى . والتناقض يتضح مثلا بين الصواب والخطأ ، وبين الوجود والعدم . أما التضاد فيتضح مثلا بين السواد والبياض ، وبين الغنى والفقر . وبينما لا يتسنى حدوث ديالكتيك بين المتناقضات ، فإنه يتسنى بين المتضادات . فبينما لا يتسنى حدوث ديالكتيك بين الوجود والعدم ، فإن من الممكن حدوث ديالكتيك بين السواد والبياض . أعنى حدوث تفاعل فيما بين الطرفين المتضادين ، والتوصل من ذلك التفاعل إلى قوام جديد ، ناهيك عن أن الديالكتيك يمكن أن يحدث بين نوعين متباينين تمام التباين وليس بينهما تناقض أو تضاد . فالديالكتيك فى هذه الحالة شبيه بالتفاعل الكيميائى . فكما أن تفاعل الأكسوجين والأيدروجين يتأتى عنه بزوغ مركب منهما هو الماء ، كذا فإن التفاعل بين القيم المصرية وبين قيم البلد الذى يهاجر إليه المصرى ، يمكن أن يتأتى عنه قوام خبرى جديد ، يضيف إلى القوامات السلوكية ثراء وبهاء . وعلى هذا فإن ما صورته من تضارب لا يتأتى عنه أى لقاء بين قيمنا وقيم غيرنا ، بعيد عن الصواب تماما . وشاهد ذلك أن الكثير من المصريين الذين هاجروا قد توافقوا توافقا ممتازا مع سكان تلك الأقطار التى هاجروا إليها .

المعارض : وهل يتسنى عمل الديالكايك بين ما نشأ عليه المرء من قيم دينية وأخلاقية فى مصر ، وبين القيم الدينية والأخلاقية فى المهجر ؟

المؤيد : نعم إن الديالكتيك ممكن بين القيم الدينية والأخلاقية التى نشأ عليها المرء فى مصر ، وبين القيم الدينية والأخلاقية فى المهجر ، بشرط أن تكون لدى المرء خلفية ثقافية نابضة بالحياة ، وبشرط أن

يكون شخصية مرنة وقابلة للتطور . فالواقع أن القيم الدينية والأخلاقية ليست قيما جامدة لا تقبل التطور إلا عند الأشخاص الرجعيين الذين ينأون بأنفسهم عن توظيف تلك القيم فى مواقف الحياة المتباينة ، أو فى المواقف الجديدة التى لم يقابلوها قبل ذلك . فأنت تعلم أن المعتقدات الدينية المسيحية والإسلامية قد وجدت فى الفكر الفلسفى الأفلاطونى والأرسطى مقومات خبرية عقلانية خصبة يمكن التفاعل معها . ومن ثم فإن تفاعل تلك القيم المسيحية والإسلامية مع الفكر الفلسفى ، قد أفضى إلى بزوغ كل من الفلسفة المسيحية والفلسفة الإسلامية ، مما أضاف خصوبة وثراء إلى الفكر المسيحى وإلى الفكر الإسلامى على السواء ، بل وعمل على دعم المعتقدات المسيحية والإسلامية عن طريق التسلح بسلاح الفلسفة ، جنبا لجنب مع التسلح بسلاح الإيمان الدينى العميق .

المعارض : إنك فى الواقع قد تحيزت إلى التفاعلات الخبرية ، ونسيت موقفا آخر هو الذوبان والانصهار فى المجتمع الجديد الذى ينخرط فيه المرء المهاجر . فالواقع أن ما تزعمه من تفاعلات خبرية بين القيم التى حملها المرء معه ، والتى نشأ عليها فى مصر ، وبين القيم الجديدة التى يجدها فى المهجر ، هو فرض زائف . والصحيح أن المهاجر يذوب أو ينصهر فى المجتمع الجديد الذى يهاجر إليه . فهو يلقى خلف ظهره تلك القيم التى تشربها فى مصر ، أو قل إنه يتقيؤها ويتخلص منها تماما ، ويأخذ فى التلبس بقيم المجتمع الجديد الذى يحيط به ليلا ونهارا هناك فى المهجر . وأكثر من هذا فإن الكثير من الشباب الذين يعتزمون الهجرة ، يأخذون فى إعداد أنفسهم بالتخلص من قيم مجتمعهم المصرى قبل أن يهاجروا ، ويحاولون الوقوف على قيم المجتمع الذى سوف يرحلون إليه ، وذلك بالمداومة على معايشة الأفلام الأجنبية التى تعرض على شاشات التليفزيون

Looloo
www.dvd4arab.com

المصرى والأجنبى . فالواحد منهم يتخيل نفسه فى المهجر حتى قبل أن يرحل بالفعل إليه . فهو فى فترة إعداد نفسه للهجرة يحس بالغربة فى بلده ، بل إنه يبدأ فى الإحساس بالإنتماء إلى ذلك الوطن المرتجى الذى يعتزم الهجرة إليه . وأكثر من ذلك فإنه يحس بالكراهية تملأ قلبه لبلده ، بينما يحس بالحنين والشوق والحب الدافق إلى ذلك الوطن الذى يترجى النزوح إليه والعيش بين ربوعه . فهو الجنة المرتقبة ، أو هو ملكوت السموات بالنسبة له والنعيم الخالد الذى سوف يحس فيه بالسعادة والهناء الدائمين .

المؤيد : إنك فى الواقع تترسم فى مخيلتك صورا خيالية لموضوع الهجرة ، ليس لها أى أساس فى الواقع . فالمهاجر المصرى لا يكره مصر كما تظن ، بل يحبها كل الحب ، ويحن إليها كل الحنين ، وهو لا يستغنى عن الاتصال بأهله فيها ، وينتهز جميع الفرص السانحة لزيارتها ، بل إنه يحس أن مصر حية بداخله . وقد قلت لك قبل ذلك إن المصريين بالمهجر يشكلون مجموعة متماسكة ومترابطة . فمصر امتدت بهم اجتماعيًا وثقافيًا وعقائديًا إلى تلك الأقطار البعيدة . فمصر قد توسعت بهم إذن جغرافيًا واجتماعيًا وثقافيًا ، فما تظن أنه حرمان لمصر من أبنائها ، هو على العكس من ذلك كسب لمصر بأبنائها المهاجرين الذين امتدوا بالنفوذ المصرى إلى تلك الأقطار البعيدة ، فكما أنك لا تعتبر السفراء الذين يعيشون بعيدا عن مصر غرباء عنها ، كذا فإن المهاجر يظل ابنا لمصر وسفيرا لها . فالمهاجرون يلعبون أدوارا سياسية غير مباشرة لإعلاء صوت مصر وصيت مصر فى جميع بلاد المهجر ، كما أنهم يثبتون للدنيا بأسرها أصالة مصر ، وبرفعون من شأنها .

* * *

المناظرة الثامنة

يجب الالتزام بقول الصدق وذكر الحقائق التى يعرفها المرء ، بغض النظر عن النتائج التى يمكن أن تترتب على ذلك

المؤيد : لست فى حاجة إلى أن أبرهن على متانة هذا الموقف الذى أومن به كل الإيمان . ذلك أن الإنسان الفاضل ومستقيم الرأى ، هو ذاك الصادق مع الآخرين ، كما هو صادق مع نفسه ، والذى يعبر عما بداخله بأمانة بحيث تكون هناك مطابقة فيما بين دخيلته وخارجيته ، وبحيث يناظر كلامه ما يدور فى ذهنه . فهو الشخص الذى لا يزيف ما يرتسم فى عقله ، بل يتحرى الدقة فى التعبير عن أفكاره ، ويصور بكلامه بدقة وأمانة ، ما سبق أن عرفه ، وما يعرفه فى أثناء كلامه ، وما يتوقع حدوثه فى المستقبل . ومعنى هذا أن الشخص الصادق يتمسك بالصدق التطابقى بين عقله ومشاعره الوجدانية وإرادته ، وبين ما يعبر به بلسانه أو بقلمه أو بالحركة أو بالإشارة ، أو بالتصرفات والمواقف والعلاقات التى يقيمها مع الآخرين .

المعارض : أما أنا فإنى أعترض على موقفك هذا الرانى إلى تحقيق المطابقة بين داخلية المرء وخارجيته ، فمثل تلك المطابقة المزعومة مستحيلة من الناحية السلوكية الواقعية . فغنى عن القول أن

Looloo
www.dvd4arab.com

لدى المرء لاشعورًا يعتمل فى داخله بعيدًا عن مجال وعيه . فالمكبوتات النفسية المتعلقة بالخبرات التى مرت فى حياة المرء ، والتى لم يتسن له هضمها ، تترسب فى لا شعوره . ولكنها لا تظل فى حالة كمون باستمرار ، بل تثور فى بعض الأحيان ، وتعبر عن نفسها فى طيات الكلام ومن خلال التصرفات التى يأتيها . ومعنى هذا فى الواقع أن الكلام والتصرفات والإشارات ، والمواقف والعلاقات التى يقيمها المرء مع الآخرين ، إما أن تكون تحت سيطرته وطوع إرادته ، وإما أن تكون خارجة عن نطاق سلطته وتحكمه فى نفسه . فما تفوه به من كلام تقصده ، وتظن أنك تتحكم فيه ، وأنك مسيطر على ما يصدر عنك من تصرفات وحركات ومواقف وعلاقات تنشأ بينك وبين غيرك ، لا يعدو أن يكون فى حقيقته معبرًا عن جانب من دخيلتك فحسب ، بينما يكون جانب آخر من كلامك وتصرفاتك وحركاتك ومواقفك وعلاقاتك ، معبّرًا عما يعتمل فى لا شعورك ، أى أنه لا يكون صادرًا عن إرادتك وتحت سيطرتك وتحكمك . وحيث إن المكبوتات اللا شعورية تكون فى الغالب غير متطابقة أو غير منسجمة مع الأفكار والمشاعر الواعية ، فإن سلوكك يكون إذن متضاربًا ، أى أنك لا تستطيع أن تكون ناحيًا منحى واحدًا ، بل تكون معبّرًا عن حبك لصديقك وكراهيتك له فى الوقت الواحد ، أو فى لحظتين متتاليتين ، أو تكون معبرًا عن سرورك وسعادتك ، وفى الوقت نفسه أو فى لحظتين متتاليتين تكون معبرًا عن حزنك وابتئاسك . وبتعبير آخر فإن كلامك وتعبيراتك المتباينة تكون متضاربة ومتناحرة بسبب تضارب دخيلتك الواعية من ناحية ، ودخيلتك المستخفية عنك ، أعنى داخليتك اللاّ شعورية من ناحية أخرى . فما تقوله بلساتك يكون مباينًا إذن لما يعتمل بلا شعورك ، وبالتالى فإنك لا تكون صادقًا بالمعنى

الذى ذكرته ، أى أن يكون سلوكك الظاهرى متطابقًا مع سلوكك الداخلى .

المؤيد : على الرغم من أنى غير مقتنع بما ذكرته عن اللاشعور ، جريًا وراء فرويد وأشياعه من علماء التحليل النفسى ، فإنى على أية حال غير مسئول إلا عما يصدر عنى وأنا فى حالة وعى تام ، ومسيطرًا على نفسى ، ومدركًا لما أقوله ، ولما أعبر به عن دخيلتى . وبتعبير آخر فإنى غير مسئول عن سلوكى الذى يصدر عنى وأنا أغط فى النوم ، أو وأنا واقع تحت تأثير مخدر فى أثناء إجراء عملية جراحية لى بحجرة العمليات . فالمسئولية الأخلاقية لا تتوافر إلا والمرء فى حالة وعى ومالكًا لناصية سلوكه بإرادته الحرة . أما فى الحالات التى لا يكون المرء خلالها فى حالة وعى ، سواء بسبب غطيطه فى النوم ، أو بسبب وقوعه تحت تأثير التخدير ، أو حتى بسبب إصابته بخلل عقلى يكون قد أصيب به ، فإنه لا يكون مسئولاً فى جميع تلك الحالات من الناحية الأخلاقية ، عما يصدر عنه من كلام أو تصرفات أو مواقف أو مشاعر . وما أحب أن أثبته هنا ، هو أنى ملتزم بقول الصدق ، والتعبير عن دخيلتى التى أعيها بشعورى وأنا فى حال اليقظة التامة ، ولست واقعًا تحت تأثير أى من التغيرات البيولوجية ، بل أكون متمتعًا بكامل قواى العقلية ومالكًا لزمامها .

المعارض : هل يعنى هذا أنك لا تفكر فى صياغة كلامك ، بحيث يتناسب مع الحالة النفسية والمزاجية التى يكون عليها من تتحدث معه ؟ وبتعبير آخر : أليس من اللائق بك أن تحيك الكلام وتكيفه على مقاس من تقوم بالتحدث إليه ؟ فهل تتحدث مع الطفل بما تتحدث به مع الكبير ؟ وهل تتحدث مع الأمى كما تتحدث مع

Looloo
www.dvd4arab.com

المثقف ؟ وهل تقول للمرأة ما تقوله للرجل ، دون مراعاة للفروق الموجودة بين الأشخاص الذين تتحدث إليهم ؟

المؤيد : من الطبيعي أن هناك تصورات ذهنية تسبق التعبير عنها بالكلام أو بالتصرفات والمواقف . فقبل أن أتحدث إلى أحد الأطفال ، فإن مجموعة من التصورات الذهنية ترتسم في ذهني . وقل الشيء نفسه بإزاء مختلف الأشخاص الذين أقابلهم في الحياة . وطالما أني صادق في التعبير عن تلك الصور الذهنية ، التي تتابين مع تباين المواقف ومع تباين الأشخاص الذين أتعامل معهم ؛ فإن كلامي وتصرفاتي ومواقفي وعلاقاتي تكون منسجمة مع دخيلتي ، وعلى مقاس من أتكلم معهم ، وبالتالي فإني أكون ملتزمًا بالصدق مع الجميع .

المعارض : وحتى بالنسبة لتلك الصور الذهنية والانطباعات الوجدانية والرغبات الإرادية التي تعتمل في دخيلتك ، فهل تلزم نفسك بالتعبير عنها . فمثلاً إذا أدهشك أن يقع بصرك على شخص قزم أو به عاهة ملفتة للنظر ، وقد قدمه إليك أحد أصدقائك ، فهل تعبر عن دهشتك عما يقع عليه بصرك وتسأله عن سبب قزامته أو إصابته بتلك العاهة ، وعما إذا كانت إصابته في حادث معين ، أم أنها نتيجة عوامل وراثية ، أم أنك تلجم لسانك في مثل هذا الموقف ؟ وهل إذا دعاك أحد أصدقائك إلى حفل ، وقام بتقديمك إلى زوجته الجميلة ، فأدركت أنها رائعة الجمال ، فهل تعبر عن مشاعرك وتقديرك لجمالها ، ولا تلجم لسانك ، لأن ما تقوله يفسر غالبًا بأنك تغازلها بوقاحة أمام زوجها ؟ وهل إذا شعرت بالرغبة في أن تسفه ما يقوله أحد الحاضرين في ذلك الحفل لسخف رأيه أو لتفاهته ، فهل تندفع وتعبر عما يرتسم بذهنك ، وعما يعتمل في قلبك من رغبة في التعبير

عما تسفّه به رأيه ، أم تضبط لسانك ، أو حتى لقد تجامله بالموافقة على السخف الذي ذكره ؟ إنك لكي تلتزم بالصدق الذي تتشبث به ، فتعبر عما يعتمل بدخيلتك لابد أن يحكم عليك الناس من حولك في المواقف الثلاثة التي ذكرناها ، بأنك نزق وغير حكيم ، سواء في كلامك ، أم في تصرفاتك ومواقفك وعلاقاتك .

المؤيد : إنك في الواقع تتهمني بغير حق بالنزق وعدم تحري الحكمة في القول والتصرف ، وفيما أتخذه من المواقف وما أقيمه من العلاقات . وربما يرجع ذلك إلى أنك لم تفهم موقفي بالضبط ، ولم تتمكن من الوقوف على فلسفتي في الحياة . فإنا غير ملزم بالتعبير عن كل ما يعن لي من فكر أو عاطفة أو نزوع ، بل ملزم فقط بأن تكون تعبيراتي التي أرغب في إبدائها مطابقة لما أعبر عنه بدخيلتي . على أني غير ملزم بأن أجيل لساني بكل ما في قوامي الداخلي . فالسكوت وعدم التعبير عن أي شيء - كائنًا ما يكون - يدور بخلد المرء ودخيلته ، وعن كل ما يرتسم في ذهنه من تصورات ذهنية ، إنما هو ضرورة أخلاقية . فإذا أنت فهمت هذا بدقة ، فإنك سوف تعلم أن ليس كل ما يعرف يجب أن يقال ، وليس كل ما يحس به المرء من عواطف ، فإن عليه أن يندفع نحو التعبير عنها ، وليست كل رغبة أو انفعال يعتمل في دخيلة المرء ، لابد أن يعمد إلى إخراجه دون أن يجد من الإرادة الشخصية ما يلجمه ويمنعه من الخروج إلى حيز السلوك الخارجي .

المعارض : دعنا إذن من التعبير عن دخيلتك ، ولنتأمل ما يترتب على قول الصدق من نتائج ، ودعني أسألك عن موقفك بإزاء ما قد يترتب على كلامك من نتائج محتملة الحدوث . فهل أنت تنحو إلى إغماض عينيك عن النتائج التي يمكن أن تترتب على ما تعبر به حتى ولو كانت تلك النتائج وخيمة وضارة بالآخرين ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

المؤيد : لقد قلت لك إنى غير ملزم بالكلام والتعبير عن كل ما أعرفه . فطالما أن ما أعبر به بالكلام والمواقف والعلاقات والإشارات ، مطابقًا لما يعتمل بدخيلتى ، فإنى أحترم نفسى ، لأنى صادق ، وقد حققت المطابقة بين ما بداخلى وما بخارجى ، أعنى ما أعبر به من كلام وتصرفات ومواقف وعلاقات وإشارات . فالسكوت أو عدم الإفصاح عن جانب مما يجول بخاطرى ، أو مما تجيش به مشاعرى ، أو مما يثير إرادتى ، لا يتعارض من قريب أو من بعيد مع التزامى بالصدق فى القول والتصرف .

المعارض : افترض أنك سئلت عن رأيك فى تصرف صدر عن أحد أصدقائك . فهل تصدر حكمًا منطوقًا بأن ما صدر عنه من تصرف ، لم يكن من الواجب أن يصدر عنه ، وأنه قد تورط فى تصرف لا يمكن أن يوصف إلا بالبذاءة ؟ وافترض أنّ ذلك الشخص غير موجود وأنت تحكم على تصرفه ذاك ، أفلا يعتبر كلامك عندئذ منخرطًا فى نطاق النميمة ؟

المؤيد : أنا قلت لك إن عدم التعبير عما يعتمل بدخيلة المرء من صور ذهنية أو من مشاعر وجدانية أو من رغبات أو انفعالات ، لا يتعارض مع مبدأ قول الصدق . فأنا فى مثل ذلك الموقف الذى ذكرته ، غير ملزم بالإفصاح عن رأيى ؛ وبذا فإنى لا أكون قد خالفت مبدئى وهو الالتزام بقول الصدق وليس سوى الصدق ، وأن السكوت والتزام الصمت لا يتعارض من قريب أو من بعيد مع هذا الالتزام .

المعارض : ألا تحس فى مثل هذا الموقف الذى تلتزم فيه بالصمت ، ولا تصدر حكمًا ببذاءة السلوك الذى صدر عن صديقك ، بأنك قد أيّدت تصرفه ، وبالتالى فإنك صرت مشاركًا فى ذلك

التصرف ، ومشجعًا لصديقك على تكرار ما صدر عنه من سلوك بذىء ، أو مشجعًا الآخرين بطريق غير مباشر على أن ينتحوا إلى مثل ذلك السلوك الذى لم يثر حفيظتك ، ولم يقلق بالك ، ولم تصدر بازائه حكمًا تسفهه ؟ ألا تشعر أن موقفك هذا الذى تلتزم فيه بالصمت ، يمكن أن يفسر بتأييدك لصديقك فيما انتحى إليه من سلوك ردىء ، أو حتى لقد يتهمك الموجودون بالجبن أو بالخوف من ذلك الصديق ، أو أنك مشارك فى ذلك التصرف ، وأنك أنت المحرض عليه ، وإلا لكنت تكلمت وعبّرت عن استيائك بازاء ذلك التصرف البذىء ؟

المؤيد : أنا لا اكتفى بالامتناع عن إصدار الحكم على ما صدر عن صديقى من تصرف بذىء فى غيابه ، بل أقابله وأتفهم منه ما دعاه إلى الإقدام على هذا الموقف المستهجن ، ثم أخبره برأيى بصراحة بينى وبينه ، ولكن إذا أنا أصدرت حكمًا غيابيًا عليه ، فإنى أكون فى هذا الموقف شخصًا نمّامًا . فطالما هو صديقى وعلى قيد الحياة ، فما الذى يمنعنى من محاولة إصلاح سلوكه بحكمة وتريُّث ؟

المعارض : افترض أن ذلك الصديق شخص عصبى ، ولا يقبل النصيحة ، وأنت تعرف أنه متسم بهذه الطباع الحمقاء . فهل تصر على أن تقابله وتحاول تعديل سلوكه ؟

المؤيد : فى هذه الحالة لا أحاول مقابلته ، طالما أنى أعرف أنه شخص عصبى وأحمق ولا يقبل النصيحة ، ولكنى فى الوقت نفسه لا أصدر حكمًا أخلاقيًا على سلوكه وهو غائب .

المعارض : إذن فإنك تكون فى هذه الحالة ساكتًا على التصرفات الذميمة ، وتكون بالتالى مشجعًا على الإتيان بها بطريق غير مباشر . فلو أن جميع الناس اتخذوا موقفك هذا نبراسًا لهم فى

Looloo
www.dvd4arab.com

الحياة ، فإن الشر يزداد استفحالاً ، علمًا بأن الكثير من الأشخاص الذين يخشون ما سيصدره الناس عليهم من حكم أخلاقى بأنهم أشرار ، يمتنعون عن اتخاذ المواقف المذمومة ؛ حرصًا على الحفاظ على سمعتهم الطيبة . ولكن طالما أنك تتخذ هذا الموقف السلبى ، وتقف متفرجًا على ما يدور حولك ، فلا تؤاخذنى إذا نعتك بالجبن والسلبية ، وعدم تسلحك بالشجاعة بحجة أنك تلتزم بالصدق ، مع أن المؤكد أنك من حيث واقعك النفسى ، لست حريصًا على التمسك بالصدق ، بل حريصًا على اجتلاب حب الناس لك ، وعدم إثارة المشكلات من حولك .

المؤيد : أنا أرفض اتهامك لى بأنى لست حريصًا على التمسك بالصدق ، بل حريصًا على اجتلاب حب الناس لى ، وعدم إثارة المشكلات من حولى . فالواقع أنى صاحب مبدأ ولست شخصًا وصوليًا أو مستهدفًا الجرى وراء المنفعة المعنوية . وما تقوله من أن الكثير من الأشخاص يمتنعون عن اتخاذ المواقف المذمومة خوفًا من أن تصدر ضدهم أحكام أخلاقية من الناس المحيطين بهم ، إنما هو فى الواقع جرى وراء الفضيلة الشكلية لا حبًا فيها ، بل خوفًا من ذم الناس لهم واستهجانهم لسلوكهم . والواقع أن السلوك الفاضل هو ذلك السلوك الذى لا يكون مجرد رد فعل على المواقف التى يتخذها الناس تجاه المرء . فالسلوك القائم على مبدأ رد الفعل على المثير الخارجى أو على المواقف التى يتخذها الناس ، لا يندرج فى نطاق الفضيلة ، بل يندرج فى نطاق الرذيلة والجبن . ولكن موقفى الذى ألتزم فيه بالصمت وعدم المشاركة فى اغتياب صديقى الغائب عن المجلس الذى يضمنى أنا وآخرين ، هو الفضيلة بعينها ، وذلك لأنه سلوك يصدر عن قوامى الداخلى ، وليس مجرد رد فعل على موقف خارجى

يضغط على ؛ فيحملنى على الإتيان بسلوك يتواءم معه . فأنا حر حرية نفسية بمعنى الكلمة ، وهى أسمى أنواع الحرية فى رأيى .

المعارض : بمناسبة ذكرك للحرية النفسية التى تزعم أنك متمتع بها ، فأنت إذن حر فى الانتقاء من بين الصور الذهنية ومن بين العواطف والنزُوعات التى تعتمل بداخلك ، فلا تفصح عنها جميعًا ، بل تفصح عما تجده مناسبًا منها للإفصاح ، أعنى أنك تختار من بينها ما يناسب المقام الخارجى . فالسؤال الذى أوجهه إليك هو : هل هذه الحرية النفسية التى تزعم أنك متمتع بها ، وهى التى تكفل لك الاختيار من بين بدائل كثيرة تعتمل بداخلك ، تقتصر على تلك البدائل النفسية الداخلية ، أم أنها تتخطى ذلك النطاق الداخلى إلى النطاق الخارجى ، على أساس أنك لست مسيطرًا على دخيلتك النفسية فحسب ، بل مسيطرًا أيضًا على ما بين يديك من بدائل خارجية ؟

المؤيد : نعم أوافقك على أن نطاق سيطرتى بإزاء عملية الاختيار تشتمل على جميع البدائل المتوافرة لى ، سواء أكانت بدائل نفسية داخلية تتمثل فى الصور الذهنية والعواطف والنزُوعات ، أم كانت بدائل موضوعية خارجية تحيط بى فى الموقف خارج نطاقى الذاتى . فأنا أستطيع أن أختار من بين تلك البدائل الخارجية ما يناسب المقام ، بينما أتحاشى ما ليس مناسبًا منها .

المعارض : إذن فأنت قد أضفت زاوية جديدة إلى موقفك بإزاء الصدق ، هو الموقف المتعلق بالمناسب من السلوك وبذا يكون لديك زاويتان تنظر منهما إلى الصدق : زاوية الخير والشر من جهة ، وزاوية المناسب وغير المناسب للمقام الذى توجد به من جهة أخرى .

المؤيد : نعم إنى أنظر إلى الصدق من هاتين الزاويتين ، زاوية الخير والشر ، ، وزاوية المناسب وغير المناسب .

Looloo
www.dvd4arab.com

المعارض : إذن دعنا نتناول هذه الزاوية الأخيرة ، أعنى زاوية المناسب وغير المناسب ، ونلقى عليها الضوء لنتفهم موقفك بالضبط من موضوع الصدق والكذب . فهل توافقنى على أن المناسب هو ما ينطوى على نتائج جيدة أو صالحة ، وأن غير المناسب هو ما ينطوى على نتائج رديئة أو شريرة ، وأن تلك النتائج قد تكون نتائج محسوسة ، وقد تكون نتائج نفسية ؟

المؤيد : نعم أوافقك .

المعارض : ولكن المناسب بهذا المعنى المحسوس والمعنى النفسى ، قد يتطلب إخفاء جانب من حقائق الموقف ، أو التخفيف من شدة وقعها على نفوس الأشخاص الذين يتعامل معهم المرء . فمثلاً الشخص الذى افترضنا أنك تقابله فى الحفل ، وصدر عنه تصرف بذىء ، فإنك إذا التزمت الصمت ، ولم تبد امتعاضا من تصرفه البذىء ؛ فإنك تكون بذلك قد اتخذت تصرفا غير مناسب ، بل تصرفا يؤذى مشاعر الآخرين الموجودين بالحفل الذين كانوا يتوقعون منك أن تعلن عن استيائك من تصرفه البذىء . وكذا فإنك فى هذا الموقف تكون قد أخفيت مشاعرك المحتدمة بداخلك والساخطة على صاحبنا ، فواريتها ولم تفصح عنها ، مما يجعل موقفك هذا غير مناسب للموقف الذى كان يجب أن تتخذه . وقد يتبدّى عدم مراعاتك لاتخاذ السلوك المناسب للمقام فيما يبديه الموجودون بالحفل من استياء من موقفك هذا غير الواضح وغير الصريح وغير المتمشى مع التقاليد والعادات السائدة بالمجتمع ، ناهيك عن اتهامهم لك بالجبن والهروب من إصدار الأحكام الأخلاقية .

المؤيد : الواقع أن الأحكام الأخلاقية قد تكون أحكاما منصبة على مواقف بعينها ، كما أنها قد تكون منصبة على مواقف عامة .

وأنا أحبذ تناول المواقف العامة وأن أصدر بصددها أحكاما أخلاقية . أما المواقف الفردية ، فإنى أعمد إلى تجميعها لكى أخلّص منها إلى محصّلة عامة أتناولها بالفحص المُستأنى ، وأنتهى من ذلك الفحص المُستأنى إلى إصدار أحكام أخلاقية عامة وجامعة مانعة . ذلك أنى لاحظت أن التسرع فى إصدار الأحكام الأخلاقية الفورية بإزاء المواقف الفردية ، مفعم بكثير من الحماقة والنزق . فشأن الشخص الذى يصدر مثل هذه الأحكام الأخلاقية بإزاء الحالات الفردية فى التو واللحظة ، كشأن الطبيب الذى يقوم بتشخيص المرض بمجرد ظهور أحد الأعراض المرضية وهو العرض المرضى الذى قد يشير إلى احتمال الإصابة بأحد الأمراض العديدة التى يجب على الطبيب أن يتناولها بالتفكير المُستأنى ؛ لكى يقع على واحد منها يقوم بتشخيصه . فمن المستحيل أن يصيب مثل هذا الطبيب المتعجّل فى تشخيص المرض . فمن الضرورى أن يقوم الطبيب الجيد بعملية قياس فى ضوء قائمة الأمراض التى تتضمن جميعا ذلك العرض المرضى ، وهى القائمة المستخلصة من حالات جزئية كثيرة . فالهدف الجدير بالاتباع ، هو إذن التوصل إلى العموميات وليس الوقوف على الخصوصيات . فبالنسبة للشخص الذى ضربت مثلاً به ، والذى صدر عنه سلوك بذىء ، نتساءل : هل من الحكمة أن نصدر عليه أحكاما أخلاقية ، مع إغماض أعيننا عن شخصيته ، وبدلاً من ذلك نركز أذهاننا فيما تبدّى منه من سلوك ؟ أليس الواجب أن نتفحص الشخص نفسه لكى نعرف ما يعتمل بدخيلته من نوازع حملته على الإتيان بذلك السلوك ؟ وبتعبير أوضح أليس من الواجب أن تُرجّح النظرة السيكولوجية على كفة النظرة الأخلاقية ، على أساس أن السلوك الأخلاقى ليس سوى ثمرة للعوامل النفسية ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

المعارض : إذن فأنت جعلت المناسب ، هو ما يناسب حالة المرء الفردية . فامتناعك عن إصدار الحكم الخلقى على ذلك الشخص الذى صدر عنه السلوك البذىء فى الحفل ، شاهد على أنك لا تراعى المناسب بالنسبة لجميع الموجودين بالموقف أعنى الحفل ، ولم تراع سوى المناسب لحالة ذلك الشخص الفرد ، أى أنك تحيّزت إلى الحالة الفردية وأغضيت عن الوضع العام السائد لدى جميع الأشخاص الموجودين فى الحفل . وهذا شاهد على تناقضك مع نفسك . فقد قلت منذ لحظات إنك تضم صوتك إلى الكليات وليس إلى الجزئيات ، وإنك حريص على استخلاص قواعد عامة لا أن تحصر نفسك فى حالة بعينها وتصدر عليها حكمًا أخلاقيًا .

المؤيد : أنا لم أتناقض مع نفسى . ذلك أن إصدار الحكم الأخلاقى المتعجّل ليس من السلوك المناسب للموقف فى شىء . صحيح أن معظم الموجودين بالحفل قد يرغبون فى أن أسارع بشجب ذلك السلوك ، وقد يبدون استياءهم من موقفى المتحفظ أو بالأحرى المستأنى . ولكن العقلاء منهم فى هذا الموقف ــ حتى ولو كانوا قلّة ــ فسوف يرجّحون كفتى حتى بعد أن يكونوا قد أعلنوا عن استيائهم من سكوتى وتريثى وعدم الاندفاع إلى تأثيم ذلك السلوك الصادر عن ذلك الشخص . وحتى الشخص نفسه صاحب السلوك البذىء ، قد يكون لموقفى السلبى أشد الأثر فى نفسه ، فيتخذ منه نقطة انطلاق نحو تعديل سلوكه فى المواقف المشابهة التالية . فالصمت وعدم التسرع بإصدار الأحكام الأخلاقية ، قد يكون سلاحًا تأديبيًا أقوى بكثير من الموقف المندفع . ألا تعلم أن السلوك الحكيم يتّسم بالرويّة ، بينما يتسم السلوك الأحمق بالاندفاع ورد الفعل الفورى . أليس ضبط اللسان أصعب من الاندفاع بتوجيه الإهانات بغير تفكير أو نظر إلى النتائج

المترتبة عليه ، أو بتعبير آخر ، أليس ضبط النفس والتأنى فى تقديم رد الفعل على المثير ، أفضل من أن يكون السلوك بمثابة رد فعل فورى متهور ؟

المعارض : الواقع أنك تتفلسف بإزاء موقف لا يتحمل التفلسف . فتفلسفك هذا يمكن أن يمارس فى نطاق الكتب والبحوث ، ولكنه لا يصلح ولا يتناسب مع المواقف الفعلية التى نجابهها فى الحياة . فالمواقف الاجتماعية بحاجة إلى سلوك فورى ، أو حتى إلى قوالب سلوكية جاهزة يتحتم على المرء تقديمها بسرعة وبغير إبطاء . ذلك أن أى إبطاء فى تقديمها يفسدها ، ولا يكون لها بالتالى أى تأثير أو فاعلية . فأنت بتفلسفك والتزامك الصمت ، تكون قد أسقطت من حسابك ما هو مناسب ، أعنى مبدأك الثانى بعد مبدئك الأول ، وهو مبدأ التلطّف بالخير . فالمناسب فى الموقف الذى نعرض له هنا ، هو أن يقدم المرء رد فعل فورى على ذلك التصرف البذىء الذى صدر عن صاحبنا ، فهو تصرف لا يختلف عليه اثنان ، ولا يحتاج إلى إعمال الفكر والتعمق الذى تدّعيه أو تزعم أنه الخليق بالاتباع . وأحب أن أضيف بالمناسبة نقطة مهمة أخرى ، هى أن الواقع الخارجى يؤثر فى دخيلة المرء أكثر من تأثير دخيلة المرء فى سلوكه الخارجى .

فحيث إن ذلك السلوك البذىء ، قد صدر فى نطاق واقع اجتماعى خارجى معيّن هو ذلك الحفل ، فإن رد الفعل عليه يجب أن يكون من الخارج وليس من دخيلة صاحبنا . وبتعبير آخر ، فإن إعلان استيائك جهارًا أمام الموجودين ، كان هو الخليق بالاتباع ، وليس التفكير فى البواعث التى أدت إلى إتيان ذلك الشخص بذلك السلوك البذىء . فالصدق الذى تستمسك به ، غير متوافر إذن فى هذا

Looloo
www.dvd4arab.com

الموقف ؛ لأنك لم تكن صادقًا مع الموقف الخارجى ، بل تشبثت بمبدأ أجوف ليس من الصدق فى شىء ، بل يمكن اعتباره كذبًا فى ضوء مبدأ مناسبة السلوك للمقام .

المؤيد : أنا أنظر إلى المناسب وغير المناسب من زاوية غير الزاوية التى تنظر أنت منها . فأنت تنظر إلى الناس ، كما لو أنهم شخص واحد يفكر ويحس وجدانيًا وينزع بطريقة واحدة ، بينما أنظر أنا إلى الناس باعتبارهم طبقات ثقافية . وللتسهيل وعدم التعقيد ، فلننظر إلى الناس من زاويتين ، أو فلنقسّمهم إلى فريقين : فريق العامة ، وفريق الخاصة ، أو بتعبير آخر : فريق الغوغاء ، وفريق الحكماء . فلنفترض أن الناس الموجودين فى ذلك الحفل الذى افترضت أنى كنت موجودا به ، وصدر السلوك البذىء من شخص من فئة العامة أو الغوغاء ، فهل يكون من المناسب أن أنضم إلى هذه الفئة ، أم أن أنضم إلى فئة الخاصة أو الحكماء ؟ إن لفئة العامة أو الغوغاء منطقهم ، وطريقة معينة لسلوكهم ، ولفئة الخاصة أو الحكماء منطقهم ، وطريقة لسلوكهم خاصة بهم . وطبيعى أن ينتحى العامة الغوغاء إلى رد الفعل المباشر بما فى ذلك تبادل الشتائم والدخول فى معارك بالأيدى قد تنتهى فى بعض الحالات إلى القتل ، بينما يتسم سلوك الحكماء بالتريث والتفكير العميق وضبط النفس . فهم لا يحبّذون السلوك الفورى فى مثل تلك المواقف ، بل ينتحون إلى الحكمة ؛ لكى يُلموا بأطراف الموقف ، وقد ترسّموا مجموعة من الخيارات السلوكية التى ينتقون من بينها أنسب خيار ممكن . وبتعبير آخر ، فبينما لا يكون أمام فئة العامة الغوغاء سوى خيار واحد عليهم الوقوع عليه والتذرع به ، فإن الخاصة أو الحكماء يستعرضون عدة خيارات أمام أذهانهم للانتقاء من بينها أفضل خيار ممكن . فهل

تريدنى على أن أنضم إلى فئة العامة الغوغاء ، حتى أكون قد طبّقت مبدأ المناسب من السلوك الذى يحبّذونه ، أم أن أنضم إلى فئة الخاصة الحكماء ، حتى أكون قد طبقت هذا المبدأ المتعلق بالمناسب من القول ؟

المعارض : لك ما تشاء فى اختيار ما تراه مناسبًا من القول والتصرف . ولكن قل لى بصراحة : هل أنت واثق تمامًا من قدرتك على إدراك الوقائع والأحداث التى تدركها بحاسة أو أكثر من حواسك الخمس ؟ وبتعبير آخر : هل أنت واثق فى صحة الإدراك الحسى بوجه عام ، بحيث تعتقد أن ما تدركه كواقع خارجى ، هو واقع بالفعل وليس مجرد خدعة حسية ؟ إنك إذا نظرت إلى ملعقة مغموسة فى كوب مملوء إلى نصفه بالماء ، فإنك تراها مُعْوجة ، وإذا نظرت إليها وهى فى الهواء ؛ فإنك تجدها مستقيمة . فهل تصدق إدراكك الأول للملعقة ، أم إدراكك الثانى ؟ فإذا قلت لى إنى عندما أتحسسها بيدى ، فإنى أجدها مستقيمة . ومعنى هذا أن إدراكى اللمسى يحسم الموقف ، لأنى بواسطة هذا الإدراك اللمسى أتأكد من أنها مستقيمة ، وبالتالى فإنى أصدق إدراكى للملعقة فى الهواء ، وأكذب إدراكى لها وهى فى الكوب المملوء إلى منتصفه بالماء . ولكنى أسألك : ألا يخطر ببالك أن من الممكن أن تكون منخدعًا بالحاستين معًا ، أعنى حاسة البصر وحاسة اللمس ، ولماذا لا نزعم أيضًا أن المرء قد يقع فريسة لخداع جميع حواسه مجتمعة ، فتكون جميع الحواس الخمس قد تكاتفت للعمل على تحريف الواقع الخارجى المدرَك . فهل تكون صادقًا عندما تقول إن الملعقة مستقيمة اعتمادًا على مساندة ملمسها أو حتى مع تكاتف جميع الحواس التى تؤكد لك أنها مستقيمة ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

المؤيد : المهم هو النية وليس الحقيقة الخارجية . فطالما أنى أطابق بين الصورة الذهنية الإدراكية التى أحرزها ، وبين ما أعبر به عن تلك الصورة ، إذن فإنى أكون صادقًا . ولكن إذا أنا حرّفت الصور الذهنية الإدراكية التى أحصل عليها من الواقع الخارجى ، وأعبر عنها بطريقة منحرفة عن تلك الصور كما أدركها ؛ فإنى أكون فى هذه الحالة كاذبًا .

المعارض : وما رأيك فى الهلوسات hallucinations ، أعنى أن تدرك أشياء على أنها موجودة فى الواقع الخارجى ، على الرغم من أنها ليست موجودة بالفعل فى ذلك الواقع الخارجى على الإطلاق ، وإنما هى مدركات حسية معكوسة ، بمعنى أن الصور الذهنية المختزنة بذاكرتك تتخذ لنفسها الطريق العكسى الذى سبق أن سلكته منذ أن كانت استقبالاً لصور خارجية بالعينين أو الأذنين أو بأى حاسة من باقى الحواس ، ثم استحالت إلى تيار عصبى يصل إلى مركز الترجمة الحسى الخاص بالحاسة المعينة بالمخ . فهى تتخذ الطريق العكسى بدءًا من الذاكرة ، إلى مركز الترجمة الخاص بنوعها بالمخ ، ثم تستحيل إلى تيار عصبى متجه إلى العضو الحاس ، فترى عندئذ أو تسمع أو تلمس أو تشم أو تذوق ما ليس له وجود خارجى ، على الرغم من إدراكك وتأكيدك أنك تدرك ذلك الشىء فى الواقع الخارجى الموضوعى . فهل تكون فى هذه الحالة صادقا أم أنك تكون كاذبًا ، عندما تؤكد للناس من حولك أنك تشاهد أشياء أو أشخاصًا ، أو أنك تسمع أصواتًا أو تلمس أشياء أو تشم رائحة معينة أو تذوق شيئًا لا وجود له فى الماء الذى تشربه ، أو فى الطعام الذى تتناوله ؟

المؤيد : طالما أنى أعبّر عما أدركه بالفعل ، فأنا إذن صادق ولست كاذبًا .

المعارض : ولكن ألست فى نظر الناس من حولك شخصًا كاذبًا ، إذ إنهم لا يدركون الأشياء التى تدركها ، والتى يؤكدون لك أن ليس لها وجود واقعى حقيقى ؟ وألا تعتقد أنك إذا أصبت بتلك الهلوسات ؛ فإن من المحتمل أن تتهم الناس باتهامات باطلة ، بل إنك قد تقدم شهادة أمام إحدى المحاكم ، ربما يترتب عليها الإلقاء بشخص برىء فى غياهب السجن ، أو ربما تتسبب فى إعدامه شنقًا ، لأنك هلوست فرأيته بلحمه وشحمه ، فى أثناء دخوله الشقة التى وقعت فيها الجريمة ، أو وهو يقوم بخنق القتيل ؟

المؤيد : إنك تفترض فروضًا غير معقولة فى الواقع . فهل من المعقول أن أدرك أشياء فى الواقع الخارجى ، بينما لا يكون لها وجود على الإطلاق إلا فى ذهنى ؟

المعارض : أنا لا أقدم فروضًا بغير سند من الدراسات والبحوث والوقائع الأكيدة . فالواقع أن أى شخص عاقل ، يمكن أن يتعرض فى وقت أو آخر للإصابة عرضًا ببعض الهلوسات المتعلقة بحاسة أو أكثر من حواسه الخمس . ولكن إذا سيطرت تلك الهلوسات عليه باستمرار أو بكثرة وتواتر ، فإنه يكون بحاجة فى هذه الحالة إلى علاج نفسى . ودعنا من مسألة الهلوسات ، ولنتناول زاوية أخرى تتعلق بالواقع الخارجى أيضًا ، وكيف أنه يكون فى بعض الأحيان مباينًا لما يذكره الشخص . فأنت تعلم بالطبع أن الخيال عند الأطفال أقوى بكثير من استمساكهم وتشبثهم بالواقع الخارجى . فالطفل الصغير ، كثيرًا ما ينتحى إلى حياكة مركبات خيالية من حصيلته الإدراكية والتذكرية ، ولكنه لا يقتصر على حوك تلك المركبات الخيالية ، بل إنه يصدقها أيضًا ، ويعتقد اعتقادًا جازمًا أنها وقائع

Looloo
www.dvd4arab.com

حدثت بالفعل ، أو أنها تحدث آنيًا ، أو أنها سوف تحدث . فهل تعتقد أن طفلاً هذا شأنه كاذب أم أنه صادق ذاتيًا دون إقامة اعتبار للواقع الخارجي ؟

المؤيد : بالطبع إن الطفل فى هذه الحالة يكون شخصًا كاذبًا .

المعارض : وما رأيك فى الشعراء والقصاصين وما يقومون بقرضه من شعر أو بحياكته من قصص ليس لها رصيد من الواقع الخارجي . هل نعتبرهم أشخاصًا كاذبين ، أم نعتبرهم أشخاصًا صادقين ؟

المؤيد : نحن نعتبرهم صادقين فنيًا وكاذبين واقعيًا . ولكن طالما أنهم لا يستمرون فى تصديق ما يدبجونه من شعر أو قصص ، بعد إفاقتهم من حالة الاندماج الفنى ، أعنى بعد قيامهم بكتابة العمل الأدبى وإخراجه إلى الواقع ، فإننا لا نتهمهم بالكذب الأخلاقى . ذلك أن الأدب والفن ، بل وأيضًا الخيال العلمى ليست جميعًا متطابقة مع الواقع الخارجي .

المعارض : إذن فها أنت قد فصلت بين الصدق الموضوعى والصدق الذاتى . وبتعبير آخر فإنك تعتقد أن الشخص طالما يعتقد أنه صادق ، فهو إذن صادق حتى ولو كان كاذبًا فى ضوء الواقع الموضوعى الخارجي ، ولكن أليس الشخص المجنون يعتقد هو أيضًا أنه صادق ؟ وأليس الشخص المجرم يعتقد أنه صادق مع نفسه فى تنفيذ جرائمه ، ويجد ما يبررها ، وبالتالى فإن القيم الأخلاقية المتعلقة بالصدق تنهار من أساسها ؟

المؤيد : إنك تذكر الحالات الشاذة ولا تتناول الحالات العامة ، أو القواعد السلوكية العامة للصدق والكذب . وكان الأجدر بك أن

تتجنب تلك الحالات الشاذة ، وأن تركز كلامك بإزاء الحالات العامة فحسب .

المعارض : أنا قلت لك إن أكثر الناس رجاحة فى العقل ، وثقة فى قدرتهم على التفكير السوى ، يمكن أن يتعرضوا للإصابة بالهلوسات بكافة أنواعها الخمسة . ودعنى أذكر لك أيضًا أخطاء الذاكرة ، وهى الأخطاء التى يمكن أن تعتور ذهن أكثر الناس عقلاً وذكاءً وحكمة . فلقد يخلط العاقل بين الأحداث التى مرت فى خبرته بالأمس القريب أو بالأمس البعيد ، وهى تلك الأحداث المتعلقة بالأشخاص الذين اشتركوا فى علاقات اجتماعية معينة . فلقد ينسب شخص عاقل كلامًا إلى أحد الموجودين لم يفهْ به ، بل قاله شخص آخر غيره ممن كانوا موجودين بالموقف . وبتعبير آخر فإن ذاكرة المرء يمكن أن تخونه . وقد تضعف الذاكرة مع كبر السن ، أو قد تصاب بشىء من الارتباك . ناهيك عن الخطأ الذى قد يقع فى ترجمة بعض التصرفات أو الحركات أو الإشارات التى تصدر عن الأشخاص الآخرين . وهذا ما يعرف بأفكار الإشارة ideas of reference . فلقد يتهم أحد المصابين بأفكار الإشارة شخصًا ما بأنه أتى بحركة استهزائية كان يقصد بها إهانته ، أو أنه ابتسم بخبث أو بضحكة استهجانية أو بغير ذلك مما لم يصدر على الإطلاق عن ذلك الشخص الذى يتهمه . فهل تعتقد أن شخصًا كهذا كاذب لأنه يذكر أشياء لم تحدث ، ويلصق الاتهامات بأناس أبرياء ؟ ومعنى هذا فى الواقع أن الصدق الذى يعلن عن وجوب الالتزام به ، مستحيل التطبيق أو مستحيل التوصل إليه فى كثير من المواقف ، وبالنسبة لكثير من الأشخاص .

Looloo
www.dvd4arab.com

المؤيد : ما زلت أقول لك إنك تعرض للحالات الشاذة ، ولا تتناول الصدق كما نفهمه فى المواقف العادية ، وبالنسبة للأشخاص العاديين .

المعارض : أؤكد لك أنى لا أعرض للحالات الشاذة ، بل أتناول الحالات العامة والمتعلقة بمعظم الناس . ولعلى أضيف إلى ما قلته نقطة مهمة أخرى ، تتعلق فى هذه المرة بلغة الكلام المنطوق وبلغة الكلام المكتوب . فالواقع أن الكثير من الناس لا يتسنى لهم التمكن من استخدام لغة الكلام استخدامًا جيدًا وصحيحًا ، بل إنهم يعجزون عن التعبير عن الوقائع والأحداث بدقة ، أو أنهم يشوّهون ما يعبرون عنه من تلك الوقائع والأحداث . فالكثير من الحالات التى يعتبرها الناس كذبًا أخلاقيًا ، لا تعدو أن تكون فى واقع الأمر مجرد عجز عن الإفصاح والإبانة عما يقصد المرء التعبير عنه بالكلام المنطوق . وبالنسبة للكلام المكتوب ، فإنه فى كثير من الأحيان يأتى الكلام الذى يقوم الشخص بكتابته عكس ما يقصد التعبير عنه . ولعل أوضح مثال يساق فى هذا الصدد استخدام لفظ « استبدل » . فقد يصدر أحد المديرين أمرًا على النحو التالى « يستبدل محمد بعمر ، ويحل محله ، ويتولى مهام وظيفته » . فعند التنفيذ ، يحل محل محمد محل عمر ، أى أن عمر يُستبعد ويبقى محمد ، جريًا وراء القاعدة اللغوية التى تستبعد الاسم الذى يتلو حرف الباء . فبينما يقصد ذلك المدير أن يحل عمر محل محمد ، فإن كلامه المكتوب قلب الآية . وعكس المقصود . ولك أن تقف على هذه القاعدة اللغوية الخطيرة فى الآية القرآنية « يستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » (تأمل كلمة « بالذى » التى تسبق « هو خير ») فهل نعتبر الشخص الذى يعبر بعكس ما يقصد صادقا فيما يقول أو يكتب ، أم نعتبره كاذبًا ؟

* * *

المناظرة التاسعة

الصداقة مرهونة بالمصالح المشتركة بين الأصدقاء . فإذا توقفت تلك المصالح انهارت الصداقة ، وإذا ضعفت ضعفت الصداقة .

المؤيد : هناك معنيان للصداقة : معنى رومانسى ، ومعنى آخر واقعى . والمعنى الأول الرومانسى ، وهمى لا أساس له من الصحة . فهو معنى تلوكه ألسنة الأشخاص الخياليين ، الذين يتوهمون وجوده ، مع أن وجوده لا يتعدى نطاق أخيلتهم الواهمة ، فيعتقدون أنه يشير إلى الصداقة الحقيقية ، ومن ثمّ فإنهم يرفضون المعنى الثانى الواقعى للصداقة الذى هو فى الحقيقة المعنى الوحيد لها . فما يُظن أنه صداقة رومانسية ، إنما هو وهم خال من المضمون . ولا غرو فإن هذه الفئة من الأشخاص الرومانسيين الخياليين ، كلما صُدموا فى علاقاتهم العاطفية مع أصدقائهم ، بالحقيقة المُرّة التى لم يكونوا يتوقعونها ، وهى هجران أصدقائهم لهم ، وعدم وقوفهم إلى جانبهم فى الشدائد والمُلمّات التى تجابههم ، بل يقاطعونهم ويلوون وجوههم إذا ما قابلوهم كأنهم لم يسبق لهم أن عرفوهم ، ولم تقم بينهم صداقة على الإطلاق ، فإنهم يفيقون إلى الحقيقة المؤلمة . بيد أن الأشخاص الواقعيين الذين يعرفون أن الصداقة لا تقوم إلا على أساس استمرار المصالح فيما بين الأصدقاء ، لا يعانون من تلك التصرفات والمواقف التى تتقشع فيها علامات المودة ، وتحل محلها اللامبالاة . فهم لا يتعرضون إذن

Looloo
www.dvd4arab.com

للأزمات النفسية التى تلم بالأشخاص الرومانسيين الخياليين ، وذلك لأنهم يتشبثون بالواقعية فى تعاملهم مع الناس . فالعلاقات الاجتماعية فى أنظارهم تنشأ وتتلاشى تمامًا كما تنشأ خلايا الجسم وتتلاشى ، ولا يعمل على استمرار بقائها إلا استمرار المصالح قائمة ونشيطة بين الأشخاص المتعاملين بعضهم مع بعض ، أو الذين يجعلون من المودة أو الصداقة وسائل لتسهيل مصالحهم . فالصداقة ليست إذن سوى عوامل مساعدة لإنجاز المصالح المتبادلة ، ولا تشكل غاية فى ذاتها .

المعارض : إنك بهذا التفسير للصداقة ، وحطُّك من قيمة الصداقة التى أسميتها بالصداقة الرومانسية ، إنما تكون قد نسفت قيمة أساسية من القيم المقدسة التى تعتمد عليها العلاقات الإنسانية . فالصداقة منذ القدم هى الأساس فى هذه العلاقات بين الناس بعضهم وبعض ، وليست المصالح ، أو قل إن الصداقة هى الغاية ، والمصالح المشتركة فيما بين الأصدقاء هى الوسائل التى يتسنى بها العمل على دعم الصداقة والعمل على استمرار بقائها . أما كونك تقلب الآية فتجعل الصداقة هى الوسيلة ، والمصالح المشتركة فيما بين الأصدقاء هى الغاية ، فإنك بذلك تكون قد قلبت الموازين ، بل إنك تكون بذلك قد هدمت القوام المقدس فى العلاقات بين الناس . فالواقع أن الصداقة هى التاج الذى تتوَّج به العلاقات الإنسانية ، بل إنها القيمة المنزهة عن كل قيمة أخرى . ودعنى أسألك : إذا كانت الصداقة ليست سوى وسيلة لدعم المصالح المشتركة فيما بين الأصدقاء ، فما المكانة التى تحتلها التضحية التى يبذلها الأصدقاء بعضهم فى سبيل بعض فى نظرك ، أم أنك لا تجعل للتضحية أى مكانة على الإطلاق ؟

المؤيد : أنا لا أنكر قيمة التضحية ، ولكنى أجعل منها عاملاً نفسيًا خاصًا بالمضحى نفسه . فالمضحى يقدم التضحية إلى من

يحبه ، لا لإخراج من يضحى من أجله من ورطته كما يبدو إذا نظرنا إلى المسألة من الخارج وبطريقة سطحية ، بل إنه يقدم التضحية انطلاقًا من حالة نفسية يحس بها شخصيًا ، ولا تشكل تلك الحالة النفسية قاعدة عامة ، أو قانونا يمكن أن نشرّع بواسطته للعلاقات الإنسانية ، ويضمنها علاقات الصداقة . فالمضحى شخص يعيش فى حالة تشبه الحُلْم تنشأ بينه وبين نفسه ، سواء قبل أن يقدّم التضحية ، أم فى أثناء تقديمها ، أم بعد أن يقدمها . ولكن بعد أن يفيق من حلمه أو مما يشبه الحلم ، إذا كان له أن يفيق منه على الإطلاق ، فإنه يرى الواقع كما هو عاريا من الوهم الذى كان جاثمًا على صدره وجعله فى حالة تشبه الغيبوبة ، فيكتشف أن الصداقة التى كان يعتبرها قيمة مطلقة لا ترتبط بالمصلحة من قريب أو من بعيد ، لا تقوم على التضحية ، بل تقوم على المصالح المتبادلة . وشاهد ذلك أن الشخص الذى ضحّى من أجله ، لا يسير فى الغالب الأعم على النهج الخيالى الوهمى نفسه الذى ينهج وفقه صاحبنا ، فيضحى من أجله كما ضحى هو من أجله فى السابق ، بل إنه يسلك وفق القاعدة الواقعية العامة ، وهى أن المصلحة الشخصية التى يتسنى له أن يجنيها من علاقاته بالأصدقاء ، تشكل الأساس فى تلك العلاقات . وحيث إنه سوف لا يجنى شيئًا من ذلك الصديق الذى ضحى من أجله فى السابق ، ولكنه الآن قد وقع فى ورطة ويتوقع واهمًا أنه سوف يجنى تضحية مماثلة لما ضحى به من أجله فهيهات . فلينخرط ذلك الرومانسى بمطلق الحرية فى مشاعره الرومانسية وفى أوهامه التى لا ترتكز على أى أساس من الواقعية . ذلك أن القانون الخليق بالتطبيق والمراعاة ، هو قانون الواقعية البرىء تمامًا من الرومانسية التى يسقطها من جميع حساباته تمامًا .

Looloo
www.dvd4arab.com

المعارض : إن تلك الواقعية التى تتشبث بها هى فى الواقع الخسة بعينها ، فلا يمكن نعتها بغير ذلك ، وهى الخلو من اسمى المعانى والمشاعر الإنسانية ، التى كللت البشرية عبر الأجيال المتعاقبة . ولو أن الناس جميعًا قد أخذوا بذلك القانون والتزموا به فى علاقاتهم بعضهم ببعض ، وهو القانون الذى تدّعى أنه القانون الخليق بالاتباع ، ما كنا إذن نجد الآباء والأمهات يضحُّون من أجل أولادهم ، فيتحملون فى سبيل تربيتهم الكثير من المشقّات ، بينما لا ينتظرون منهم مكافأة أو ردًا للجميل الذى طوّقوا به أعناقهم طوال مدة رعايتهم لهم . فكيف تقول إن التضحية وهْمٌ ، لا يعتمل إلا فى قلوب الرومانسيين الخياليين غير الواقعين فى علاقاتهم مع الآخرين الذين يُضحُّون من أجلهم ؟

المؤيد : إن ما تذكره عن تضحيات الأب والأم ليس فى الواقع سوى غريزة تعتمل فى أوصالهما ، وبخاصة لدى الأم . وعلى أية حال فإن الوالدين عندما يضحيان من أجل أبنائهما ، فإنما تكون التضحية التى يقدمانها فى حقيقة الأمر تضحية شكلية ، وليست تضحية جوهرية ، أو بتعبير أصرح ، فإن ما يبذلانه من أجل أطفالهما ، إنما هو الأنانية بعينها . ذلك أنهما يحسان أن أولئك الأطفال جزء من قوامهما الجسمى . فهم امتداد بيولوجى ونفسى لهما . فكما أنهما يلتفّان حول ذواتهما ، ويهتمان بجسمهما وبحمايته من البرد والحر والمرض ، فإنهما بالمثل يهتمان بأولئك الأولاد ، فيعملان على حمايتهم من البرد والحر والمرض . فجهودهما من أجل أولادهما لا تندرج إذن فى نطاق التضحية من قريب أو من بعيد ، بل هى التبأور حول الذات ، التى اتسع نطاقها فشملت أولئك الأطفال الذين يعتبرون قوامًا من قوامهما ، وجزءًا لا يتجزأ من صميم وجودهما .

المعارض : وحتى بالنسبة لهذا الفرض الذى تزعمه ، فإن الشعور بالأخوّة البشرية ، التى تجمع الناس قاطبة تحت قبة واحدة ، وفى نطاق قرابة مشتركة ؛ فإننا إذا ما تناولنا الشعور بأن الناس جميعًا يرتدّون إلى أصل واحد من الناحية البيولوجية التى تحتج أنت بها ، وتجعل التضحية انبثاقًا منها ، فإن المرء يحس إذن بأن جميع الناس قريبون منه بيولوجيًا ، ومن ثمّ فإنه يستطيع أن يتخذ من بينهم أصدقاء له يضحى من أجلهم .

المؤيد : إنك فى الواقع تركب أجنحة الخيال ، وتنحو منحى الشعراء والقصاصين . وقد نسيت الحروب التى شاعت بين الأمم والشعوب عبر الأجيال المتعاقبة . فمنذ بدء الخليقة والإنسان متربص بأخيه الإنسان ، بدءًا بولدى آدم اللذين قتل أحدهما الآخر . فالشعور بالامتداد البيولوجى ، لا يعدو إذن نطاق الوالدين بإزاء أطفالهما الصغار . وحتى هذه العاطفة الوالدية ، آخذة فى الانقشاع والتلاشى شيئًا فشيئًا بفعل التطورات الحضارية المتدفقة بدأب . فالكثير من الأمهات يقبلن اليوم على إجهاض أنفسهن والتخلص من الأجنّة التى ملأت بطونهن وتكاد تخرج إلى الحياة ، مما يؤكد عدم وجود أى أثر لعاطفة الأمومة لديهن . ناهيك عن الحوادث المتواترة التى تنشرها الجرائد والمجلات ، ومن بينها قيام بعض الأمهات بقتل أطفالهن للتخلص منهم ومما يعانين منه من تعب وإجهاد فى تربيتهم .

المعارض : وحتى إذا أنا لم أعترض على ما تذكره عن الحروب وفتور العلاقات أو زوالها من قلوب بعض الآباء والأمهات بإزاء أطفالهم ، فإنى أنعى عليك ، لأنك لا تأخذ فى اعتبارك سوى الناحية المالية فحسب ، وتنسى أو تتناسى جميع النواحى الأخرى التى تعتمل فى قوام تلك العلاقات البشرية خلافًا للناحية المادية . هل نسيت

Looloo
www.dvd4arab.com

أن الإنسان يتأثر بمجموعة من العوامل إلى جانب تأثره بالعوامل المادية ؟ أنا لا أنكر أهمية العوامل الاقتصادية وتأثيرها فى العلاقات التى تقوم بين الناس بعضهم وبعض ، ولكن ما أرفضه رفضا قاطعا ، هو الاعتقاد فى أنه لا توجد عوامل أخرى تعتمل فى العلاقات البشرية بين الناس بعضهم وبعض سوى العوامل المادية . فالواقع أن هناك عدة عوامل مؤثرة فى العلاقات الإنسانية يمكن أن استعرض أمثلة أبدأها بالعلاقات الجنسية التى على أساسها لا تنشأ صداقة فحسب بين رجل وامرأة ، بل ينشأ الحب بينهما أيضا ، وهو أقوى من الصداقة بكثير جدًا . ثم هناك الأمزجة المتجانسة والأمزجة المتنافرة . فبعض الناس ينجذبون إلى بعضهم بعضا بفضل توافق أمزجتهم ، بينما يتنافرون مع سواهم لتباين تلك الأمزجة . ولقد عمد كثير من علماء النفس إلى مدارسة موضوع الأمزجة ، وإجراء التجارب بإزائها منذ أبقراط . (انظر كتاب : الشخصية القوية للمؤلف) . وهناك أيضا الأنشطة المشتركة بين مجموعة من الأشخاص تتصف جميعا بالتضحية من أجل قضية عامة مشتركة فيما بينهم . وقد تصل التضحية إلى التعرُّض للموت أو إلى حد الإصابة بالعاهات كما هو الحال فى الحروب ، فلا يكون بين الجنود أى مصالح مالية تربط فيما بينهم ، بل تكون هناك قضية وطنية مشتركة يضحُّون من أجلها . وقد يجمع بين شخص وآخر اهتمام مشترك فيما بينهما ، كما هو الحال عندما تنشأ صداقة بين عالمين أو فيلسوفين ، بسبب اهتمامهما المشترك بالبحث العلمى أو بالنشاط الذهنى الفلسفى . وثمة أخيرا استهداف هدف روحى مشترك بين شخصين أو أكثر كما هو الحال فى نطاق مجموعة من الأشخاص المتدينين كالرهبان فى الأديرة . فهدفهم جميعًا وما يجمع بينهم بروح الصداقة العميقة ، لا يرتبط بالمال

بأى حال ، بل إنهم يزهدون فى المال والملكية ، ولا يتعلقون بالمصالح المالية من قريب أو من بعيد . ففى ضوء هذه الزوايا التى ذكرتها لك ، تستطيع أن تلاحظ أن هناك العديد من الزوايا التى يمكن أن ننظر منها إلى الصداقة . فهى لا تقتصر على زاوية واحدة هى زاوية المصالح المشتركة بين الأصدقاء كما تزعم أنت ومن يجارونك فى هذا التيار النفعى الذى تعتقدون أنه العمود الفقارى الذى تقوم الصداقة على أساسه وبفضله .

المؤيد : الواقع أنى أستطيع أن أتوسع بمفهوم المصالح المشتركة ، بحيث يضم فى نطاقه جميع الأمثلة التى ذكرتها والتى لم تذكرها . فلعلى أصيب الهدف إذا ما أحللت لفظ الأهداف المشتركة ، محل لفظ المصالح المشتركة . فأكون بذلك قد أدخلت الناحية المادية المتعلقة بالمسائل الاقتصادية ، إلى جانب جميع الجوانب الخمسة التى ذكرتها ، بل والجوانب التى لم يتسن لك ذكرها والتعرض لها . المهم أنى أحدد هدفا تتوخاه الصداقة . وفى النهاية فإنى أجعل ذلك الهدف هو الأساس ، بينما أجعل الصداقة هى الوسيلة التى يتسنى بواسطتها تحقيق ذلك الهدف . فالواقع أن المشكلة القائمة بينى وبينك ، أو بين اتجاهى واتجاهك ، تتمثل فى النظر إلى الصداقة وما تحتله من مكانة . فبينما أجعلها أنا مجرد وسيلة لتحقيق غاية ، فإنك تجعلها غاية ، وتجعل الروابط التى تربط فيما بين الأصدقاء مجرد وسائل لتحقيق تلك الغاية .

المعارض : إنك بجعلك الصداقة وسيلة ، والروابط التى تجمع بين الأصدقاء غاية ، فإنك تشبه من يجعل القلم غاية ، وما يقوم الكاتب بتأليفه وسيلة ، أو من يجعل الطعام والماء غاية ، والأكل والشرب وسيلة لتحقيق الحصول على ذلك الطعام . وبتعبير آخر فكما يقول الإنجليز ، فإنك بذلك تكون قد وضعت الحصان خلف العربة ،

Looloo
www.dvd4arab.com

وقلبت الأوضاع . فمن الطبيعى أن يكون ما يقوم الكاتب بتأليفه هو الغاية ، والقلم هو الوسيلة ، وأن يكون الشبع والارتواء هما الغاية ، والطعام والماء هما الوسيلة .

المؤيد : الواقع أن النظر إلى الوسيلة والغاية ، يخضع لمبدأ النسبية ، بمعنى أن أى غاية يمكن أن تعتبر مجرد وسيلة لبلوغ غاية أبعد . فمن الممكن إذن اعتبار أى وسيلة ، غاية من جهة ، ووسيلة من جهة أخرى ، كما يمكن اعتبار أى غاية ، وسيلة من جهة ، وغاية من جهة أخرى . فمثلا بالنسبة للصداقة ، فإنى أستطيع أن أعتبرها غاية إذا أنا توقَّفتُ عندها ، ولم أتطلّع إلى الغايات التى تتلوها . ولكنى إذا اعتبرت أن الصداقة تستهدف الحصول على الشعور بالانتماء ، فإنى عندئذ أعتبرها وسيلة لبلوغ هذه الغاية المتعلقة بالشعور بالانتماء . وإذا أنا تناولت المصالح المشتركة ، أو الاهتمامات المشتركة ، فإنى أستطيع أن أعتبرها غاية ، إذا ما اعتبرت أن الصداقة التى تنشأ بعد اعتمال تلك المصالح والاهتمامات المشتركة مجرد ثمرة أو نتيجة قد تنشأ عنها أو لا تنشأ . ولكن ما أستطيع أن أؤكده ، هو أن تلك المصالح أو الاهتمامات المشتركة إذا ما تلاشت ، فإن الثمرة المتأتية عنها التى تسمى الصداقة ، تتلاشى بدورها ، وإذا ما ضعفت تلك الاهتمامات أو المصالح المشتركة ، فإن ما يسمى بالصداقة يضعف .

المعارض : إنك تتناول الصداقة من زاوية المصالح أو الاهتمامات المشتركة بين الأصدقاء ، وأنا أتناولها من زاوية سيكولوجية. فالواقع أن المرء بحاجة نفسية إلى أن يُحب (بكسر الحاء) ، وأن يُحب (بفتح الحاء) . فبغير أن يشبع المرء نهمه من الارتباط وجدانيًا ببعض الناس ، فإنه يحس بالوحشة والاغتراب عن الواقع الاجتماعى من حوله . ومن هنا فإنك تجد أن جميع الناس يقيمون صداقات بينهم

وبين بعض الناس الذين يختارونهم لا شعوريًا . وحتى الأطفال الصغار لا يستغنون عن إقامة تلك الصداقات التى لا هدف لها سوى إشباع تلك الحاجة النفسية إلى الحب . فالحب هو غذاء القوام النفسى . فلا تقل لى إن المصالح والاهتمامات المشتركة هى التى تؤدى إلى نشأة الصداقة ، بل الأحرى بك أن تقول : إن الحاجة النفسية إلى الصداقة ، هى التى تدفع المرء إلى أن يقيمها . وكما قلت لك قبلا ، فإن أصحاب المزاج النفسى الواحد يألفون ويتقاربون ويقيمون بينهم علاقات ووشائج عاطفية متينة وارتباطات قلبية لا تقبل الانفصام ، بل تستمر طوال العمر .

وحتى إذا حتّمت الظروف على الصديقين بأن ينفصلا ويبتعدا الواحد منهما عن الآخر لفترة طويلة من الزمن ، فإن ذكريات الصداقة تظل قائمة فى ذاكرتهما لا تموت .

المؤيد : إنك فى الواقع تذهب شططا عندما تقول : إن الصداقة تظل نابضة بالحياة والحيوية فى ذاكرة المرء بازاء من أقام بينه وبينهم صداقة متينة . وهذا رأى مخالف للحقيقة . فالواقع أن القطيعة والانفصال الذى قد يحدث بين الأصدقاء ، يعمل بلا مناص على ملاشاة تلك الصداقة التى كانت قائمة بينهما . أما عن الذاكرة فإنها غير مضمونة بأى حال . فالمرء ينسى الناس والعلاقات التى ترتبط بهم ، بعد أن ينقطع عنهم مدة طويلة ، طالما أن الرابطة التى كانت تجمعهم قد انهارت من أساسها . على أنى لا أزعم أن الصداقة تنهار منذ اللحظة الأولى التى يحدث فيها البعاد ، بل إنها تتآكل شيئا فشيئا إلى أن تتلاشى تماما من القلب . وشاهد ذلك تلك الصداقات الكثيرة التى أقمناها عبر حياتنا منذ الطفولة حتى اللحظة الراهنة ، ولكنها خضعت لقانون التعرية الوجدانية ، أى أنها ظلت تتآكل يوما بعد يوم ، وشهرا بعد شهر ، وسنة بعد سنة إلى أن انقضت تماما وتلاشت . وبتعبير آخر فإن الحياة العاطفية ليست شيئا راسخا ثابتا ، بل هى عبارة

Looloo
www.dvd4arab.com

عن أحداث متلاحقة . فمن ينظر إلى العاطفة باعتبارها خاضعة لقانون الرسوخ وعدم التغيُّر ؛ فإنه يكون مخطئًا أشد الخطأ . فالواقع أن الصداقة بهذا المفهوم الخاضع لقانون الحياة الوجدانية ، لا تظل قائمة إذا لم تجد ما يدعمها من المصالح أو الارتباطات أو العلاقات المشتركة ، وأيضا بواسطة الأهداف المتوخاة من جانب المشتركين فى تلك الصداقة .

المعارض : الواقع أن الذاكرة ذاكرتان وليست ذاكرة واحدة : الأولى تلك الذاكرة الواعية التى بمقتضاها نسترجع الأحداث والوقائع والأشخاص بإرادتنا الواعية ، والثانية ذاكرة غير واعية ، هى ما يسمى باللاشعور . وهو المخزن الذى تختزن به الارتباطات العاطفية والذهنية المنسية ، سواء أكانت ارتباطات حسنة أم ارتباطات رديئة . فالصداقة التى نشأت بين المرء وبين أحد أصدقائه ، تترسب فى هذا المخزن اللاشعورى ولا تموت ، بل تظل مُعتملة بداخله . فحتى إذا نسى المرء اسم وشكل الصديق صاحب تلك العلاقات الوجدانية والذهنية التى ارتبطت به ، ولم تسعفه ذاكرته الواعية باستدعائه لها ، فإن اسمه وشكله وجميع ما يتعلق به من عاطفة نشأت بين المرء وبينه ، تكون مختزنة فى ذلك الأرشيف ، بحيث يتسنى بطريقة أو بأخرى استدعاء متعلقاته جميعا ، والخروج بها من ذلك الأرشيف اللاشعورى إلى حيز الذاكرة الواعية . وهذا ما يحاول المحلل النفسى أن يفعله بإزاء من يقوم بتحليله نفسيًا ، وهو أيضا ما يحاول أن يفعله المنوّم المغنطيسى بهذا الصدد . فما تزعمه أنت من أن الصداقة تتبخر وتتلاشى ، زعم فى غير محله . والصحيح أن تقول إن الصداقة قد تنتقل من الذاكرة الشعورية إلى الذاكرة اللاشعورية إذا ما انقطع الأصدقاء بعضهم عن بعض مدة طويلة . ومعنى هذا باختصار أن الصداقة لا تموت وإن كان من الممكن أن تتوارى عن الوعى لفترة تطول أو تقصر .

المؤيد : إنك ما تزال متشبثًا بالنزعة النُّبوتية ، بينما أستند أنا إلى الواقع الموضوعى الذى لا مرْية فيه . فالتغيير والتبدّل لا يشملان العاطفة التى نسميها الصداقة فحسب ، بل إنهما يشملان الأشخاص أنفسهم . فعندما ينفصل صديقان الواحد منهما عن الآخر عدة سنوات ، فإن تغيرات جسمية وشكلية تحدث فى قوامهما . ناهيك عن تلك التغيرات العقلية والوجدانية التى تقع لكل منهما . فالصديق الذى كنت تعتز بصداقته منذ عشرين عاما وانفصلت عنه ولم تشاهده طوال هذه الفترة ، إذا ما قابلته وتعارفتما من جديد ، فإن جوًا من البرود العاطفى يخيّم عليكما . فأنت لا ترى فيه ما كنت تراه وتحسه منذ عشرين عاما . فلقد تغير شكله وتغيرت توجُّهاته النفسية . فما كان يجمعكما بعضكما إلى بعض ، قد انقضى إلى غير رجعة ، فلا تجد لديه تلك العلاقة المشتركة التى كانت تجمعكما قلبيًا . فهو حتى إذا افتعل معانقتك وإبداء الشوق الشديد إليك ، فلا تصدّقه . فالحقيقة أن صداقتكما قد تبخرت منذ فترة طويلة ، وحلت محلها لديه ولديك صداقات كثيرة متعددة ومتنوّعة . فالعلاقات الوجدانية تشبه ماء النهر الذى يذهب إلى غير رجعة ليحل محله ماء جديد . والصداقة القديمة تذهب أيضا إلى غير رجعة بعد انقطاع الصلة بين الصديقين ؛ لتحل محلها صداقات أخرى تعتمد على الروابط الوجدانية الجديدة التى تنشأ الصداقة على أساسها ، ولكن بشرط استمرار دعمها بالروابط المستمرة . فكلما انقشعت تلك الروابط ، انقشعت الصداقة ، وإذا ما ضعفت ، ضعفت الصداقة .

المعارض : أرى أنك متأثر بنظرية التطور التى تحاول تطبيقها على النطاق الفردى فى حياة المرء العاطفية ، فتزعم أن التطور يشمل الحياة الوجدانية فى تطور مستمر ، بدءا من الطفولة حتى الشيخوخة . بيد أن تطبيقك لنظرية التطور على الحياة الوجدانية للمرء مجانب

Looloo
www.dvd4arab.com

للصواب . ذلك أن الحياة الوجدانية ذات عمود فقارى لا يتغير ولا يتطور . فكما قلت لك قبلا ، فإن أصحاب الأمزجة التى فطروا عليها وولدوا بها ، لا تقبل التغير والتطور . وحتى إذا هى تلبّست بأردية متغيرة ، فإن جوهرها لا يتغير ولا يتطور . فطالما أن المرء قد التأم مع صاحب المزاج المماثل لمزاجه ، وارتبطا الواحد منهما بالآخر بروابط الصداقة ، فإن العمود الفقارى لتلك الصداقة لا ينحنى أمام الظروف الخارجية بأى حال من الأحوال ، بل يظل راسخا دون أن تصيبه تعرية أو تغير أو تطور . فالتغير والتطور يصيبان هوامش تلك الروابط الوجدانية فى الصداقة ، ولا يؤثران فى صلب ذلك العمود الفقارى لها .

المؤيد : إنك فى الواقع تقول كلاما إنشائيًا لا أساس له من الواقع الموضوعى الخارجى الذى تقع عليه أعيننا ، ونحسه فى كل يوم . ذلك أن العلاقات الوجدانية ، حتى ولو ترسّبت أصداؤها فى اللاشعور ، وظلت تعتمل به ، فإن صلْبها وقوامها الرئيسى يتلاشى ، ويتبخر إلى غير رجعة ، إذا ما انهارت المصالح التى كانت سببا جوهريًا فى نشأتها وتثبيت أركانها . فما تزعمه من أن اللاشعور عبارة عن ذاكرة تختزن فيه جميع المتعلقات الخاصة بالأصدقاء ، إنما هو كلام أجوف لا يحمل مضمونا حقيقيًا . فكما قلت لك ، فإن ما يختزن باللاشعور ، لا يعدو أن يكون أصداء لتلك العلاقات الوجدانية القديمة . والواقع أنه لا توجد سوى ذاكرة واحدة هى ذاكرة المعلومات . فإذا ما ضاعت تلك المعلومات من هذه الذاكرة الواحدة والوحيدة ، فإنها لا تعود إلى الوجود مرة أخرى . فطالما نسى المرء شكل صديقه واسمه والمكان الذى كان يتعامل فيه معه ، فإن كل شىء يتعلق بذلك الصديق القديم يكون عندئذ قد تلاشى من تلك الذاكرة الواحدة والوحيدة ، ولا رجعة له إليها بأى حال .

المعارض : الواقع أن ما تزعمه من أن ما ينساه المرء يكون قد تلاشى ، هو قول خاطئ من أساسه . فما ننساه لا يضيع ، بل يتوارى عن نطاق تذكرنا فحسب . وشاهد ذلك أن الكثير مما ننساه ، نعود إلى تذكره مرة أخرى . فحتى اسم الصديق القديم الذى انقطعت بينى وبينه الأسباب فنسيته ، قد يقفز فجأة إلى ذاكرتى . وهذا شاهد على أن نسيانى له لم يكن سوى اختباء اسمه فى طيات ذاكرتى ، ولكنه عاد إلى مستوى التذكر بعد ذلك . فمعنى هذا أن الذاكرة تشتمل على مخزونات تذكرية يوجد بعضها على سطحها فيكون استدعاؤه من السهولة بمكان ، بينما يكون بعضها الآخر مطويًا فى لفائفها ، فيكون تذكره بحاجة إلى بعض التريّث لاستدعائه ، والطفو به إلى سطح الذاكرة . ومعنى هذا فى الواقع أن جميع المتعلقات الخاصة بالأصدقاء القدامى ، لم تتبخر كما تزعم ، بل إن من الممكن استرجاعها حتى بعد نسيانها . وهكذا يمكن أن ننتهى إلى القول بأن الصداقة المتينة ، لا تتزعزع ولا تنهار ، حتى ولو لم تربط بين الأصدقاء مصالح مشتركة ، أو روابط عملية من أى نوع .

المؤيد : وحتى بفرض أن كلامك هذا صحيح ، فأنا أعتقد أن التفوق والتبريز فى الحياة ، والحظ الباسم الذى يمكن أن يفيض للمرء ، بينما يبتلى صديقه بالتخلف ، والتقهقر فى الحياة ، مع تآمر الحظ النحس عليه ، تعمل على إشعال نار الغيرة والحقد فى قلب هذا الأخير ، وبالتالى فإن الصداقة تستحيل إلى عداء يكنّه لصديقه الذى تفوق عليه ؟ من المؤكد أنك واقف تماما على تلك التقلبات العاطفية التى تعتور العلاقات الوجدانية بين الناس بعضهم وبعض فى جميع الأعمار ، وفى نطاق مختلف الفئات ، وأن أحباء اليوم قد يستحيلون إلى أعداء الغد . فمعنى هذا أن ما نوكد عليه الصداقة من ثبات

www.dvd4arab.com

واستمرارية وصمود مزعوم ، إنما هو وهم يطوف بأخيلة العشاق والشعراء والقصاصين فحسب . أما الأشخاص الواقعيون ، فإنهم يربطون بين مشاعر الود والحب التى تعمل حسب الظروف فيما يسمى بالصداقة ، وبين الواقع بكل أشكاله ومسمياته . فهذا الواقع هو الدكتاتور المتحكم فى الحالة النفسية التى يكون عليها المرء ، وفى مشاعره الوجدانية التى يحملها للآخرين من حوله . فإذا كان ذلك الواقع موائيا للصداقة وصالحا لاستمرارها ، فإنها تستمر . وإذا اضطرب وصار غير موات لاستمرارها ، فإنها تنهار .

المعارض : الواقع أن المرء محكوم فى سلوكه بخمسة أنواع من العادات : هى العادات الحركية ، والعادات الوجدانية ، والعادات العقلية ، والعادات الكلامية ، والعادات الاجتماعية . وجميع هذه العادات الخمس ، تؤثر بشكل أو بآخر فى شخصية المرء ، وفى استقرار واستمرار الصداقة بينه وبين أصدقائه . فإذا كانت تلك العادات التى يتلبس بها المرء عادات جيدة ، فإنها تكون منسمة إذن بالاستقرار والاستمرار إلى حد بعيد ، ومن ثمّ فإن الصداقة بين الصديقين تكون مستمرة ومستقرة . ومن الطبيعى أن تكون العادات الوجدانية بالنسبة للصداقة ، هى أهم نوع من تلك الأنواع الخمسة من العادات . فالشخص الذى اعتاد أن يثق فى نفسه ، وأن يقدّر مكانته بالمجتمع التقدير المناسب لحجم إمكاناته الشخصية ، يكون مستقرًا وجدانيًا ، وقد اعتاد أن يقيم صداقته على أساس وجدانى سليم . فهو لا يقع فريسة للتقلبات الوجدانية ، وذلك بفضل استقرار عواطفه ، وعدم تذبذبها بين الحب والكراهية . فهو لا يحقد على صديقه إذا ما تفوق عليه ، أو إذا بزّه فى مجال ما من مجالات الحياة المشتركة فيما بينهما . إذن فما تزعمه من اعتمال الغيرة والحقد فى قلب أحد

الصديقين ، لا أساس له من الناحية الواقعية فيما يتعلق بالعلاقات القلبية التى تربطهما الواحد منهما بالآخر ، طالما أنهما سويّان فيما اكتسباه من هذه العادات الخمس التى ذكرتها لك ، وبخاصة العادات الوجدانية .

المؤيد : إنك تحتج بالعادات الخمس التى ذكرتها ، وبخاصة العادات الوجدانية . ولكن ألا تعلم أن ليس هناك أى ضمان لاستقرار الحالة النفسية للمرء ، حتى فى ظل استقرار ما ذكرته من عادات . فالواقع أن العادات ليست هى الديناميات الوحيدة التى تعتمل فى سلوك المرء . فنحن لسنا أسرى تلك العادات ، وهى ليست الحاكم الدكتاتور الذى يخضعنا لسلطانه ، بل إننا نتأثر بها فحسب دون أن تكون أخذة بناصية سلوكنا . فالعادات ليست سوى عوامل مساعدة لتخفيف عبء إعمال العقل فى كل موقف ، وفى جميع الحالات التى يجابهها المرء فى الحياة . ولكن تلك العوامل المساعدة ليست هى العوامل الوحيدة المؤثرة فى سلوكنا . فتقييم المرء لنفسه ، وتقييمه لإمكاناته ، وما يمكن أن يفعله فى حاضره ومستقبله ، قد يفضى إلى خلاصة واضحة أمام ناظريه ، وهى أن إمكاناته محدودة بحدود معينة لا يمكن تجاوزها . ذلك أن تقييمه لنفسه كان فى غير صالحه ، وأن قطار التقدم فى ركب الحياة قد فاته ، وأن طريق النجاح موصد أمامه تماما ، وأن ذلك النجاح الذى أحرزه صديقه بعيد المنال بالنسبة له تماما . فشعور هذا الصديق بالعجز عن التقدم وعن إحراز النجاح ، يعمل بالتأكيد على قلب ظهر المجن لصديقه ، وحقده عليه ، وكراهيته له .

المعارض : أنا لا أنكر أن الغيرة والحقد يعملان على انقشاع الصداقة . ولكن الواقع أن الناس ينقسمون إلى فريقين : فريق المستقرين نفسيًا وعاطفيًا ، وفريق المتقلبين نفسيًا وعاطفيًا ، أو بتعبير آخر فإنهم ينقسمون إلى فريق مسيطر على عواطفه ، وفريق تسيطر

Looloo
www.dvd4arab.com

عواطفه عليه . فإذا كان الصديق من المتقلبين عاطفيًا ، أعنى أنه واحد من أولئك الذين لا يسيطرون على عواطفهم ، فإن صداقته تكون إذن هشة وقابلة للانقشاع والتلاشى بسهولة . ولكن الصداقة المتينة التى تجد التغذية المناسبة لاستمرار بقائها ، وعدم إشعار الصديق الناجح لصديقه الفاشل بأنه أفضل منه ، فإن ذلك يعمل على استمرار الصداقة بينهما واستقرارها .

المؤيد : إنك فى الواقع تُنعم النظر فى دخيلة الصديق ومشاعره بإزاء صديقه ، وكأن المشاعر الوجدانية هى العامل الوحيد المؤثر فى العلاقة بينهما ، وفى استقرار الصداقة التى تجمعهما ، أو فى تصدُّعها ، بينما تُغضى تمامًا عن الأحداث والوقائع الخارجية . فالمسألة ليست مجرد تمتع المرء بالسوية الوجدانية ، أو برجاحة العقل ، بل إن الظروف الواقعية التى تحيط بأحد الصديقين ، كثيرا ماتؤثر فى علاقة الصداقة القائمة بينهما . خذ مثالا لذلك بتورط أحد الصديقين فى فضيحة أخلاقية . فهل يستمر صديقه محتفظا بصداقته لذلك الصديق المتورط فى تلك الفضيحة ، والإحساس بالمشاعر نفسها التى ظل يحملها له قبل تلك السقطة الأخلاقية التى هوى إليها ؟

المعارض : أنا لا أنكر أن ما يشوب سمعة الصديق من تلوث ، يؤثر فى مشاعر صديقه تجاهه . ولكنى أعتقد أن تلك الصداقة التى تربط فيما بينهما ، لا يمكن أن تنقلب من حالة الحب إلى حالة الكراهية ، بل ربما يكون التأثير النفسى فى تلك الحالة ، متسما بالحزن على ذلك الصديق المحبوب . ففى تلك الحالة وأمثالها ، قد يحس الصديق بأن ذلك الصديق قد مات أدبيًا . والموت الأدبى شبيه فى الواقع بالموت الجسدى . فكما أن المرء ينفطر حزنا إذا مات واحد من أحبائه ، فإنه بالمثل ينفطر حزنا إذا مات واحد من أحبائه موتا

أدبيًا . فالحب المعتمل فى قلب الصديق لا يموت ، بل يتخذ صورة الحزن العميق على ما أصاب صديقه من كارثة مدمرة لسمعته . فهو قد يلتمس له المبررات التى أدت إلى تورطه فى تلك الفضيحة . فحبه لصديقه لا ينقشع إذن ، بل يظل معتملا فى قلبه فى هيئة شفقة عليه .

المؤيد : إنك فى الواقع تجانب الصواب ، عندما تزعم أن الصديق بعد أن يكتشف تورُّط صديقه فى إحدى الجرائم الأخلاقية التى تثلم السمعة ، يظل محتفظا له بمشاعر الحب نفسها ، فلا تستحيل إلى مشاعر كراهية بل تتلبس بصورة الشفقة . ولكنك نسيت اعتبارا مهما ، هو أن عدم استحالة الحب إلى كراهية من جانب ذلك الصديق الذى علم يقينا أن صديقه متورط فى جريمة من جرائم الشرف ، معناه أنه مشارك له فى جريمته عن طريق مشاعره وتجاوبه الوجدانى . فالواقع أن كراهية المرء للإجرام يعنى فى الوقت نفسه كراهيته للمجرم . أما التجاوب مع المجرم واستمرار الحب له ، فمعناه الاستهانة بالجريمة واعتبارها شيئا لا يستحق اللوم أو النبذ . فهل تعتقد أن من الممكن أن يكون ذلك الصديق المستمر فى حبه لصديقه الآثم شخصا سويًا من الناحية النفسية ومن الناحية الأخلاقية ؟

المعارض : هناك فرق جوهرى بين استهجان الإثم ، وبين كراهية الشخص المخطئ أو المتورط فى ذلك الإثم . وشاهد ذلك أن الغالبية العظمى من الجرائم ، لا تعدو عن كونها أمراضا نفسية وانحرافات عن السوية . فعندما يصدر القاضى حكما على المجرم بالسجن أو حتى بالإعدام ، فإنه يكون فى إصدار حكمه تحت ضغط العوامل الاجتماعية ، أعنى أن العقوبة بالسجن أو بالإعدام بمثابة تنحية للمجرم عن الناس ، وتخليصهم من عواقب ما يمكن أن يتأتى عما أصيب به من أمراض نفسية ، أو من عوامل تربوية صارت

Looloo
www.dvd4arab.com

مسيطرة عليه تماما . ومن المعروف أن الكثير من الأمراض النفسية التى استفحلت فى قوام المرء ، لا يجدى العلاج النفسى بازائها . وشأنها فى ذلك شأن الأمراض الجسمية الوبيلة التى لا رجاء فى شفاء المريض بها وتخلصه منها . والفرق بين المريض جسميًا بمرض ميئوس من علاجه ، وبين المجرم الذى لا أمل فى إصلاحه ، هو أن المريض جسميًا لا يعتدى على المحيطين به ، بينما يعتدى المريض بالإجرام عليهم . ومن الخطورة بمكان الإبقاء عليه طليقا ليتعامل مع الناس . ومعنى هذا أن المجرم كإنسان ، مباين للإجرام الذى اقترفه . فلو أن الظروف النفسية والتربوية كانت ملائمة وفعالة فى تنشئته تنشئة حسنة ، ومؤثرة فيه تأثيرا إيجابيًا صالحا ، لما كان قد انحرف وأجرم . ناهيك عن أن أشد الناس اجراما ، يحملون مزايا أخلاقية عظيمة بازاء جوانب عديدة من شخصياتهم ، باستثناء ذلك الجانب الضعيف أو المريض الذى صدرت الجريمة عنه . فكيف بعد هذا يمكن أن يحس الصديق بضرورة نبذ صديقه من قلبه ، وهو الذى يعلم يقينا أن تورطه فى الجريمة الأخلاقية التى وقع فيها ، لا يعبر عن جماع شخصيته ، بل يعبر عن قطاع منها فحسب . وكيف له أن يستبعد ما اكتنزه لصديقه من حب وإعزاز طوال فترة صداقتهما بعضهما لبعض ؟ ألا يمكن أن يتورط أى شخص ـ كائنا من كان ـ فى جريمة ما من الجرائم فى لحظة ضعف ، أو فى لحظة انحراف نفسى ، أو فى وقت كان ضميره خلاله غافلا عن مراقبة سلوكه ؟ الواقع أن معظم المذنبين كانت جريمتهم التى حوكموا بسببها ، هى أول جريمة يتورطون فيها ، ولم يكونوا قد تورطوا فى أية جريمة أخرى قبل ذلك .

المؤيد : إنك ما تزال تتفلسف وتبعد عن الواقع الاجتماعى ، وتلتمس أعذارا واهية للمجرمين ، زاعما أن ما يصدر عن الصديق

من جرائم لا يؤثر فى حب صديقه له . وهذا عين المراوغة وعدم استقامة الرأى ، والبعد عن الواقع . وعلى أية حال فأنا أنتقل إلى نقطة أخرى ، وهى تباين المجالات التى ينتحى إليها الأصدقاء . فمثلا فى المرحلة الثانوية قد تنشأ صداقة عميقة بين طالبين ، ولكن بعد الثانوية العامة قد يلتحق واحد منهما بكلية الطب ، والآخر بكلية الطيران . فمما لا شك فيه أن الاهتمامات التى تملأ حياة طالب الطب ، تتباين إلى حد بعيد عن الاهتمامات التى تملأ حياة طالب الطيران . وبالتالى فإن العواطف التى كانت تدور حول محور مشترك بينهما فى أثناء انخراطهما بالمرحلة الثانوية ، تختلف جذريًا عن العواطف التى تلتف حول المحور الوجدانى لكل منهما فى كليته المباينة تماما لكلية الآخر . وبالتالى فإن ما كان يجمعهما من صداقة يتبخر إلى غير رجعة .

المعارض : إنك تحصر المحاور التى يمكن أن تتبلور الصداقة حولها فى محور واحد هو محور الدراسة ، ولكن الواقع أن الصداقة لا تلتف وتتمحور حول محور واحد ، بل تلتف وتتمحور حول العديد من المحاور . فثمة مثلا الانتماء إلى أحد الأندية ، والعلاقات الأسرية بين أسرتيهما ، والاهتمامات الثقافية العامة التى يهتمان بها ، ووسائل التسلية التى يشتركان فيها ويمارسانها سويًا ، والمشكلات النفسية المشتركة بينهما والشائعة فى المرحلة العمرية التى ينخرطان فيها ، إلى غير ذلك من محاور لا تعد ولا تحصى . وبالتالى فإن الصداقة بين هذين الصديقين اللذين ارتبطا وجدانيًا ، وهما بالمرحلة الثانوية لا تتطفئ جذوتها ، بل لقد تقوى أكثر فأكثر ، وذلك بواسطة محاور جديدة تجمع بينهما ، وتؤكد صداقتهما ، فتعوّض بذلك عن المحور المفقود الذى كان يجمعهما فى المرحلة الثانوية .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

المناظرة العاشرة

الاستقلال فى اختيار شريك أو شريكة الحياة ، وتبادل الحب بين الطرفين قبل الخطوبة ، ضرورة حتمية لتحقيق الزواج الناجح .

المؤيد : أنا مؤمن إيمانا قاطعا بضرورة توافر الحرية للشباب من الجنسين لشق طريقهم فى الحياة ، وبخاصة بإزاء اختيار شريك الحياة الذى يناسب كلاً منهم ، ويشبع حاجاته النفسية العاطفية . ذلك أن الميول الشخصية والاستعدادات العاطفية لدى الابن أو البنت ، تختلف كثيرا أو قليلاً عن الميول الشخصية والاستعدادات العاطفية لدى الأب أو الأم ، ولدى الكبار بصفة عامة . من هنا فإن قيام الكبار بعملية اختيار شريك الحياة للشاب أو الشابة ، محفوف بالشكوك فى مدى إمكان إحراز التوفيق فى ذلك الاختيار ، وفى انتقاء شريك الحياة الصالح لحياة زوجية ناجحة .

المعارض : أنا أختلف معك فيما تذهب إليه من أن الشباب من الجنسين ، يجب أن يختاروا شريك الحياة أو شريكة الحياة فى استقلال عن الوالدين ، وبغير تدخل من جانبهما . فالواقع أن الشباب ينساقون فى الغالب وراء ما يعزف على أوتار قلوبهم ، دون إقامة الاعتبار للجوانب الكثيرة التى يجب أن يراعوها لدى اختيار شريك الحياة . وبتعبير آخر فإن العاطفة التى يحس بها الشاب ، أو التى تحس بها الشابة ، هى العامل الوحيد المعتمل فى قلبيهما فى عملية

اختيار شريك الحياة ، مع أن الواقع أن الاختيار الموفق للزواج ، لا يستند إلى ركيزة واحدة ، هى الركيزة العاطفية ، بل يرتكز على العديد من الركائز الموضوعية . وما يحدث فى الواقع يؤكد أن الزيجات التى استقل فيها الشباب باختيار شريك الحياة ، لا تظل قائمة ومستقرة ، بل تنهار فى الغالب بعد وقت قصير ولأتفه الأسباب ، وبخاصة بعد أن يهدأ احتدام عاصفة الحب ، وتستقر العاطفة أو تفتر ، ويظهر الواقع أمام الأعين عاريا ، ويفرض نفسه على العلاقة بين الزوجين ، فتتوتر علاقتهما بعضهما ببعض ، وبالتالى فإن الشركة الزوجية تتعرض للانهيار .

المؤيد : أنا لا أشجع الاختيار المبنى على العاطفة فحسب ، بل أؤكد ضرورة مدارسة الزوايا المتعددة التى توجد فى العلاقات الزوجية ، وبخاصة الزوايا الموضوعية . ولكن ما أرجحه هو قيام الشاب والشابة بعملية مدارسة جميع تلك الزوايا الذاتية والموضوعية . فإضافة الذاتية إلى الموضوعية ، والنظر إلى مشروع الزواج المقبل من الجانب العاطفى ومن الجانب الواقعى جميعا ، وعمل موازنة فيما بين هذين الجانبين ، هو الكفيل بإرساء الزواج على أساس مكين . أما أن يستأثر الوالدان أو غيرهما فى عملية الاختيار ، وإصدار الحكم بأن الزواج سوف يكون موفقا ، فهو موقف مجانب للصواب مجانبة تامة .

المعارض : إنك مخطئ أشد الخطأ عندما تعتقد أن من الممكن مواكبة النظرة العاطفية الذاتية ، مع النظرة الموضوعية الخارجية . فالواقع أن هذين الطرفين لا يتفقان ولا يلتقيان . فالشخص الذى ينظر من الزاوية العاطفية الذاتية ، لا يستطيع أن ينظر من الزاوية الموضوعية الخارجية بأى حال من الأحوال . فهو إما أن ينحاز إلى العاطفة المعتملة بدخيلته ، ويرفض فى الوقت نفسه إقامة الاعتبار

www.dvd4arab.com

للواقع الخارجى ، وإما أن ينحاز إلى الواقع الخارجى الموضوعى ، ويرفض إقامة الاعتبار لما يعتمل بدخيلته من عواطف وانفعالات . وعلى هذا الأساس ، يمكن القول بأن الشاب والشابة ، إذا ما انخرطا فى حالة حب ، وترك الاختيار لهما لكى يقررا مستقبلهما بالزواج الذى يعتقدان أنه سوف يكلل بالنجاح ، هو عين الخطأ ، وذلك لأن الحب أعمى كما يقال فى الأمثال ، وكما يشير الواقع إلى ذلك بالفعل .

المؤيد : أنا أعترف بأن المعادلة صعبة بين العاطفة والواقع ، ولكن الصعوبة لا تعنى الاستحالة . فليس من المستحيل أن يعطى المرء لعاطفته حقها ، وأن يعطى للاعتبارات الواقعية حقها أيضا . بيد أن هذه الصعوبة تخف وطأتها إذا ما أقبل الشاب والشابة على عملية الاختيار النهائى بعد أن يشبا عن الطوق ، وبعد أن تتضح شخصيتيهما نفسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا ، فيتحقق التوازن فيما بين النظرة العاطفية الرومانسية ، وبين النظرة الواقعية الموضوعية . وبذا فإن المعادلة يمكن أن تتحقق بين العاطفة والواقع ، فى عملية الاختيار للزواج الناجح .

المعارض : واضح أنك تناقض نفسك . فأنت تطالب بالحرية للشباب من الجنسين فى اختيار شركاء الحياة وتبادل الحب بينهما من جهة، ولكنك من جهة أخرى تصادر تلك الحرية ولا تسمح بالتمتع بها ، إلا بعد أن ينضج الشاب والشابة ، ويصلا إلى سن معينة لم تحددها ولا تستطيع أن تحددها ؛ لأن مسألة النضج العاطفى تقع فى نطاق النسبية . فثمّة تباين واسع النطاق فيما يتعلق بالنضج العاطفى بالنسبة للناس جميعا . فبالإضافة إلى أن الكثير من الناس لا يتمتعون بهذا النضج طوال حياتهم ، فإن غالبية الناس يتباينون تباينا واسع النطاق بازائه . ومن هنا فإنك تكون قد صادرت الحرية تماما بالنسبة

للشباب بحجة عدم توصّلهم إلى مستوى النضج الضرورى الذى يؤهلهم لحسن اختيار شريك أو شريكة الحياة .

المؤيد : إننى فى الواقع لا أصادر حرية الشباب من الجنسين فى مسألة اختيار شريك الحياة ، ولكنى أعتقد أن المرور فى عملية الاختيار العاطفى والواقعى ، يشكل ضرورة حتمية للتوصل إلى ذلك النضج العاطفى الذى أشير إليه . فالغالبية العظمى من الشبان والشابات قد مروا فى مراهقتهم بحالة حب بعد التعارف بأفراد الجنس الآخر . فأنت واثق كما أنا واثق أيضا ، من أن الشباب اليوم يختلفون اختلافا جذريًا عن شباب الخمسينيات أو الأربعينيات ، فالاختلاط الحالى بين الجنسين على نطاق واسع وفى جميع المجالات ، قد صار حقيقة موضوعية لا تحتاج إلى برهان . فحتى فى المدارس ابتداء من المرحلة الابتدائية حتى الجامعة ، فإن اختلاط الجنسين صار واقعا لا جدال فيه . فالطفل اليوم منذ أن يفتح عينيه على الوجود الاجتماعى من حوله ، ومع مروره فى المراهقة والشباب وحتى آخر العمر ، وهو يتعامل مع الجنس المقابل لجنسه . ولا شك أن ذلك التعامل لا يكون تعاملاً خاليا من العواطف ، بل إنى أؤكد لك أن الأطفال أنفسهم يحسون بشىء من الانجذاب نحو أفراد الجنس المقابل لجنسهم ، وكلما تقدم الواحد منهم فى مراحل العمر ، فإن مشاعر الحب والتعلق تزداد احتداما . فمن المؤكد أن الخبرة الجنسية لا تتأتى للمرء إلا بعد المرور فى مجموعة من المواقف التعلقية بأكثر من شخصية من شخصيات الجنس المقابل لجنسه . وكلما مر فى خبرة فاشلة ، أو بتعبير أدق ، فإنه كلما صدم بالواقع الخارجى الذى يحول بينه وبين الاستمرار فى ذلك الحب ، بحيث يصل به إلى الزواج واستمرار العلاقة ، فإنه يكتسب خبرة أكثر نضجا إلى أن يأتى الوقت الذى

Looloo
www.dvd4arab.com

يستمر فيه الحب إلى ذروته ، أعنى إتمام الزواج . فما قلته من أن الاختيار الحاسم للزواج ، لا يتسنى للمرء إلا بعد النضج ، هو حقيقة مؤكدة بالنسبة للاختيار الناجح لإرساء حياة زوجية ناجحة .

المعارض : إنك تذهب شططًا عندما تطلق للشباب والمراهقين بل وللأطفال العنان لممارسة الحرية الكاملة فى ممارسة الحب ، وإقامة العلاقات العاطفية بينهم وبين الجنس المقابل . فمثل هذه الحرية ، هى التسيُّب بعينه ، وهى إطلاق العنان للشهوات بغير الجام أو انضباط . فأين التربية إذن ، وما دورها إزاء الإنضباط الجنسى ؟ وأين الدور الذى يلعبه المجتمع فى عملية التحكم العاطفى ، والوقوف بالمرصاد أمام أى سلوك غير متسم بالحشمة والوقار ؟ ألا تعلم أن مثل هذه الحرية التى تنادى بها ، تؤدى فى الغالب والأعم إلى الاعتداء الجنسى من جانب الذكور على الإناث ، وقد أغفلوا أو لم يستوعبوا القيم الاجتماعية والدينية المقدسة التى يجب عليهم مراعاتها بدقة وانضباط ؟ فالحرية بهذا المعنى الذى ذهبت إليه هى الشيوعية الجنسية بمعنى الكلمة .

المؤيد : إنك لم تفهم قصدى من المناداة بالحرية للشباب والمراهقين ، بل وللأطفال أيضا فى إقامة علاقات عاطفية بينهم وبين أفراد الجنس المقابل لجنسهم . فليس معنى الحرية التى أرجوها لهم ، أنهم يضربون عُرْض الحائط بالقيم الاجتماعية والدينية ، أو أنهم لا يكونون تحت أنظار الكبار المسئولين عن رعايتهم وتربيتهم . كل ما فى الأمر أن تلك العلاقات العاطفية التى أرى أنها ضرورة لازبة ، تعتبر نتيجة حتمية تأتى عن استمرار العلاقات والتعاملات فيما بين أفراد الجنسين . فهذا قدر لا مفر منه . ولكن على الكبار ، وعلى النظم الاجتماعية أن تراقب الحدود التى يسمح بها لتلك العلاقات

العاطفية الجمالية أن تصل إليها وألا تتعداها . فأنا أفرّق بين العلاقات العاطفية من جهة ، وبين العلاقات الجنسية البيولوجية من جهة أخرى . فالطفل أو المراهق أو الشاب الذى يحس بالارتباط الوجدانى الرومانسى بإحدى زميلاته ، ويتبادلان المودة ، ويحس كل منهما بالرغبة فى مواصلة الكلام والتعامل مع الطرف الآخر ، يجب ألا يتخطيا الحدود التى يجب ألا يخرج ذلك التعامل عن نطاقها ، بل يقف عندها . وإنى لأهيب بك ألا تخدع نفسك ، وتغمض عينيك عن الواقع الفعلى فى تلك العلاقات القائمة بالفعل . فأنا لا أحب تزييف الواقع . فالأجيال القديمة التى كانت تحول بين اختلاط الجنسين وتمنع الأولاد من التحدث مع البنات فى أى مكان أو فى أى مناسبة ، كان يحق للكبار فى ذلك الوقت ، أن يحولوا دون تبادل العواطف بين الذكور والإناث ، أو قل إن الحيلولة دون إقامة علاقات من أى نوع بين الجنسين ، كان يستتبع انعدام إقامة أى علاقات عاطفية بينهما على الإطلاق . ولكن الأوضاع الحالية مباينة تماما . فمن البديهيات أن تنشأ علاقات وجدانية بين الذكور والإناث ، وليس شرطًا أن تكون تلك العلاقات علاقات آثمة ، أو أن تشكل ممارسات جنسية فعلية . فما أؤكده هو أن الفرق جوهرى بين تبادل العواطف ، وبين إشباع الجنس بيولوجيًا .

المعارض : إنك تتهمنى بأنى غير واقعى ، مع أن غير الواقعى هو أنت ، لأنك تفترض إقامة حدود فاصلة فيما بين العواطف الوجدانية ، وبين الممارسات الجنسية البيولوجية . ألا تعلم أن النشاط الجنسى البيولوجى يبدأ بالإدراك الحسى ، ثم يتجه إلى التذوق الجمالى ، ثم إلى التعبير عن ذلك التذوق ، ثم إلى العناق فالقبلات ، وينتهى أخيرًا إلى الممارسة الجنسية الفعلية . فهل من المأمون أن

Looloo
www.dvd4arab.com

يسكت الكبار ويوافقوا على تبادل العواطف بين الجنسين ، ثم بعد ذلك يحولون دون المرور عبر الخطوات التالية التى ذكرتها لك ؟ إنى أشك فى إمكان الوقوف عند هذه الحدود التى تفصل بين تبادل المشاعر الوجدانية ، وبين الممارسات الجنسية الفعلية . وشاهد ذلك ما تنشره الجرائد والمجلات عن الاعتداءات الجنسية من جانب الذكور على الإناث فى غفلة من جانب الكبار . ناهيك عن الحالات الصارخة التى تصل إلى حد هتك الأعراض .

المؤيد : ما زلت أقول : إنى مستمسك بالنظرة الواقعية . فالعجيب أنك تطالب بعدم تبادل المشاعر الوجدانية بين الجنسين فى شتى مراحل التعليم ، مع أنك توافق على التعامل الاجتماعى بينهم . فمن الطبيعى أن معاهد التعليم التى تضم البنين والبنات ، لا تستطيع أن تأمرهم بالتوقف عند حدود التعامل الخالى من أى عاطفة ، وألا يحس أى منهم بأى عاطفة تجاه الجنس الآخر . فهل من المعقول أن تكون هناك أى علاقة ـ كائنة ما تكون ـ خالية من أى عاطفة ؟ وهل من المعقول أن تنشأ العاطفة فى قوام الشاب أو الشابة ، وفى الوقت نفسه تُكبت ولا تجد لها تعبيرا ، ولا تستحيل إلى علاقة عاطفية ؟ فلأكن أكثر صراحة معك . إذا أنت أردت عدم قيام أى علاقة عاطفية بين الجنسين ، فلتعلنها صراحة بمنع الاختلاط بينهما تماما ، سواء فى المؤسسات التعليمية ، أم فى أى مكان وفى أى مناسبة . ولكن ضع فى اعتبارك أن الغالبية العظمى من الناشئة من أطفال ومراهقين وشباب من الجنسين ، مفعمون بالثورة ، والاستهانة بسيطرة الكبار عليهم ، وبالتالى فإنهم يضربون بالقيم السائدة بالمجتمع عرض الحائط . فلم تعد سلطة المربين تحتل المكانة نفسها التى كان يتمتع بها الكبار من آباء وأمهات ومعلمين ومعلمات فى الأجيال القديمة . ومن

هنا فلا مفر من التسليم بالأمر الواقع ، وأن يبدأ المربون بما يعتمل فى قوام الصغار وبما يشيع بينهم من قيم وبما يدور بخلدهم من فكر . فأنا لا أريد أن تكون هناك فرقة واسعة النطاق فيما بين عالم الكبار وعالم الصغار ، ولا أريد أن تقطع الصلة بين العالمين . فلا بد إذن من اتخاذ موقف وسط بين القيم المطلقة التى كانت سائدة فى العصور القديمة ، وبين القيم النسبية التى تعتمل فى عقول وقلوب الصغار . فالناشئة اليوم لا ينظرون إلى العواطف التى تجذبهم إلى الجنس المقابل لجنسهم بنفس النظرة التى كان الآباء والأجداد ينظرون بها . فهم يرغبون فى اقتناص أكبر مساحة ممكنة للاستمتاع بحياتهم . فبينما كانت الأجيال القديمة توجّل الاستمتاع باللذائذ بجميع أنواعها ، وتخضع نفسها للتقشف والاخشوشان ، وتبتعد تماما عن إقامة أى علاقات من أى شكل مع الجنس المقابل لجنسها ، فإن الأجيال الحديثة تمعن فى إقامة العلاقات المستمرة مع أفراد الجنس المقابل ، ولا تستشعر الخجل أو الخوف من الانتقاد من جانب الكبار ، بل إنها تستهزئ بهم ، وتعلن عن أن جيل الكبار هو جيل رجعى ومعقّد بإزاء المسائل الجنسية ، مما يحمله على عزل الجنسين بعضهما عن بعض ، مع أن الخليق بالجنسين أن يتعاملا بعضهما مع بعض ، وأن يتبادلا الاهتمامات المشتركة فيما بينهما ، بل وأن يتبادلا العواطف أيضا .

المعارض : هل أفهم من هذا أنك تريد من عالم الكبار أن يخضع لعالم الصغار ، وأن يتوقف الآباء والأمهات والمعلمون والمعلمات عن توجيه وتربية الصغار فى ضوء القيم الدينية والاجتماعية ، التى توارثتها الأجيال بعضها عن بعض عبر الزمان ؟ وهل أفهم من كلامك أنك تنادى بإطلاق الحرية لما يشاء الصغار

Looloo
www.dvd4arab.com

اتيانه من تصرفات ، وأن يحققوا ما يرغبون فى تحقيقه فى حياتهم من أنشطة جنسية دون محاسبة أو عقاب أو ردْع ؟

المؤيد : أنا لم أقل ذلك بالضبط ، ولكنى أرغب فى أن نستحدث نوعا من التفاعل ، فيما بين القيم المتوارثة المتعلقة بالمسائل الجنسية من جهة ، وبين الواقع الذى يعيشه ويحسه الصغار من جهة أخرى . فطالما أن الكبار حماة القيم المتوارثة المتعلقة بالمسائل الجنسية ، والصغار يحسون بما يناهض أو يباين تلك القيم المتوارثة ، فلا يكون من مناص إذن من أن نبحث عن طريقة ما لتحقيق التفاعل بين تلك القيم المتوارثة مع الواقع الذى يحمله الصغار فى قلوبهم وعقولهم اليوم ، حتى لا تحدث بالتالى عزلة بينهم وبين عالم الكبار ويخاصمونه ، أو لا يكاشفونه على الأقل بما فى جعبتهم من قيم جديدة خاصة بهم ، مباينة لقيم الآباء والأمهات والمعلمين والمعلمات . وبتعبير آخر فإن من الواجب محاولة التوفيق بين ما يؤمن به الكبار ، وبين ما يؤمن به الصغار .

المعارض : أنا لا أريد أن ندخل فى مناقشة مشكلات فلسفية ، بل أريد ان نضع النقط على الحروف ، فنعرض أمامنا بالضبط ماذا تريد عمله فى ضوء خطة واضحة المعالم ومحددة المقوّمات .

المؤيد : أوافقك تماما على طلبك هذا ، ولأبدأ بالخطوة الأولى فى خطتى ، وهى توفير فرص التعاون ، وفرص التنافس بين الجنسين فى نطاق النظام المدرسى . فما يجب أن نبدأ به فورا ، هو فتح مجالات التعاون والتنافس أمام الجنسين فى نطاق المدرسة والمعهد والكلية . ولعل أفضل طريقة يمكن أن يتم بها ذلك التعاون وذلك التنافس فى وقت واحد ، هى طريقة المجموعات . فمن الممكن

تشكيل عدد من المجموعات من التلاميذ والطلاب ، بحيث يسود التعاون فى نطاق كل مجموعة من جهة ، بينما يشتعل التنافس بين كل مجموعة والمجموعات الأخرى من جهة أخرى . على أن تلك المجموعات يجب ألا تكون مجموعات استاتيكية لا تتغير ولا تتطور ، بل يجب أن تكون مجموعات ديناميكية تتغير وتتطور فى ضوء الأهداف الخصبة والمتطورة التى يحددها المربى أمامها ، أو يحددها رواد تلك المجموعات من التلاميذ والطلبة أنفسهم . وواضح أن الهدف الحقيقى من تشكيل تلك المجموعات وممارسة النشاط بواسطتها ، سواء أكان نشاطا علميًا ، أم نشاطا اجتماعيًا ، أم نشاطا رياضيًا ، هو توفير الفرص الكافية أمام الجنسين للتعامل بعضهما مع بعض ، وفى الوقت نفسه تكون العواطف السائدة بين جميع الأفراد والمجموعات ، عواطف صداقة وتعارف واعتياد على كيفية التعامل مع الجنس المقابل . ذلك أن الكثير من المشكلات التى تنشأ بين الرجل والمرأة فى الحياة الزوجية ، تنبع من الشعور بالاغتراب عن الجنس المقابل لجنس كل منهما ، وعدم الاعتياد على وسائل التعامل معه . وهذا لا يمنع بالطبع من أن تكون الأهداف المعلنة أمام جميع التلاميذ والطلاب فى المجموعات التى تتعاون وتتنافس ، أهدافا أخرى غير هذا الهدف الذى يُضمّره المربى بينه وبين نفسه ، والذى يريد له أن يتحقق عن طريق تلك الأهداف المعلنة على الصغار .

المعارض : أنا أوافقك على هذا مع التحفظ بازاء إطلاق الحرية الكاملة للمجموعات للتعامل بين أفرادها . فأنا أخشى أن تتسلل الرغبات الجنسية ، أو التعلقات العاطفية بين بعض أفراد المجموعة الواحدة من الجنسين ، فتقع أحداث لا تُحمد مغبتها .

Looloo
www.dvd4arab.com

المؤيد : لا تخش من ذلك طالما أن المربى يضمن عدم وجود فراغات زمنية خالية من أى نشاط جماعى . فالواقع أن الانحرافات الجنسية لا تنشأ إلا فى حالة تركيز الذهن والعاطفة بين شخص وشخص آخر بالذات . أما إذا توزع الفكر والعاطفة على عدد كبير من أفراد الجنس الآخر ، فلا يكون عندئذ خوف من حدوث التعلقات الجنسية التى يُخشى حدوثها . وعلى هذا فإن على المربى أن يتقن وضع الخطط الكفيلة بشغل المجموعات فى أنشطة تجمع بين التعاون والتنافس فى الوقت نفسه .

المعارض : ولكن كيف يتسنى القيام بنشاط يكون تعاونيًا من جهة ، وتنافسيًا من جهة أخرى ؟

المؤيد : خذ مثالاً بأى لعبة رياضية . ففى ممارسة لعبة كرة القدم أو كرة اليد مثلاً ، تلعب مجموعة ضد مجموعة أخرى ، أو أنها تتنافس مع المجموعة التى تلعب ضدها . ولكن كل مجموعة من هاتين المجموعتين المتنافستين تتعاون فى نطاقها بين أفرادها . وما ينطبق بإزاء النشاط الرياضى ، ينسحب أيضًا بإزاء أى نشاط ثقافى أو اجتماعى أو بإزاء أى نشاط آخر كائنًا ما يكون .

المعارض : أوافقك على ما ذكرته خاصًا بالخطوة الأولى من خطتك . فما هى إذن الخطوة التالية فى مشروعك التربوى الجنسى ؟

المؤيد : أما الخطوة الثانية ، فهى خطوة جريئة ، ولكنها ضرورية وحتمية ، ما دمنا نأخذ بنظام اختلاط الجنسين ، وهى تتمثل فى إقامة جسر من التعاون الفردى بين كل ولد وكل بنت لتحقيق هدف مشترك بينهما فى حجرة الدراسة . فيقوم المربى بالإعلان عن مسابقة يشترك فيها تلاميذ أو طلبة الفصل ، على هيئة لجان ، تتشكل كل

لجنة منها من تلميذ وتلميذة أو من طالب وطالبة . وتحدد مدة ولتكن أسبوعا للإعداد لتلك المسابقة التى قد تكون مسابقة منطوقة أو مسابقة مكتوبة أو مصوَّرة أو مرسومة أو مؤداة موسيقيًا أو تمثيليًا . وطبيعى أن اللجان المزدوجة لا تفرض على التلاميذ أو الطلاب ، بل يقوم التلاميذ أو الطلاب أنفسهم باختيار شركائهم وشريكاتهم بأنفسهم بحرية تامة دون تدخل أو فرض من جانب المدرس . وبالتالى فإن كل اثنين (ولد وبنت) من التلاميذ أو الطلاب يجلسان على مقعدين متجاورين طوال اليوم المدرسى . ومن ثمَّ فلا يكون الأولاد فى عزلة عن البنات ، ولكن بشرط أن يُكفل النشاط المحدد أمام الجميع ، حتى ينبنى التعاون بين كل ولد وبنت على أساس موضوعى . وبذا يتحقق جانب مهم من جوانب التربية الجنسية .

المعارض : إنك تفترض أنك تتعامل مع مجتمع من الملائكة . ألا تخشى من أن تتطور العلاقات بين الجنسين وفق هذا النظام ، وبخاصة فى المرحلة الثانوية ، إلى ما لا تحمد عقباه وألا تخشى على البنات من ألاعيب بعض الشبان وإغوائهم للبنات ؟

المؤيد : الحق أن الخطر الحقيقى يتأتى عن تواجد الذكور مع الإناث كمجموعتين فى عزلة الواحدة منهما عن الأخرى . فاحتلال الأولاد لنصف حجرة الدراسة ، وفى مقابلهم البنات مجتمعات ، هو الخطر بعينه . ذلك أن الجاذبية الجنسية تتأجج فى حالة الوجود سويًا كفريقين متباعدين : فريق الذكور من جهة ، وفريق الإناث من جهة أخرى . ففى مثل هذا الوضع يبدأ الصراع بين الجنسين ، ولكنه صراع يسبق الاقتناص . فكل ذكر من الأولاد المراهقين أو الشبان ، يعتبر أن الأنثى التى تعجبه من مجموعة الإناث ، بمثابة فريسة عليه أن يقتنصها . فإذا نجح فى لفت نظرها ، أو التحدث معها بعيدا عن

Looloo
www.dvd4arab.com

أعين الرقباء من المعلمين ، فإنه يعتبر أنه قد نجح فى تحقيق الفرصة السانحة لاقتناص فريسته ، فيحاول بعد ذلك ضرب موعد لها بعيدا عن المدرسة وعن الزملاء المنافسين له فى اقتناصها . ومع تكرار المقابلات فى أمكنة بعيدة عن المدرسة ، يحدث الاعتداء الجنسى الذى لا تحمد مغبته . أما إذا توافرت فرص التعاون بين أفراد الأولاد وأفراد البنات ، فإن هذه الحرية المنظمة ، تكون كفيلة بحماية الأولاد والبنات جميعا ، فلا ينظر الأولاد إلى البنات باعتبارهن فرائس يتسابقون على افتراسها ، بل ينظرون إليهن باعتبارهن زميلات يمكن التعاون معهن لتحقيق أهداف مشتركة تتمثل فى تلك المسابقات التى أشرنا إليها قبلا .

المعارض : على الرغم من أنى لا أوافقك تماما على هذه الخطوة ، لأنى أشك فى مدى جدواها ونجاحها ، فإنى أوافقك على أن تقسيم الفصل الواحد إلى فريقين : أحدهما فريق الذكور مجتمعين ، والثانى فريق الإناث مجتمعات ، محفوف بالأخطار السلوكية من الجانبين ، وليس من جانب الذكور فحسب .

المؤيد : أحب أن أضيف نقطة مهمة بالنسبة لعزل مجتمع الذكور من التلاميذ والطلاب عن مجتمع الإناث من التلميذات والطالبات ، وهى توجيه دفة الغريزة الجنسية وجهة مثلية . ذلك أن الكثير من عوامل تثبيت الرغبات الجنسية فى نطاق الجنس الواحد ، أعنى توجيه الميول الجنسية لدى الولد إلى الأولاد ، وتوجيه الميول الجنسية لدى البنت إلى البنات ، مما قد يتأتى عنه اللواط Sodomy بالنسبة للذكور ، والسحاق Lesbian بالنسبة للإناث ، يرجع إلى هذا العزل . ولكن فى ضوء ما ذكرته لك من تعامل الولد مع البنت فى نطاق المؤسسات التعليمية ، فإن الميول الجنسية لدى الذكور والإناث

تتجه الوجهة السليمة ، وبذا لا تنشأ انحرافات جنسية مثلية ، سواء بالنسبة للتلاميذ والطلاب ، أم بالنسبة للتلميذات والطالبات . وطالما أن التربية الجنسية تكون سليمة فى مرحلة التنشئة بالمدارس والمعاهد والكليات ، فإن جانبا كبيرا من المشكلات الجنسية التى يتعرض لها الأزواج والزوجات ، لا ينشأ ، ولا يشكل عائقا أمام تحقيق الزواج الناجح .

المعارض : أنا أوافقك على هذا ، ولكن ما صلته بموضوع المناظرة التى تذهب إلى ضرورة استقلال الشباب فى اختيار شركاء الزواج فى المستقبل ، وتبادل الحب بينهما قبل الخطوبة والزواج ؟

المؤيد : الواقع أن الصلة وثيقة للغاية بين التربية الجنسية التى عرضت لك خطوتين أساسيتين بإزائها ، وبين قدرة الشاب والشابة على تحمل مسئولية الاختيار لشركة حياتية مستقبلية مستقرة ، ولممارسة الحب الذى يجب أن يسبق الخطوبة والزواج . فاسمح لى أن أقدم إليك الخطوة الثالثة فى البرنامج الذى أقترحه لتحقيق حياة زوجية ناجحة ومستقرة .

المعارض : تفضل يا أخى .

المؤيد : لا شك أن التربية الجنسية التى يكون المرء قد تلقاها عن طريق إقامة العلاقات السوية بينه وبين الجنس الآخر بدءا من الطفولة ، ومرورا بالمراهقة والشباب ، تكون قد أرست قواعد العلاقة السليمة بين الذكر والأنثى ، وهى العلاقة التى تقوم على أساس التعاون بين الأفراد من جهة ، والتنافس بين المجموعات من جهة أخرى . وهذه العلاقة بين الجنسين لا تنقطع بعد انتهاء سنى الدراسة بمعاهد التعليم ، بل تمتد إلى مقار العمل المتباينة . وفى هذا المناخ

Looloo
www.dvd4arab.com

الجديد تنشأ علاقات الود والصداقة بين الذكور والإناث . ولكن فى هذه المرحلة العمرية ، لا تكون المسئولية موكلة إلى مشرفين كالمدرسين والأساتذة بمعاهد التعليم ، بل تكون موكلة إلى الأشخاص أنفسهم ، أعنى أن الشاب والشابة يمسكان بزمام المسئولية المتعلقة بمستقبلهما العاطفى والأسرى . وفى هذا المناخ المتسم بالحرية والانضباط فى الوقت نفسه ، تتوافر الخيارات العديدة أمام الشباب من الجنسين للاختيار الحر الخالى من أى ضغوط خارجية . وحيث إن الشباب من الجنسين يكونون قد تدربوا جميعا على أصول التعامل فيما بينهم ، واستوعبوا التربية الجنسية السليمة ، بدءًا بالحضانة وانتهاء إلى المعهد أو الجامعة ، فإن القدرة على الاختيار تكون إذن متوافرة لديهم جميعًا . وحتى إذا نحن اعترفنا بأن البعض من الشباب سوف يسيئون الاختيار ، وأن قلة قليلة منهم سوف يشذون عن القاعدة العامة ، فإن الغالبية العظمى منهم سوف تنحو إلى الخيار المناسب من بين الخيارات الكثيرة المتوافرة بهذا المناخ المنفتح على مصراعيه أمامهم . ففى ظل هذا المناخ المنفتح ، سوف تتحقق المعادلة بين نداء العاطفة من جهة ، وبين نداء الواقع العملى والإمكانات المتوافرة التى يتسنى لها أن تمهّد للزواج الناجح من جهة أخرى . فبعد توافر هذا المستوى من النضج العاطفى والنضج الاجتماعى الواقعى ، سوف يكون الاختيار للزواج عاطفيًا من جهة ، وواقعيًا من جهة أخرى .

المعارض : أنا لا أوافقك على هذه النقطة الأخيرة ، التى تذهب فيها إلى القول بأن من الممكن التوفيق بين نداء القلب ونداء الواقع ، أو حسب تعبيرك ، تحقيق الاختيار للزواج عاطفيًا من جهة ، وواقعيًا من جهة أخرى . ألست معى فى أن ثمة تناقضًا بين العاطفة وبين

الواقع ، إن هذا ما نشاهده على أرض الواقع من جهة ، وفيما تعبّر عنه القصص والمسرحيات والأفلام السينمائية التى تعبر تعبيرًا صادقا عن الواقع الفعلى الممارس فى الحياة العملية من جهة أخرى . فنجد فيها أن الشاب الفقير قد تعلق بشابة ثرية ، ولكن بعد قصة حب عنيفة بينهما ، يقع اختيار الشابة الثرية على شاب ثرى كفئا لها فى وضعها المرموق للزواج منه ، إذ إنها لا تستطيع أن تتدنى إلى مستوى ذلك الشاب الفقير ، وقد فضّلت عليه الشاب الثرى برغم أنها لا تحبه ، وذلك حرصًا منها على مستقبلها ، وعلى الحفاظ على مكانة أسرتها الاجتماعى . فما رأيك ؟

المؤيد : أرى أنه لا يوجد تناقض فيما بين النزعة العاطفية والنزعة الواقعية ، بل هناك تضاد فقط فيما بينهما . فكما تعلم فإن التناقض كما هو الحال بين الوجود والعدم ، أو بين الحياة والموت . أما التضاد ، فهو كما هو الحال بين البياض والسواد ، أو بين الغنى والفقر ، وهو ما عرضت له فى المثال السابق . فالشاب الفقير لديه مال أقل مما لدى الشابة الغنية ، أو أن لديها هى مالا أكثر مما لديه . فالمسألة إذن تنحصر فى الكم القابل للزيادة والنقصان ، ولا تتعلق بالكيف مثلما الحال بين الوجود والعدم ، أو بين الحياة والموت . والتوفيق فى حالة التضاد بين الطرفين المتضادين ممكن ، إذا ما نظرت تلك الشابة إلى المسألة من زاوية التضاد ، ولم تتخيل خطأ أن بين الغنى والفقر تناقضًا . وبتعبير آخر فإن من الممكن التوفيق بين النزعة الوجدانية المتمثلة فى الحب العميق بين الشاب والشابة ، وبين النظرة الواقعية إلى الحياة . فمن الممكن أن يستحيل ذلك الشاب رقيق الحال اليوم ، إلى شخص غنى فى المستقبل ، كما يمكن أن تستحيل أسرة الشابة الغنية إلى أسرة فقيرة لسبب أو آخر من الأسباب الكثيرة

Looloo
www.dvd4arab.com

التى تعمل على تغيير المستويات الاقتصادية بالمجتمع من حال الغنى إلى حال الفقر ، ومن الجاه إلى العوز والفاقة .

المعارض : أنت تبسّط الأمور أكثر من اللازم ، ولكنى سوف أمرّر هذه النقطة ، وأسألك : هل العاطفة تسبق الواقع فى عملية الاختيار بعد التخرج والانخراط فى الحياة العملية ، أم أن الواقع والظروف العملية هى التى تسبق العاطفة فى عملية الاختيار ؟

المؤيد : أنا أعتقد أن ثمة ارتباطًا وثيقًا فيما بين العاطفة والواقع ، وأن من الصعب تحديد الأولوية فى الحدوث . ولكنى أستطيع أن أقول مع ذلك : إن هناك فئتين من الناس : فئة العاطفيين ، وفئة الواقعيين . فبالنسبة لفئة العاطفيين ، فإن العاطفة لديهم هى التى تسبق الواقع فى عملية الاختيار . أما بالنسبة لفئة الواقعيين . فإن الواقع وتقدير الظروف العملية يسبقان العاطفة فى عملية الاختيار . ولكن حتى بالنسبة للفئتين ، فإنهما لا تغضّان النظر عن زاوية العاطفة وزاوية الواقع ، بل لا بد من أخذ الزاويتين فى الاعتبار .

المعارض : ولكن بالنسبة لفئة العاطفيين ، ألا ترى معى أن البدء بتلبية نداء العاطفة عند الواحد أو الواحدة منهما يعمل على إغفال الواقع والممكن ؟

المؤيد : لا أعتقد ذلك . فالشخص الذى ينتمى إلى فئة العاطفيين ، لا يكون فى الواقع مجرّدًا من النظرة الواقعية ، بل إن العاطفة لديه تكون متغلبة بعض الشىء على النظرة الواقعية ، وقد يكون ذلك التغلب بتفاوت ضئيل . فقد يكون تغلب العاطفة على النظرة الواقعية بمقدار ٥٪ أو أقل من هذا فحسب . فلا يشكّل الترجيح فى هذه الحالة عائقًا أمام تناول الموقف بطريقة سهلة .

المعارض : سوف أمرّر هذه النقطة أيضا ، ولكنى أتساءل عن المدى الذى يمكن أن يصل إليه الحب بين الطرفين اللذين تعلّق قلباهما بعضهما ببعض قبل الخطوبة الرسمية ؟ وبتعبير آخر ، فهل أنت تؤمن بضرورة اعتمال الحب بين الطرفين ، وهل يعبّران عنه بطريقة أو بأخرى فى علاقتهما سويًا ؟

المؤيد : أنا أؤمن بشكل قاطع أن الحب قبل الخطوبة ، يجب ألا يتعدى حدود الرومانسية ، بمعنى أنه يشكل موقفا عاطفيًا يحتل مكانا فيما بين الصداقة والعشق . فإذا خرج الحب عن النقطة الوسيطة فيما بين هذه الطرفين ، فإنه يكون خطرا عليهما . ذلك أنه إذا لم تتحقق الصداقة العميقة بين الطرفين ، فإن مشروع الخطوبة ، لا يكون مبنيًا إذن على أرض صلبة . وكذا فإنه إذا دخل فى إطار العشق عن طريق تبادل القبلات العميقة والأحضان الدافئة ، فإنه لا يكون مبنيًا بالمثل على أرض صلبة . فلكى يكون الحب فى هذه المرحلة قويًا ومتينا وصالحا للتمهيد لخطوبة ناجحة ، فإنه يجب أن يتخذ الموقف الوسط الذى ذكرته لك ، أى أنه يجب أن يتخذ له موقعًا وسيطا فيما بين الصداقة العميقة ، وبين العشق ، ولا ينحرف عن ذلك الموقع الوسيط بأى حال من الأحوال .

المعارض : أعترض عليك بصدد هذه النقطة . فإن اتخاذ الموقف الوسيط بين الصداقة وبين العشق من المستحيلات . فالواقع أن الحب لا يعرف ولا يعترف بالوسطية التى تدعو إليها . فإما أن العلاقة بين الطرفين لا تتعدى نطاق الصداقة ، وإما أنها تستحيل إلى عشق . فلا توجد نقاط أو مراحل وسيطة بينهما . فقل لى بصراحة ماذا تقصد من كلامك هذا ؟ هل يكون الشاب والشابة صديقين ، أم يكونان عاشقين ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

المؤيد : دعنا نضع النقط على الحروف ، فنلقى الضوء أولا على معنى الصداقة ، ثم نلقى الضوء بعد ذلك على معنى العشق على النحو التالى : ***أولاً ـ توافق المزاجين :*** فمن المستحيل أن تقوم صداقة بين شخصين إلا إذا كان ثمة توافق تام بين مزاجى كل منهما . والواقع أن علماء النفس قد حددوا أنواع الأمزجة التى ينخرط الناس جميعًا فى نطاقها . فإذا كان مزاج الشاب منسجمًا مع مزاج الشابة ، فإن الصداقة يمكن أن تنشأ وتتأكد فيما بينهما . ***ثانيًا ـ توافق الاهتمامات :*** فالواقع أن الاهتمامات تنصب على الواقع الخارجى . فإذا كانت الاهتمامات بين الطرفين متقاربة ، أو على الأقل غير متضاربة ، فإن الصداقة بين الطرفين يمكن أن تنشأ . ***ثالثًا ـ انسجام القيم بين الطرفين :*** والقيم هى المعايير الذهنية الوجدانية التى نستعين بها فى تقدير الخير والشر من جهة ، والمناسب وغير المناسب من الأقوال والتصرفات من جهة ثانية ، والجميل والقبيح فيما تقع عليه حواسنا من جهة ثالثة . فكلما كانت القيم التى يأخذ بها الشاب والشابة نفسيهما متوافقة ومنسجمة بعضها مع بعض ، فإن إمكان قيام الصداقة فيما بينهما تكون فرصته أكثر رجحانا . ***رابعًا ـ مستوى الذكاء والقدرات الخاصة :*** فكلما كان مستوى الذكاء والقدرات الخاصة متقاربين بين الشاب والشابة ، فإن إمكان قيام الصداقة فيما بينهما ، يكون أكثر ترجيحًا واحتمالا . ***خامسًا ـ وجود نشاط مشترك فيما بين الطرفين :*** فكلما كانت هناك أنشطة مشتركة فيما بين الشاب والشابة ، فإن الفرصة تكون بالتالى سانحة لقيام الصداقة فيما بينهما .

المعارض : ليس لدى اعتراض على هذه النقاط الخمس التى قمت بعرضها كأسس تقوم عليها الصداقة . فهل لك أن تقدم لنا الأسس التى يقوم عليها العشق .

المؤيد : بالنسبة للعشق ، فإنى أقدم الأسس التى يقوم عليها على النحو التالى : ***أولاً ـ التذوق الجنسى :*** فالواقع أن ممارسة الجنس شبيهة إلى حد بعيد بتناول الطعام . فكما أن الطعام الذى يقدّم أمام المرء ، قد يكون حلو المذاق ، كما أنه قد يكون منفرًا ، فلا يستسيغه ، بينما يستسيغه غيره ويقبل عليه بشهية والتذاذ ، كذا فإن النظرة إلى المرأة من جانب الرجل ، أو النظرة إلى الرجل من جانب المرأة ، قد تكون نظرة اشتهائية ، كما قد تكون نظرة تقززية . ***ثانيًا ـ الانجذاب الهورمونى :*** فالواقع أن ثمة مقومات جنسية معينة تعمل على جذب الجنس المقابل إليها ، عندما يكون الواحد من أفرادها حاملاً لنفس تلك المقومات الجنسية . وشاهد ذلك ما يشاهد لدى جميع الكائنات الحية التى تنجذب بعضها إلى بعض لتحقيق التزاوج فى بينها . فما لم تكن تلك المقومات الجسمية متوافرة وفعّالة ، فإن التكاثر لن يحدث إذن ، ولما اقترب الذكور من الإناث وممارسة الجنس معهن . ***ثالثًا ـ توافر الفرص الخارجية المناسبة :*** فلكى يتم العشق ويستحيل إلى واقع ممارس بالفعل ، فلابد أن تتوافر أمامه الفرصة للتعبير عن نفسه من خلالها . فلا يكفى أن يتوافر التذوق الجنسى والانجذاب الهورمونى ، بل لابد أيضًا من توافر الفرص الخارجية المناسبة لممارسة الجنس . وهكذا أكون قد حددت الفرق بين الصداقة والعشق . ومن ثم فإن ما قلته بإزاء الموقف الوسط بين هذين الطرفين ممكن ، وذلك بالاقتراب بالصداقة إلى كفة العشق ولكن مع عدم الانخراط فيه ، إلى ما بعد عقد الخطوبة التى تعتبر التمهيد للزواج الفعلى . وفى رأيى أن الخطوبة امتزاج روحى بين الخطيبين ، فيسمح خلالها ببعض الملامسة الجسمية والتقبيل ، مع الامتناع بالطبع عن الممارسة الجنسية حتى يتم الزواج بالفعل .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

المناظرة الحادية عشرة

الرقص بجميع أشكاله مرفوض لأنه نشاط دنىء ، ولا يليق بالمرء المتمسك بالقيم الأخلاقية النبيلة أن يشارك فيه ، أو أن يشاهده .

المؤيد : الواقع أن الرقص وسيلة يستخدمها المنحرفون عن الأخلاق السليمة للإثارة الجنسية ، سواء أكانوا ممارسين له ، أم كانوا مشاهدين لتلك الحركات الخليعة التى تأتيها الراقصات . فحرى بالمرء العاقل أن يتحاشاه ، لأن مجرد التواجد فى المكان الذى يمارس فيه الرقص ، يعتبر مشاركة فى نشاط منحط بذىء .

المعارض : أنا أختلف معك فى هذا الرأى على طول الخط . فالواقع أن الرقص نشاط حركى سوى ، وفيه فائدة للجسم والنفس على السواء . فالرشاقة لا تتأتى للمرء فى الحركة سواء فى المشى ، أم فى الجرى ، أم فى ممارسة أى من الأنشطة الحركية المتباينة ، ما لم يكن قد مارس الرقص . فالرقص يندرج فى نطاق الممارسات الرياضية . فهو ليس إثارة للجنس إلا فى أنظار من لا يقدّرونه حق قدره . وعلى أية حال ، فإن الرقص شأنه شأن الكثير جدًا من الأنشطة والأشياء التى يمكن أن تستخدم للخير ، كما يمكن أن تستخدم للشر . فالضحك يمكن أن يكون وسيلة لإشاعة السرور فى نفوس المشتركين فيه ، كما يمكن أن يستخدم للسخرية والإغاظة . فهو فى الحالة الأولى وسيلة لبث السعادة فى القلوب ، بينما يعتبر فى الحالة الثانية وسيلة للاعتداء

على مشاعر الآخرين . والسكين يمكن أن تستخدم فى الأغراض المنزلية، كما يمكن أن تكون فى يد المجرم أداة للقتل . ومن الخطأ أن تحكم على جميع أنواع الرقص بأنها عمل بذىء ، وذلك لأن هناك أنواعا كثيرة منه ، وليس نوعا واحدا فقط ، هو النوع الذى تقصد الطعن فيه .

المؤيد : ما زلت أؤكد أن الرقص بجميع أشكاله نشاط مرذول . وشاهد ذلك أنك لا تجد من بين الشخصيات المتزنة شخصا واحدا يشترك فى الرقص أو يتتبعه بمجرد المشاهدة والتصفيق للراقصين .

المعارض : أنت مخطئ فى زعمك هذا . فمن تعتبرهم شخصيات متزنة ، هم فى الواقع من الشيوخ أو من الشخصيات المتزمتة أو الرجعية . فأنت تقوم بتقييم السلوك الجيد والسلوك الردىء فى ضوء ما يبديه بعض الناس من سلوك ، ولا تتناول السلوك نفسه بالتأمل والمدارسة . فمن الواجب عليك ألا تحكم على خيريّة السلوك ، أو على شرّيته فى ضوء ما تشاهده من سلوك تأتيه بعض الشخصيات التى تحترمها وتجلها ، بل يجب عليك أن تقيس قيمة السلوك نفسه ، وأن تحكم عليه فى ضوء قيمته الذاتية ، وما يمكن أن يتأتى عنه من فائدة أو ضرر .

المؤيد : أنا لا أنظر إلى الرقص من زاوية من أحترمهم من شخصيات ، أو فى ضوء من أستهجن سلوكهم وأحتقرهم ، بل أتناوله من حيث ما يعتمل فى نفوس وقلوب الممارسين له من مشاعر وأهداف ، كما أتناوله من زاوية المشجعين على ممارسته ، والمشاهدين لتلك الحركات البذيئة التى تصدر عن الراقصات فى الملاهى والحفلات . فاتهامك لى يأتى أربط بين الرقص وبين الأشخاص دون النظر إلى جوهر الرقص مردود عليه ، وهو اتهام

Looloo
www.dvd4arab.com

باطل توجهه إلىّ ، ولا أساس له من الصحة والوجاهة . وإذا كنت تقصد أن الرقص ينخرط فى نطاق الممارسات الرياضية ، فأنت مخطئ تمامًا . فما نشاهده من رقص ليس من الرياضة فى شىء ، بل هو محاولات حركية لإثارة الغريزة الجنسية ، ولاستعراض الحركات التى تدل على الأنوثة ، والتى تبرز رشاقة الجسم وجماله . وشاهد ذلك أن الراقصات يُعرّين المناطق المثيرة من أجسامهن ، ويبرزن ما تستثيره من شهوات بغيضة . وغنى عن القول أن الملاهى الليلية تشكل مصدرًا للخلاعة ، بل إن المشاهدين لحفلات الرقص فى تلك الأماكن الداعرة ، لا يكتفون بالمشاهدة ، بل إنهم يحتسون الخمر ، ويتعاطون المخدرات حتى يهيئوا أنفسهم للاندماج والتجاوب مع ذلك الجو الموبوء ، فتكون مشاهدتهم لحركات الراقصات مفعمة بالنشوة والإثارة .

المعارض : إنك فى الواقع تحكم على جميع أنواع الرقص فى ضوء الرقص البلدى الذى تمارسه بعض الراقصات فى الملاهى الليلية . وبذا فإنك تحكم على الكل فى ضوء الجزء . وهذا حكم جائر . فأنت كمن يحكم بأن جميع التجار يستغلون الزبائن ، أو أنهم يبيعون لهم أطعمة فاسدة ، لأن بعض التجار يفعلون ذلك . فمثل هذا الحكم جائر ، ولا يجدر بك أن تصدره . فالتعميم إذن من الأخطاء الخطيرة التى يجب اجتنابها تمامًا .

المؤيد : وحتى ما تعتبره أنت رقصًا راقيًا ، هو فى الواقع تحريف بسيط عن الرقص البلدى . خذ مثلاً رقص الباليه . ألا تقوم راقصة الباليه باستعراض الحركات الراقصة ، وهى شبه عارية ؟ أليست راقصة الباليه أنثى تثير الغريزة الجنسية لدى المشاهدين لها من الرجال ، وبخاصة أن جسدها ممشوق ، وبه مزايا الجسم المتّسق

غير المترهل ، وأن الحركات التى تأتيها راقصات الباليه غاية فى الرشاقة والانسجام ؟ فهل تزعم لى أن المشاهد لراقصة الباليه من الشباب لا يستثار جنسيًا ؟

المعارض : إنك تمعن بهذا الكلام فى الرجعية . فأنت تريد أن تلغى نشاطًا رياضيًا له مكانته العالمية ، بل وتريد أن تمحو رياضة معترفًا بها على مستوى العالم ، وقد سبقتنا إليها الشعوب المتقدمة بمراحل كثيرة ، وكان العائق الذى حال بيننا وبين التقدم فى هذا المضمار ، وفى غيره من مضامير النشاط الرياضى ، هو هذه الرجعية التى تتمسك أنت وغيرك بها ، وخوفك على الشباب من الفتنة . ألا تعلم أن هذه الفتنة لا تصدر عن الجسم العارى بقدر صدورها عن الأزياء التى ترتديها النساء ؟ وهل تعلم أن المرأة كلما احتشمت ، زادت إثارتها لمن يشاهدها . فالواقع أن الخيال يلعب دوره فى مسألة الإثارة الجنسية . ولست أبالغ إذا قلت لك ، إن الألوان تلعب دورًا كبيرًا فى الإثارة الجنسية ، ربما يفوق الدور الذى يلعبه الجسم العارى . وحتى لون بشرة الجسم ، يلعب دورًا كبيرًا فى تلك الإثارة . وبتعبير آخر فإن الإثارة الجنسية تتأتى عن الانسجام بكل معانيه . فالجسم المتّسق أو المنسجم بعضه مع بعض ، وما يصدر عنه من حركات منسجمة ، وهى ما نسميه الرشاقة ، بالإضافة إلى ما ذكرته بإزاء لون البشرة أو ألوان الملابس المنسجمة بعضها مع بعض ، وكذا النسب المتّسقة بعضها مع بعض بين أجزاء الجسم المختلفة ، والصوت الجميل الذى تصدره المرأة فى الكلام أو فى الغناء ، وهى عبارة عن أصوات منسجمة بعضها مع بعض أيضًا ، فإنها جميعًا وما تعبر به عن كيان المرأة من انسجام ، تجلّى عن السر فى جاذبيتها جنسيًا . ولعلى أقول لك بمناسبة الملابس إن الأزياء

Looloo
www.dvd4arab.com

تخفى الكثير من العيوب الجسمية ، بل وتعمل على إحالة القبح إلى جمال ، بفضل ما تضفيه على الجسم من انسجام . فما تزعمه إذن من أن راقصة البالية تثير الغريزة الجنسية ، مردود عليه بما ذكرته لك بإزاء ما ترتديه النساء من أزياء تبرز جمالهن ، بمن فيهن المحجبات أيضا . فالتقدير الجمالى يتأتى عن الإحساس بالانسجام وعن توافر النسب الصحيحة بين الأحجام والأصوات والألوان والحركات . ولكن التقدير الجمالى لا يحتم حدوث الإثارة الجنسية . فأكثر الناس انكبابا على الشهوات الجنسية ، لا يستشعرون الجمال ، بل يستشعرون الشهوة . فهم لا يرتقون إلى مرتبة التقدير الجمالى الصحيح . فاستمتاعك بصوت أم كلثوم مثلا ، لا يثير لديك الشهوة الجنسية ، بل يستحث لديك الشعور بالجمال والتقدير الجمالى بفضل ما يتمتع به صوتها من انسجام بين النسب المختلفة للأنغام التى تأتيها . وعلى هذا فإن ما سقته من حجة بأن التناسق والانسجام بين المقومات المختلفة فى جسم المرأة ، أو فى ملابسها ، هو الذى يستثير الشهوة الجنسية ، إنما يشكل حجة واهية ، والخليق بك أن تميز تمييزا قاطعا بين الإحساس الفنى بالجمال ، وبين الهياج الجنسى الشهوى . فالإحساس بالجمال مباين للهياج الجنسى . فما تأتيه الراقصات والراقصين من حركات ، إنما يتسم ـ إذا كان الرقص متقنا ـ بالجمال والانسجام . فالمشاركون فى الرقص والمشاهدون له ، يحسون بذلك الانسجام والجمال ، ولا يستثارون جنسيًا .

المؤيد : أنا لا أعتقد أن الإحساس بالجمال بالنسبة لمشاهدة الراقصة يقف عند حدود الاستمتاع بالجمال ، بل إن الخطوة التالية لذلك الإحساس بالجمال ، هى اعتمال الشهوة وهياجها . فأنا أعتقد أن تخزين الصور الذهنية التى تتعلق بالراقصة ، يمكن أن يلعب دورا فى

استثارة الغريزة الجنسية ، سواء فى الوقت نفسه الذى يتابع فيه المرء تلك الراقصة الجميلة التى تأتى بالحركات الجميلة ، أم بعد ذلك عندما يخلو المرء إلى نفسه .

المعارض : إن الحكم على ما يتلو المشاهدة المفعمة بالتقدير الجمالى ، حكم غير صائب على أية حال . فالواقع أن مسألة الإثارة الجنسية الشهوية ، تختلف من شخص لآخر . فالكثير ممن يعتادون التقدير الجمالى ، لا ينخرطون فى الشهوات الجنسية بعد توصلهم إلى ذلك التقدير الجمالى . ولعلى لا أغالى إذا قلت لك إن الاعتياد على التذوق الجمالى يبطل الهياج الجنسى إلى حد بعيد . وشاهد ذلك أن الفنان الذى يقوم برسم أو نحت تمثال للموديل (وهى امرأة عارية تماما ، تتخذ الأوضاع الجسمية التى يطلبها منها ، وتظل فى وضعها الثابت بضع ساعات ، وهو مستمر فى تأمل جسدها) يقف فى الغالب عند مرحلة التقدير الجمالى لما يقع عليه حسه ، ولما يقوم بالتعبير عنه فى لوحة أو تمثال ، ولا ينخرط فى الشهوة الجنسية .

المؤيد : أخشى أن نبتعد عن موضوع المناظرة . فلنحصر كلامنا إذن فى حدودها ، وهى الرقص . فأنا أرى أن الرقص مناف للأخلاق الكريمة ، وأن المشارك فيه أو المشاهد له يكون قد انخرط فى عمل بذىء . فأنا أربأ بالإنسان ـ سواء أكان امرأة أم رجلا ـ أن يكون موضوعا يتأمله الناس ، لكى يستمتعوا بجماله . يكفى أن يتأمل المرء الطبيعة بما تشتمل عليه من جوامد ونباتات وأسماك وطيور وحيوانات ، ويشاهد فيها الانسجام والجمال . ذلك أن الإنسان يجب ألا يصير مصدرا للاستمتاع الجمالى . فمن يتأمل إحدى الراقصات وهى تتمايل ، شبيه بمن يلتهم اللحم الآدمى بدلا من أن يتناول لحم الحيوانات . فالإنسان يجب أن يعلو عن مستوى وسائل الاستمتاع

Looloo
www.dvd4arab.com

الطبيعية ، سواء بتأمل مفاتنه أم بتقدير جماله . فالكائنات جميعًا بمثابة وسائل فى مقدور الإنسان أن يستمتع بجمالها ، ولكن الإنسان أرفع من ذلك . فهو يسمو عن المخلوقات جميعًا ، ويشكل غاية فى ذاته ، ولا يتدنى إلى مستوى الوسائل ، أعنى الموجودات الأخرى .

المعارض : إنك فى الواقع بكلامك هذا تحط من قدر الإنسان ، ولا ترفع من شأنه كما تظن . فالتقدير الجمالى للإنسان ليس حطًا من كرامته ، وليس إنزالاً به إلى مقام أدنى من مقامه ، فالواقع أن الإحساس بالجمال يتخذ صفة العمومية . فالشخص المتذوق فنيًا وجماليًا ، يستشعر الجمال فى كل شىء جميل ، سواء أكان جمادًا أم نباتًا أم سمكًا أم طيرًا أم حيوانًا أم إنسانًا . فليست هناك تجزئة أو انفصال بين جمال الطبيعة وجمال الإنسان ، علمًا بأن الإنسان هو جزء لا يتجزأ من الطبيعة . ولكنك تنحاز إلى نزعة الغرور البشرى الذى يحاول أن يجعل من الإنسان قوامًا منعزلاً عن الطبيعة . وبالمناسبة فإن الطبيعة كلها ترقص من حولنا حتى الأشجار ترقص متناغمة مع الرياح ، والأسماك ترقص فى الماء ، والطيور ترقص وهى تطير ، والحيوانات ترقص فى مشيتها وفى جريها . وكذا فإن الإنسان يرقص وهو يمشى أو يجرى أو يعمل . أليست الحركات المنسجمة بعضها مع بعض هى نوع من الرقص الحركى . وإذا أردت التعميم فإنى أقول لك : إن الغناء ، بل والكلام العادى الذى يحمل صوتًا جميلاً ونبرات شائقة ، إنما هو رقص صوتى . وقل : إن الحياة الجميلة كلها حياة راقصة بهذا المعنى العام الذى قدمته هنا . فلا تقل إذن إن الإنسان أرفع أو أسمى من أن يتشبه بالكائنات الأخرى . فهو واحد من تلك الكائنات الأخرى حتى وإن كان متربعًا على قمتها .

المؤيد : إنك بما تقوله الآن تستعير لغة الشعراء ، وقد حلّقت بنا فى أجواء بعيدة ، وأحلت الرقص إلى شىء يقرب من التناغم مع المجتمع وقد جبل عليه البشر .

المعارض : هذا صحيح . فالواقع أن الرقص حتى عند القبائل البدائية ، إنما هو أداة لبث روح الانتماء فى قلوب جميع أعضاء القبيلة . ففى الرقص تأتلف الأجسام والقلوب جميعًا . فحتى التصفيق الذى تعبر الجماعة بواسطته عن استحسانها ، إنما هو فى الواقع رقص تصدره الأيدى مجتمعة . فلعلك تلاحظ فى التصفيق الجماعى ذلك الاتساق الحركى لأيدى جميع الموجودين . وبتعبير آخر فإن التصفيق يعبر عن التطابق الحركى والصوتى الذى يصدر نتيجة التصفيق . وكذا الحال بالنسبة للرقص فى أى مجتمع . إنه وسيلة للتعبير عن الروح الجماعية . فللرقص الجماعى وظيفة اجتماعية مهمة للغاية تستهدف لمّ شمل القلوب بعضها إلى بعض . وحتى فى بعض الأديان ، فإننا نجد أن هناك نوعًا من الرقص فى أداء بعض الشعائر الدينية .

المؤيد : واضح أنك تخلط بين الرقص وبين الشعائر الدينية . فهل أنت جاد حقًا فى اعتبار الطقوس الدينية الحركية نوعًا من الرقص ؟ ألا تسمو تلك الشعائر عن مستوى الرقص ؟ ذلك أن الهدف من الشعائر الدينية ، هو التقرُّب من العرش الإلهى . أما الرقص فله أهداف أخرى مباينة تمامًا للهدف الذى تتوخاه الشعائر الدينية ، وعلى رأسها هدف المتعة والرشاقة .

المعارض : أنا أتناول الرقص باعتباره حركات منسجمة بعضها مع بعض ، سواء انحصر فى نطاق شخص واحد ، أم شمل مجموعة من الناس . فالرقص كالموسيقى ، أو هو فى الواقع موسيقى

Looloo
www.dvd4arab.com

حركية . فكما أن الشعائر الدينية تتضمن بعض الأنغام الموسيقية ، كذا فإنها تتضمن بعض الحركات المتّسقة ، التى يمكن اعتبارها رقصا جماعيًا . ولكن عليك أن تنزع عن ذهنك تلك الوصمة التى وصمْت بها الرقص واعتبرته انحطاطا ، دون أن تميّز فيه بين الغث والسمين ، أو بين الرقص الشيطانى والرقص المقدّس المتمثل فى الشعائر الحركية التى مارستها البشرية منذ العصور البدائية حتى العصر الحديث .

المؤيد : أنا لا أوافقك على إدراج الشعائر الدينية ، التى تتضمن حركات جماعية ، فى إطار الرقص . ولكنى لكى أميّز بين الرقص وبين الشعائر الدينية الحركية ، فإنى أقرر أن الرقص يستهدف الترويح عن النفس ، وإشاعة البهجة والسرور فى قلوب الراقصين والمشاهدين لهم أما الشعائر الدينية الحركية ، فإن المقصود من أدائها ، هو أداء فرائض دينية معيّنة . وهى الفرائض التى تتسم بالجدّية ، ولا يقصد بها الترويح عن النفس أو المرح أو إشاعة السرور ، بل يقصد بها التقرب من المولى عز وجل . ناهيك عن أن الرقص مشوب فى الغالب بالبواعث الجنسية ، بينما لا تتضمن الشعائر الدينية إلا البواعث الروحية التى تعمل على تطهير النفس من براثن العالم ومتعلقاته . وبينما تنصب حفلات الرقص على تأمل الحركات الجسمية التى تأتيها الراقصة ، وما تتضمنه من جمال ورشاقة ومن إغراءات شهوانية ، فإن الشعائر الدينية الحركية تنصب على التأملات الروحية التى تصاحبها ، وتعتبر من صميمها . فقلوب الممارسين لتلك الشعائر الدينية الحركية تتجه إلى السماء على عكس ما يفعله الراقصون من تعلق بالأرض ، وبما يشيع حولهم من لهو وطرب ومجون وشهوات .

المعارض : أنا أخالفك فيما ذهبت إليه ، وأقرر أن الرقص والشعائر الدينية الحركية تلتف جميعا حول محور واحد هو محور الرشاقة الحركية والرتابة التى تعمل على تحقيق تلك الرشاقة . ولا أعنى بالرشاقة مجرد الانتظام فى أداء الحركات ، بل أقصد بها أيضا تحقيق التجانس فيما بين الجسم والروح ، أو فيما بين الحركات الجسمية والعواطف التى تعتمل بدخيلة المرء . فالرقص والشعائر الدينية الحركية يتفقان بإزاء تحقيق التكامل الجسمى والنفسى للمرء . ذلك أن ثمة مخاصمة تقليدية فيما بين الجسم والنفس . ولكن الوئام النفسى يحل محل ذلك الخصام عن طريق الرقص وأيضا عن طريق ممارسة تلك الشعائر الدينية الحركية . ذلك أن الجسم يؤثر فى النفس ، كما أن النفس تؤثر فى الجسم . وبتعبير آخر فإن الرقص والشعائر الدينية الحركية يعملان على إزالة العقد النفسية ، التى تكون قد نجمت عن ذلك الخصام المستعر فيما بين الجسم والنفس . ومعنى هذا أن الرقص بمعناه العام بمثابة علاج نفسى للتخلص من كثير من المشكلات النفسية . وشاهد ذلك حفلات الزار التى تشارك فيها الشخصيات المريضة نفسيًا ، والتى يعتقد أنها ملبوسة ببعض الأرواح النجسة . فعن طريق الزار ، وهو عبارة عن رقص جماعى يؤدّى بمصاحبة خلفية إيقاعية تبدأ ببطء ، ثم تزداد سرعة أكثر فأكثر ، مع متابعة الراقصين فى حفل الزار لذلك الإيقاع وتحقيق الانسجام والتطابق فيما بين الإيقاع المسموع ، وبين ما يؤدونه من حركات راقصة جماعية رتيبة ، فيتأتى عن ذلك زوال العرض المرضى الذى يعتقد أنه نتيجة وجود الجنى بدخيلة المرء ، واستيلائه على مقاليد الشخصية .

المؤيد : ها أنت قد أضفت نقطة أخرى أستطيع أن أستغلها لمهاجمة الرقص ، وهى ارتباطه بالخزعبلات والخرافات التى يعتقد

Looloo
www.dvd4arab.com

العامة فى حقيقتها ، كما يعتقد علماء النفس من أمثالك أيضًا فى جدواها . فالواقع أن خرافة الجن واستخدام حفلات الزار فى استرضائها ، وما تفسرونه أنتم فى ضوء علم النفس بأنه بمثابة تخلص من العقد النفسية ، إنما هو فى الواقع شاهد على ضرورة نبذ هذا النوع من الرقص الجماعى الذى يمارس فى حفلات الزار . وأنت تعلم أن تلك الحفلات ترتبط بالمجون فى كثير من الأحيان . ذلك أن المسئول عن إدارة الزار ، يستخدم أساليب هى أقرب ما تكون فى جوهرها من التنويم المغنطيسى ، أو هى نوع من التنويم المغنطيسى . فهو يسيطر على فكر وجسم السيدة التى يقنعها بضرورة الرضوخ لما يأمرها به كل الرضوخ . وبعد أن تنهار صاحبتنا من شدة الإرهاق ، وتغيب عن الوعى ، فإنه يسلمها لأحد زبائنه فيعتدى عليها جنسيًا ، بينما هو يقنعها بأن الذى اعتدى عليها جنسيًا ، هو واحد من الجن الذى وعد بأنها سوف تنعم بالراحة بعد تلك المضاجعة الفاجرة .

المعارض : أنا لا أدافع عن حفلات الزار ، ولا أدعو إلى ممارستها ، ولكنى أقرر حقيقة علمية بمناسبة الحديث عنها ، وهى أن الحركات الرتيبة التى يتضمنها الزار ، تعمل على التخفف من الآلام النفسية ، بل وتعيد الحالة النفسية للمشاركين فيه إلى الانسجام ، كما أنها تحقق الاسترخاء النفسى والعصبى . وهذا هو بعينه الذى يحدث فى جميع أنوع الرقص . وهو أيضًا الذى يتحقق عن طريق ممارسة التمرينات الرياضية التى تعتمد على تكرار مجموعة من الحركات عدة مرات ، فيتأتى عن ذلك التكرار استقامة الجسم واستقامة الحالة النفسية أيضًا .

المؤيد : أنا لا أوافقك على الربط بين كل من الزار والتمرينات الرياضية والرقص بحجة أنها جميعًا تساعد على التخلص من العقد والتوترات العصبية ، وأنها تعمل بالتالى على تحقيق الراحة النفسية

والهدوء الداخلى ، بعد التخلص من تلك العقد والتوترات العصبية . فالواقع أن لكل نشاط من هذه الأنشطة الثلاثة هدفًا مباينًا تمام التباين عن سواه . فالزار يستهدف تهدئة الجنى حتى لا يؤذى الشخص الساكن فيه ، كما يزعم القائمون به والمؤمنون بتلك الخزعبلات . أما التربية الرياضية فالمقصود منها تقوية الجسم وتنشيطه ، وليس لها أى صلة بالحالة النفسية ، بدليل أن الكثيرين من أبطال الرياضة ، يعانون من التوترات النفسية ومن العقد النفسية . أما الرقص فإن المقصود منه الترويح عن النفس والاستمتاع وإثارة الشهوات الجنسية . فكيف تقول بعد هذا إن الأنشطة الثلاثة تستهدف تحقيق الانسجام الجسمى النفسى ؟

المعارض : وحتى إذا أنا وافقتك على هذه التفرقة والتمييز بين أهداف هذه الأنشطة الثلاثة ، أعنى الزار والتمرينات الرياضية والرقص ، فإن ما يتأتى عنها جميعًا من نتائج هو انسجام الجسم مع النفس . والواقع أن الطب الحديث يستهدف الجمع بين الجسم والنفس فى قوام واحد حتى يتسنى العلاج بممارسة العلاج النفسجسمى **Psycho somatic therapy** فإذا كان الطب الحديث يهدف إلى تحقيق هذا التناغم بين النفس والجسم ، فإن الممارسات الحركية التى تتوافر فى الزار والتمرينات الرياضية والرقص ، تعتبر إذن من الوسائل الطبيعية ، أو من العلاج الطبيعى الذى يحقق تلك النتائج التى يستهدف العلاج النفسجسمى تحقيقه . فهى من الممكن أن تكون عوامل مساعدة ، إلى جانب ما يضطلع به الطب . وشاهد ذلك ما يحس به المرء من راحة نفسية ، ومن التخلص من الكثير مما يعانى منه جسميًا ونفسيًا بعد الانخراط فى الزار ، أو بعد ممارسة التمرينات الرياضية ، أو بعد الانخراط فى الرقص . ناهيك عن مشاعر البهجة والانشراح التى يحس بها المشاهد لحفلات الرقص حتى ولو لم يشترك فى ممارسته بالفعل .

Looloo
www.dvd4arab.com

المؤيد : إنك تبالغ فى الواقع عندما تعمد إلى الربط بين العلاج من الأمراض النفسية والعقد وبين الرقص . ومن جهتى فإنى أجد أن الشخص الذى يُقبل على الرقص ، أو حتى من يشاهده ، يكون قد خلع عن نفسه بُرقع الحياء . أليس من الخروج عن الحشمة والرزانة والوقار أن يعمد المرء إلى أن يجعل من نفسه بهلوانا ، فيتمايل بجسمه أو يستعرض قوامه الممشوق أمام الناس ؟

المعارض : الواقع أن التمسُّح بالوقار والرزانة ، يعتبر من بقايا التربية الرجعية ، التى ظلت تعمل على قمع الناس بالنواهى المستمرة ، فتحول بينهم وبين الانطلاق والتمتع بالحياة ، فنتج عن ذلك ، تأصُّل تلك القيم التى امتدت بجذورها فى النفوس باسم الأخلاق ، فصار صاحب الأخلاق الكريمة ، هو ذاك الذى يحسب كل الحساب لكل حركة تصدر عنه ، فهو يمشى منكفئا على نفسه ، ويخشى من أن يهز ذراعيه ، وهو يسير فى الشارع ، حتى لا يخرج عن حدود الوقار . والخليق بالتربية السليمة أن تخلص الناشئة من تلك العقد النفسية التى غرستها التربية التقليدية فى العقول والقلوب فصار الناس يعتقدون أن تنشيط الجسم معناه الخروج عن حدود اللياقة ، وضرب بالأخلاق الكريمة عُرْض الحائط . وأناس هذا حالهم يرفضون الرقص بالطبع ، وهو النشاط الجماعى ، الذى يجمع بين نشاط الجسم ونشاط النفس ، ويحقق التكامل بين المطالب الجسمية العصبية ، وبين المطالب النفسية الوجدانية .

المؤيد : الواقع أن ما تسميه أنت بالتكامل فيما بين المطالب الجسمية العصبية وبين المطالب النفسية الوجدانية ، هو فى الحقيقة تحقيق الاندفاع السلوكى الذى لا يُبْقى ولا يذر . فأنت تعلم أن المخ البشرى محكوم بقوتين هما قوة الانضباط **inhibition** من جهة ، وقوة

الإثارة **excitation** من جهة أخرى . والسلوك السليم هو ذلك الذى يتحقق فيه التوازن فيما بين هاتين القوتين . ولكن قوة الإثارة إذا طغت على قوة الانضباط ، فإن المرء يخرج عندئذ عن حدود الوقار والاتزان . وهذا ما يحدث فى حفلات الرقص . فالكثير من الأشخاص المشهود لهم بالوقار ، يجدون أنفسهم مدفوعين إلى الانخراط فى حلبة الرقص ، والخروج عن أصول الوقار والحشمة ، بعد اندماجهم فى ذلك المناخ الصاخب ، وقد وقعوا تحت تأثير الإيقاع الموسيقى ، وصاروا خاضعين لغريزة التقليد التى تهيمن عليهم وتسوقهم سوقا . فتأثير الرقص أشبه ما يكون بتأثير الخمر والمخدرات .

المعارض : إنك فى الواقع تخلط الأوراق ، فلا تفرّق بين النشوة والتخلص من الرتابة التى يتمتع بها الشخص المنطلق فى ممارسة الرقص ، وبين ما يحس به مُعاقر الخمر أو متعاطى المخدرات . والفرق جوهرى بين الحالتين . وهو كالفرق بين العملة السليمة والعملة الزائفة . فما يحس به معاقر الخمر أو متعاطى المخدر شبيه بالعملة الزائفة . أما المنتعش نفسيًا وهو يرقص ، أو وهو يشاهد الناس من حوله سعداء وهم يرقصون ، فإن انتعاشه شبيه بالعملة السليمة .

المؤيد : الواقع أن الفرق بينى وبينك ، وما يشكل نقطة الخلاف الأساسية بين موقفى وموقفك من الرقص ، هو أنى حريص على التقاليد الاجتماعية وعلى القيم الدينية التى ورثناها جيلا بعد جيل ، بينما أنت تريد أن تحطم تلك التقاليد الاجتماعية والقيم الدينية ، وأن تحل محلها تقاليد مستوردة من الخارج . فأنت من أشياع التأثر بالغرب ، أما أنا فمن المتمسكين بأصالتنا الثقافية ، وبما نشأنا عليه ، ونشأ عليه آباؤنا وأجدادنا من قديم الزمان . فالرقص بجميع أشكاله ومسمياته ، لا يتعلق بتراثنا من قريب أو من بعيد .

Looloo
www.dvd4arab.com

المعارض : إنك مخطئ فى هذا كل الخطأ . فالواقع أن الرقص لا يرتد إلى المجتمع الغربى أو إلى المجتمع الشرقى ، بل يرتد إلى الإنسانية جمعاء ، وأكثر من هذا فإنه يرتد إلى الكائنات الحية جميعًا ، أو إلى الوجود بأسره ، وقد سبق أن قلت لك : إن الوجود كله ، الحى منه وغير الحى يرقص بطرق متباينة ، وقد أوضحت لك أيضًا أن الرقص إنما هو تعبير أو ترجمة عن الاتساق والانسجام المعتمل بدخيلة الوجود . وعلى أية حال فلك أن تعلم أن الحواجز التى تحاول أنت وأمثالك التمسك بها ، ومنع أى تسرب ثقافى يرد إلينا من الغرب أو من الشرق الأقصى ، بحجة الحفاظ على هويتنا ، إنما هى حواجز واهنة واهية ، بل إنها حواجز يجب القضاء عليها تمامًا . فالتأثر بالآخرين ليس عيبًا . فتأثرنا بالغرب وأخذنا عن شعوبه ما يمارسونه فنتعلم الرقص أو غيره من فنون ، لا يعنى أننا قد فقدنا هويتنا . فهويتنا متأصلة فينا ، وتراثنا قائم وراسخ لا يتزعزع . ولكن لابد من أن نوظف تراثنا جنبًا لجنب مع توظيف الثقافة المستوردة من الخارج ، وأن نأخذ بمبدأ الديناميكية والتحرك والتطور ، ولا نرفض مبدأ الأخذ عن غيرنا . فلنأخذ ما نشاء ، ولنتأثر بالآخرين ، طالما لدينا ثقة بالنفس بأن تأثرنا بهم سوف لا يمحو شخصيتنا ، ولا يأتى على أصالتنا . ولابد أن تعلم أن الشعوب جميعًا ظلت تتأثر بعضها ببعض من قديم الزمان ، وإن كان حدوث التأثير حاليًا يزداد انتشارًا وسرعة بفضل وسائل الاتصال التى تتقدم بسرعة هائلة . فلقد استحال العالم إلى قرية صغيرة بالفعل ، فلابد أن نأخذ ونعطى ، ولابد أن نتأثر بغيرنا ، وتؤثر فيهم ، ونتعلم فنونهم ونعلمهم فنوننا ومن ضمنها الرقص . ولابد أن نحس ونؤمن بأن البشر جميعًا ينتمون إلى أصل واحد ، مهما تباينوا وتشكلوا بأشكال متباينة ، ومهما انشعبوا إلى شعوب مختلفة .

المؤيد : إن ما تلوكه من كلام حول العالم الذى استحال إلى قرية صغيرة ، إنما هو دعاية مُغرضة بثّها الغربيون فى أذهان كثير من المثقفين العرب ، وهم يقصدون من وراء ذلك تذويب الثقافات المختلفة فى ثقافة واحدة هى ثقافتهم ، ومحو التقاليد والأعراف والتراثات التى تتباين عن تقاليدهم وعرفهم وتراثهم . فهم يُغرون العرب وغيرهم من شعوب الشرق الأوسط ، بما يسوقونه من حجج واهية وخدّاعة لكى يحملوهم على أن ينصهروا فى بوتقتهم ويندمجوا فيهم ، وينخرطوا فى حضارتهم ، فننبذ بالتالى حضارتنا وما تتضمنه من كنوز ثمينة . وشاهد ذلك أن الشباب الذين خدعوا بهذه الدعوة الشائنة إلى التفاعل الثقافى فى بوتقة العالم الذى استحال إلى قرية صغيرة كما يزعمون ، قد هجروا بالفعل حضارتهم الشرقية ، بل إن الكثيرين منهم هجروا لغتهم وخاصموها ، وصاروا يتكلمون فى معاملاتهم اليومية بلغة أجنبية ، سواء أكانت إنجليزية أم فرنسية أم غيرهما من اللغات الأوربية . والشئ نفسه ينسحب بإزاء الرقص . فالرقص الإفرنجى هو الذى أخذ يستولى على أفئدة الشباب ، وبالتالى فإن الرقص الشعبى الأصيل قد توارى عن الأنظار . وباختصار فإن التراث الشعبى المصرى وغيره من تراثات شرقية ، قد انهزمت أمام التراث الغربى وثقافاته ، وقد غيَّرنا جلدنا واستعرنا جلد الغربيين فيما ينهجون وفقه ويمارسونه ، بل صرنا نحب ما يحبون ، ونكره ما يكرهون .

المعارض : ها أنت قد أخذت فى الحماس لتراثنا الشعبى ، وما يتضمنه من ألوان الرقص الشرقى . فغيرت بذلك موقفك ، وتنازلت عن مبدئك ، وأنت تعلم أن الرقص البلدى الذى ينتشر فى الكباريهات ، هو الرقص التراثى الخاص بشعبنا . فهل رجعت عن رأيك الذى دأبت على الدفاع عنه ، وصرت محبًا للرقص البلدى بعد

Looloo
www.dvd4arab.com

أن كنت تطعن فيه وتمجه ، قائلا : إن الشخص الخليق بالاحترام لا يساير ولا يشجع هذا اللون من الرقص ولا يشارك فيه ؟

المؤيد : أنا فى الواقع لم أغيّر موقفى ، ولا احبذ الرقص بجميع أشكاله وأنواعه ، سواء أكان رقصا غربيًا أم رقصا شرقيًا ، وكل ما قصدت إليه هو الطعن فى الموجة الزاحفة علينا والمتمثلة فى شيوع الرقص الغربى بالأندية وأماكن الترويح. فأنا لا أدافع عن الرقص البلدى ، بل أدافع عن التراث الشرقى بصفة عامة ، ولكن دفاعى هذا هو دفاع عن مبدأ ،وليس عن أنشطة جزئية بعينها . فأنت تعرف أن تراثنا يحمل فى قوامه الجيد والردىء ، والصالح والطالح . ولكن عندما نجد أن ثمة حملة مسعورة تهاجم تراثنا ، فإننا نعلن حالة الطوارئ ، وندافع عن جوهر حياتنا المتمثل فى هذا التراث . وبعد أن نقهر العدو الذى يشن حملته ضدنا ، فإننا سوف نأخذ بعد ذلك فى تنقية الشوائب العالقة بتراثنا ، ونستبعد الردئ ونبقى على الجيد منه . فأنا إذا خيِّرت بين شيئين رديئين ، ولكن أحدهما أكثر رداءة من الآخر ، فإنى بالطبع أستبعد الأكثر رداءة ، وأبقى موقتا على الأقل رداءة إلى أن تحين الفرصة المناسبة للتخلص منه هو أيضا . فأمامنا الآن نوعان من الرقص وهما جميعا رديئان : الرقص الغربى والرقص البلدى .ولكن الرقص الغربى أكثر رداءة من الرقص البلدى. فمن البديهى أن أقبل أحلى المرّين ، وأن أبدأ بإعلان الحرب على الرقص الغربى ، مع عدم الدفاع عن الرقص البلدى ، ولكنى لا أعمد إلى مهاجمته الآن ، بل سوف أهاجمه فى مرحلة تالية . فبعد أن نتخلص من ذلك الرقص الغربى الردىء جدًا ، يتحتم علينا بعد ذلك أن نتخذ موقفا هجوميًا على الرقص البلدى الردىء .

المعارض : لا تؤاخذنى إذا ما وصفتك بأنك شخص صعب المراس ، وأن التحاور معك مرهق للأعصاب . فبينما أجدك تهاجم

الرقص بجميع أنواعه وأشكاله ، بل وتهاجم من يشترك فى مشاهدته ، وقد ألقيت باللائمة على الرقص البلدى بصفة خاصة فى مستهل المناظرة ، وهو الرقص المنتشر فى الملاهى الليلية ، فإنك الآن صرت تهاجم الرقص الغربى ، وبعد أن يتسنى لك قهر هذا النوع من الرقص المستورد من الغرب ، فإنك سوف تضع الخطط للقضاء على الرقص البلدى . أفلا يجدر بك يا أخى أن تبدأ بالقضاء على الرقص البلدى الذى تستهجنه ، قبل أن تقضى على الرقص الغربى المستورد . أفلا يخلق بك أن تبدأ بالقضاء على الشر الموجود فى بيتك ، قبل أن تهاجم الشر الوارد إليك من بيت جارك ؟ إنك فى الواقع مفعم بالكراهية للغرب ، بينما تحن لا شعوريا وشعوريًا إلى تراثنا . وبتعبير آخر فإنى أستطيع أن أصفك بالرجعية والانغلاقية . فأنت تكره المستورد من الآخرين ، وفى الوقت نفسه لا تتناول الرقص البلدى من حيث ينابيعه التى ورد منها إلينا منذ زمن بعيد . فهل تعلم أن الرقص البلدى مستورد من الأتراك العثمانيين ومن المماليك الذين احتلوا بلادنا ومعظم الشرق الأوسط فترة طويلة ، ونقلوا حضارتهم بما تتضمنه من خير وشر إلينا ، وإلى جميع البلاد التى احتلوها ؟ وألا تعلم أن الرقص الغربى قد ورد إلينا لأول مرة مع الحملة الفرنسية بقيادة نابليون ؟ إذن فأنت تعتبر المستورد الأكثر قدما هو تراثنا ، والأقل قدما هو تراث غيرنا ، مع أن الأخلق بك حسب منطقك واتجاهك ، أن تحارب كل ما أخذناه عن غيرنا ، وبالتالى فلا يبقى لنا أى شىء على الإطلاق . فحتى رقص قدماء المصريين لا نكاد نعرف عنه شيئا إلا ما تركوه من نقوش على المعابد . فهل سوف تحاول إحياء الرقص الذى كان شائعا عند قدماء المصريين ، وتشن حربا شعواء على الرقص الغربى والرقص البلدى على السواء ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

المؤيد : الواقع أنى لست أهاجم الرقص الغربى و الرقص البلدى أو أى نوع آخر من الرقص حبافى الهجوم والعدوان ، بل إن الباعث عندى فى الهجوم على الرقص بصفة عامة ، هو باعث أخلاقى . فأنا أغار على تقاليدنا الأخلاقية ، وأعتقد أن الرقص هو المدخل إلى العلاقات الجنسية الآثمة . فمثلاً بالنسبة للرقص البلدى ، فإنه يستهدف إثارة جنسية فاضحة للمشاهدين كما سبق أن ذكرت . أما الرقص الغربى ، فإن الرجل يتأبّط المرأة بل وبحتضنها ، ويقترب بوجهه من وجهها ، وقد يقبلها فى أثناء الرقص ، ويلامس جسدها . أما المشاهدون وهم من الشيوخ فى العادة ، فإنهم يستمتعون بما تقع عليه أعينهم من تأبُّط وحضن وملامسة وعناق وقبلات . فهم يتلذذون جنسيًا بالطريق السلبى ، أو بتعبير آخر فإن الواحد منهم يتمنى لو أنه هو الذى يراقص تلك السيدة التى تأخذ بلبه كل مأخذ ، ولكن ما الحيلة وهو لا يجرؤ على الرقص مع أى من الشابات الجميلات ، وقد انحنى ظهره ، وخارت قواه ، وترهّل جسمه ، ولم يعُد لديه بصيص من الجاذبية الجنسية التى كان يتمتع بها أيام كان فى ريعان الشباب ؟

المعارض : إنك فى الواقع لا تفرّق بين الإحساس بالجمال ، وبين الشعور بالاشتهاء الجنسى . فمن الحقائق السيكولوجية البسيطة ، أن المرء يمكن أن يستمتع بالجمال الخالى من أى انفالات شهوية . فالخطأ فى تفكيرك يتركز فى ذلك التطابق الذى تؤمن به ، بين الإحساس بالجمال وبين الشعور بالشهوة ، مع أن الواقع أن التقدير الجمالى يصدر عن الفكر و الوجدان ، بينما تصدر الشهوة عن انفعال جسمى وعاطفى ، أو أن المرء المشتهى يكون قد انتقل من حالة التقدير الجمالى ، إلى حالة أخرى مباينة تماما هى الحالة الانفعالية التى تتعلق بالجهاز التناسلى ، ومن المعروف أن التقدير الجمالى يتسع

لكل المدركات الحسية ، فهو يتم عن طريق حاسة أو أكثر من الحواس الخمس . فمشاهدة المنظر الطبيعى الجميل ، يشعر المرء بالجمال ، ولا يشعره بالاشتهاء . وكذا الحال عندما يقع بصر المرء على امرأة جميلة ، أو عندما يسمع الصوت الجميل فى أغنية أو حتى فى الكلام العادى ، فإنه يحس بالتقدير الجمالى ، ولا يشترط أن يستحيل هذا التقدير الجمالى إلى حالة اشتهائية . فالمشاهدون للراقصات والراقصين ، والمقدّرون لاتساق الحركات التى يأتونها فى الرقص ، يحسون بالجمال ، ولا يشترط أن يستحيلوا إلى مشتهين جنسيًا . صحيح أنه من الممكن أن يستحيل التقدير الجمالى إلى اشتهاء ، أو بتعبير أدق فإن من الممكن أن يتحول المرء من التقدير الجمالى إلى الاشتهاء الجنسى ، ولكن هذا ليس حتمًا ، بل جوازًا فقط . وأظنك توافقنى على أن إنسانية الإنسان لا تكتمل ، إلا إذا استمتع بالجمال الذى يتبدى فى الموجودات المتباينة ، سواء أكانت موجودات جمادية ، أم موجودات نباتية ، أم موجودات بشرية . ومن الأولى أن يكون تركيز الإنسان على الناس من حوله وتقديره لما يشتملون عليه من جمال ، أكثر من تركيزه على الموجودات الأخرى وتقديره لجمالها . فتقدير المرء لجمال البشر من حوله ، ولما يصدر عنهم من كلام أو من حركات أو تصرفات ، لهو شرط أساسى لتحقيق الرقى الإنسانى ، بالمشاعر إلى آفاق سامية رفيعة .

المؤيد : لقد اعترفت بنفسك بأن من المحتمل أن يستحيل الشعور بالجمال إلى شعور بالاشتهاء . وطالما هناك احتمال لهذا التحول من كفة التقدير الجمالى إلى كفة الاشتهاء ، فيكون من الأفضل ، بل من المحتم القضاء على تلك المصادر التى تؤدى إلى الانحدار إلى الشهوة ، وما يتبعها أو يصاحبها من آثام .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

المناظرة الثانية عشرة

سُكْنى الزوجين مع أهل الزوج أو مع أهل الزوجة، مدعاة لسلسلة من المشاكل التى تزداد تعقيدًا باطراد مستمر

المؤيد : إن الواقع الذى نراه بأعيننا ، ونسمع عنه بآذاننا ، يؤكد هذه الحقيقة ، وهى أن سُكْنى الأبناء أو البنات بعد الزواج مع أهل الابن ، أو مع أهل الإبنة ، يتسبب فى كثير جدًا من المشكلات التى لا تنتهى ، بل تزداد تعقيدًا يومًا بعد يوم ، وشهرًا بعد شهر ، وسنة بعد سنة . ولا شك أن الوضع الطبيعى، هو أن تقيم كل أسرة بمفردها فى بيت مستقل خاص بها . وبالتالى فإن جميع الأطراف تعيش فى سلام ووئام ، ولا تحدث صدامات بين المصالح أو الرغبات أو الميول أو التطلعات المستقبلية .

المعارض : إنى على النقيض من موقفك تمامًا بإزاء هذه المسألة. فالواقع أن السُكْنى مع أهل الزوج أو الزوجة ، يتضمن الكثير من الفوائد الاقتصادية والخبْرية ، فالنفقات التى تنفق على كل أسرة بمفردها يمكن أن تنفق على الأسرتين معًا . أما بالنسبة للمكتسبات الخبْرية ، فإنك تعلم أن كل شخص يحمل خبْرات مباينة للخبْرات التى يحملها غيره . فالعروسان اللذان ينخرطان فى الحياة الزوجية حديثًا ، يكونان غير مُحنكين بالخبرات اللازمة للحياة الزوجية الجديدة التى يبدآنها ، ويكونان فى حاجة ماسة إلى الاستنارة بخبرات الجيل السابق عليهما ، وهو جيل الوالدين ، أعنى والدَىْ الزوج ، أو والدَىْ

الزوجة . ناهيك عن المشكلات الكثيرة التى تجابه العروسين الحديثين ، والتى تحتاج إلى إرشاد وتوجيه من جانب الكبار للتغلب عليها ، ومن ثَمَّ التمتع بحياة زوجية سعيدة وناجحة .

المؤيد : الواقع أنك مخطئ فيما تذهب إليه كل الخطأ . فمن الناحية الاقتصادية ، فإن سكْنى الزوجين مع أهل الزوج أو مع أهل الزوجة ، يضربهما بروح التواكل ، وعدم الاعتماد على النفس فى تناول المشكلات الاقتصادية التى تجابههما ، فهما يتركان حل تلك المشكلات فى أيدى الكبار . وبتعبير آخر فإن وجودهما فى نطاق الأسرة الأم ، لا يكسبهما خبْرة اقتصادية جديدة ، بل يبقيهما عيالاً لا يتحملان المسئولية ، ولا يحسان بأنهما يُمْسكان بالدفة الاقتصادية لأسرتهما الجديدة . أما من حيث الخبرّة التى تقول إنهما يكتسبانها من الأسرة الأم ، فإن الواقع أن الوالدين يعتقدان أن العروسين أقل منهما خبرة بكثير ، وأن لديهما كنز من المعرفة والخبرة ، يتحتم على العروسين أن ينهلا منه ، فى حين أن العروسين يعتقدان أن الوالدين يتسمان بالرجعية ، ولا يماشيان تطورات العصر ، وأن الخبرات المستحدثة قد فاتتهما معرفتها والتمكن منها ، وأنهما فى حاجة إلى أن يطوّرا أفكارهما . وباختصار فإن صراعًا ينشأ بين الطرفين اللذين يعتقد كل طرف منهما أنه أعلم من الطرف الآخر وأعمق منه خبرة ، وأن الخليق به أن يأخذ عنه ويتعلم على يديه ، حتى يتسنى له إثبات وجوده ، والتمكن من أن يسلك طريق الصواب .

المعارض : إن المسألة نسبية فى الواقع ، بمعنى أن ما ذكرته فيما يتعلق بالمسائل الاقتصادية والخبْرية ، وما ينشأ من صراع بين الزوج وحماته ، أو بينه وبين حميه في حالة إقامته مع أسرة زوجته ،

Looloo
www.dvd4arab.com

أو بين الزوجة وحماتها ، أو بينها وبين حميها فى حالة الإقامة مع أسرة الزوج ، إنما هى حالات فردية ، وليست حالات عامة . فكم من أسر تعيش فى سلام وراحة بال ، بالرغم من سكنى أبنائها فى نطاقها بعد الزواج . وكم من خبرات عظيمة اكتسبها الصغار من الكبار ، وبذا فلا تنتقل المسئولية إلى الزوجين الحديثين فجأة ، بل تنتقل إليهما بالتدرُّج المريح . ناهيك عن المشاكل التى قد تنشأ بين الزوجين الصغيرين ويمكن أن تُحل بواسطة الكبار بهدوء وموضوعية وتعاون . ناهيك عن أزمة المساكن التى استعرت ، فلا يكون من مناص إذن عن سكنى العروسين مع أسرة العريس ، أو مع أسرة العروس ، أضف إلى هذا أن البيت الذى نشأ فيه العريس ، والبيت الذى نشأت فيه العروس يكون مجهّزًا بكل شىء تقريبًا ، بحيث لا يتحمل العروسان نفقات لتجهيز بيت جديد خاص بهما .

المؤيد : إذا كان هذا مفيدًا من الناحية الاقتصادية ، فإنه غير مريح من الناحية النفسية . فالشاب الذى يسكن مع أسرته بعد الزواج ، لا يحس بأنه قد بدأ بداية جديدة فى حياته ، أو أنه يتمتع بالجديد فى كل شىء حوله ، وكذا حال العروس التى تسكن فى بيت والديها بعد زواجها . فهى لا تحس بأن شيئًا ما قد تغيَّر فى حياتها ، بل إنها مستمرة على المنوال نفسه الذى كانت عليه قبل الزواج . فما الجديد إذن الذى طرأ عليها ؟ وكيف تستطيع أن تحس بأنها قد صارت صاحبة أسرة جديدة ، وهى ما تزال تنهج على النحو نفسه الذى ظلت تنهجه من يوم ميلادها إلى أن تزوجت ؟ وكيف تحترم زوجها العريس ، وهو الذى انضم إلى أسرتها ، وصار واحدًا من الرعية التى تضم إخوتها وأخواتها ؟

المعارض : لا أوافقك على ما ذهبت إليه . فالواقع أن الجدّة التى تزعم أن العريس أو العروس يفتقدانها ، يمكن أن تتوافر فى بيت الأسرة الأم ، سواء أكانت أسرة والد العريس ، أم أسرة والد العروس . فمن الممكن إحداث تجديدات فى حجرات الشقة التى تقطنها الأسرة الأم ، وذلك بشراء أثاث جديد ، وتخصيص حجرة نوم خاصة بالعروسين ، فلا تكون هناك عندئذ مفارقة بين سكنهما فى شقة مستقلة ، وبين سكنهما مع أسرة العريس ، أو مع أسرة العروس . أما من الناحية المالية ، فإن من الممكن الاستقلال بصدد نفقات المعيشة ، أو حتى لقد يكون من الممكن أن يتولى الابن أو أن تتولى الابنة المسئولية المالية بأسرها الخاصة بأسرتها والأسرة الكبيرة التى يعيشان فى نطاقها .

المؤيد : إنك تتخيل أن الأسرة الأم تقطن فى شقة بها حجرات متعددة وواسعة ، كما أنك تتخيل أن الأسرة الأم متمتعة بالرخاء والسعة ، وأن بمقدروها أن تُدخل تعديلات جوهرية على نظام حياتها ، وأن تقوم بتجديد أثاثها ، وأن تخصص حجرة مستقلة للعروسين ، مع أن الواقع أن الغالبية العظمى من الأسر المتوسطة ، وبالأحرى الأسر الفقيرة ، لا تمتلك تلك الإمكانات المالية التى تتخيلها . فما تذهب إليه ليس سوى وهم بعيد عن الواقع الموجود بالفعل . فالغالبية العظمى من الأسر المتوسطة مطحونة تحت نير الغلاء المستعر ، ناهيك عن أن الأسر الفقيرة لا تستطيع أن تدخل أى تعديلات على شقتها . وناهيك أيضًا عن أن إمكاناتها لا يمكن أن تُمكّنها من تجديد أثاثها ، أو أن تكفل للأسرة الوليدة أى لمحة من التجديد الذى يشعرها بأنها قد بدأت حياتها بشىء جديد .

Looloo
www.dvd4arab.com

المعارض : إن الخطأ فى تفكيرك يتركز فى أنك تنظر إلى الحياة الزوجية من الزاوية المالية فحسب ، وقد أغفلت جوهرها ، وهو الحب الذى يجب أن يظلل على قلبى الزوجين الجديدين ، فإذا كان الحب هو الذى يكلل حياة العروسين ، فإنهما يكونان إذن سعيدين فى أى مكان يعيشان فيه معًا . فالحب هو جوهر الحياة الزوجية ، أما الناحية الاقتصادية فهى مجرد عامل مساعد .

المؤيد : هذا كلام نقرؤه فى الروايات ونشاهده فى أفلام السينما والتلفزيون التى تصور الحياة الزوجية فى صورة رومانسية بعيدة عن الواقعية . فالحب الذى نقول عنه ، لا يتأجج إلا خلال فترة الخطوبة . ولكن بعد الزواج مباشرة ، تبدأ النظرة الواقعية إلى الإمكانات فى السيطرة على عقلى وقلبى العروسين . فالواقع حولهما هو الذى يحدد مستوى اتفاقهما بإزاء مشروع الزواج . فبعد أن كان الحب والتضحية هما المسيطرين والمهيمنين على قلبيهما ، فإن الواقعية وحساب المكسب والخسارة هما اللذان يسيطران عليهما بعد الزواج .

المعارض : لو كان كلامك هذا هو الواقع الحادث بالفعل ، لما كانت هناك أى أسرة متمتعة بالسعادة والرسوخ . فما تقوله لا ينطبق إلا بإزاء الأسر التى لم تُبْنِ على أساس من الحب المكين بين الطرفين ، بل قامت على أساس المصلحة والتقييم الاقتصادى للحياة . أما الزوجان اللذان يحسان بالحب الذى يجمع بينهما بثبات وعمق ، فإن المسائل الاقتصادية لا تحتل فى نظرهما سوى المرتبة الثانية بعد المرتبة التى يحتلها الحب الذى يكللهما . ونحن نعرف الكثير جدًا من الأسرة التى ترتكز فى علاقاتها على أساس الحب أولاً وأخيرًا ، ولا تنظر إلى الناحية الاقتصادية إلا باعتبارها عاملاً مساعدا لتسيير دفة المعيشة ، وليس عاملاً أساسيًا وجوهريًا .

المؤيد : وحتى إذا سلمت لك بما تقوله ، فمما لا شك فيه أن العروسين اللذين يستقلان بحياتهما ، ويواجهان المشاكل معًا ، ويتحملان مشقّة الحياة . يكتسبان الخبرة الاقتصادية . فعندما يحسان بأنهما أسرة مستقلة بذاتها ، وأن دخلهما محدود ، وأنه لا مُعيل لهما غير ذلك الدخل ، فإنهما يحسبان حساب نفقات المعيشة بتدبّر وحكمة ، ويتعلّمان كيف تُرْبط الأحزمة إذا ما تطلب الأمر ربطها ، كما أنهما يخططان للمستقبل الاقتصادى الذى سوف يواجهانه . وأكثر من هذا فإن الكفاح الاقتصادى والتعاون بين العروسين ، وتحملهما المسئولية بالكامل بهذا الصدد ، لمما ينمّى لديهما الشعور بالترابط ، كما أنه يؤكد روح المحبة فيما بينهما ، بفضل الاهتمام والهموم المشتركة . أما إذا كان حظ العروسين من الناحية الاقتصادية عظيمًا ، فإن الوفْرة التى بين أيديهما ، تجعلهما يخططان لاستثمار المال الذى فى حوزتهما فى مشروعات آنية ومستقبلية ، فيسبحان معًا فى آمال عريضة ، ويبذلان جهدهما لإحالتها إلى واقع فعلى . وعلى أية حال فأنا أعتقد أن الشاب أو الشابة اللذين لا يتأكدان من أن مشروع زواجهما سوف يكون مكفولاً بالاستقرار الاقتصادى ، وأنهما سوف يعيشان فى استقلال عن أسرتيهما ، فأولى بهما ألا يقبلا على الزواج . فالزواج الذى يبدأ بالاعتماد على أسرة أحدهما مآله الفشل ، أو سيكون مفعمًا بالمشكلات التى لا نهاية لها والتى تزداد تعقيدًا باستمرار .

المعارض : معنى كلامك هذا أن الزواج سوف يقتصر على أبناء وبنات الأغنياء دون أبناء وبنات الطبقة الوسطى ، وبالأحرى دون الطبقة الفقيرة . فأنت واقف بالطبع على الصعوبات الجمّة التى تكتنف مشروع إرساء قواعد أسرة جديدة فى شقة مستقلة ، وممارسة

Looloo
www.dvd4arab.com

حياة اقتصادية مستقلة ، ولعلك تعرف أن الكثير من الأسر تعتمد على ما ينفقه الابن أو البنت من دخلهما على الأسرة الأم ، ويساعدانها على تحمل نفقات المعيشة . فهل يظل الابن أو البنت بغير زواج ، أم أنهما يتوقفان عن مساعدة الأسرة التى نشّأتهما وقامت بتربيتهما ، وضحّت بالكثير من أجلهما لكى يتزوجا ويستقلا عن أسرتيهما ؟

المؤيد : أنا رأيى أن الأسرة الفقيرة يجب أن تخطط للمستقبل . فمن الممكن أن يجد الابن أسرة ميسورة الحال توفّر له شقة هو وابنتها التى يتزوجها . ومن الممكن أن توفق الابنة إلى الشيء نفسه ، فتجد الشاب الذى يحبها ، ويوفر لها الشقة المستقلة تجمعهما معًا . وإذا لم يتيسر ذلك ، فالأحرى بالابن أو البنت أن تؤجل الزواج إلى أن تسنح الفرصة المناسبة للاستقلال اقتصاديًا عن أسرتها . ولا يعزب عن البال أن الكثير من الأسر الفقيرة أو المتوسطة ، تعتادعلى مساعدة الابن أو البنت لها ، مع أنها تستطيع أن تستقل بدخلها الخاص بها ، ولا يصيبها أى سوء أو عوز ، إذا ما استقل الابن أو استقلت البنت عنها بدخلهما وأنفقاه على أسرتيهما الوليدتين . فليس بخاف أن الطمع يملأ قلوب كثير من الآباء والأمهات ، فيدأبون على امتصاص دخل أولادهم وبناتهم ، ويشعرونهم بالحاجة والفاقة دائمًا ، بالرغم من أن المتوافر بين أيديهما ، يكفى جدًا لسد نفقات أسرتهما ، حتى بعد زواجهم واستقلالهم عنهم .

المعارض : على الرغم من أنى أوافقك على بعض ما ذكرته ، فإنى أرغب فى الانتقال إلى نقطة أخرى تتعلق بتربية الأولاد . فبعد أن يتزوج الولد أو تتزوج البنت وينجبان أطفالاً ، فإن أولئك الأطفال يصيرون بحاجة إلى رعاية مباشرة ، لا تتوافر فى الغالب من جانب

الزوجة التى تعمل فى معظم الأحوال وتغيب عن بيتها معظم ساعات النهار . وبالتالى فإنها لابد أن تترك أطفالها فى حضن تأمن عليهم فيه . ولقد ثبت أن مدارس الحضانة ــ إذا ما توافرت ــ تتقاضى مصاريف مدرسية باهظة جدًا من جهة ، كما أنها ليست مأمونة الجانب فى القيام بالتربية الجيدة من جهة أخرى . ذلك أن غالبية مدرسات تلك الحضانات ، غير مؤهلات تربويًا ، ويقع الاختيار عليهن من قبل صاحب أو صاحبة الحضانة لحسن المظهر والتمتع بمستوى مرتفع من الجمال . ناهيك عن أن الرعاية بالجملة ، أعنى رعاية عدد كبير من الأطفال ، أقل جدوى بكثير من الرعاية المركزة والمخصّصة لطفل أو طفلين أو ثلاثة أطفال على أكثر تقدير . ومن المؤكد أن والدة الزوج أو والدة الزوجة تكون أكثر حنانًا ، وأفضل رعاية للطفل الصغير من مدرّسة الحضانة . وعلى هذا فإن السُكنى مع أهل الزوج أو مع أهل الزوجة تعتبر ضرورة حتمية تتطلبها مصلحة الأطفال ، حتى ينشئوا فى جو من الطمأنينة والرعاية والحنان .

المؤيد : الواقع أن ما تذكره بصدد هذه النقطة ليس لصالح السكنى مع أهل الزوج أو مع أهل الزوجة . ذلك أن الرعاية التربوية بالحضانات أفضل بكثير من الرعاية فى عزلة بإحدى الشقق . فالطفل الذى ينشأ فى الحضانة يكتسب الكثير من الخبرات التى يستقيها من زملائه . فهو يحس بالطمأنينة وبالروح الجماعية منذ طفولته ، وينشأ على التعاون والانتماء ، ولايكون إنسانًا أنانيًا وحشيًا بسبب سجنه فى إطار الشقة التى تضم والدة الزوج ووالده ، أو والدة الزوجة ووالدها فحسب . وحتى إذا كانت والدة الزوج أو والدة الزوجة متمتعة بقدر كبير من الحنان الذى تبديه للطفل ، فإن انتماءه يكون لها وليس لأمه وأبيه . فهو يحس بالاغتراب عن والديه ، ويتعلق بأسرة جدّه وجدّته

Looloo
www.dvd4arab.com

لأبيه أو أمه . ناهيك عن اختلاف القيم والاتجاهات التى تعتمل فى قوام الجيلين المتباينين . فالأم لا يعجبها ما تبثه الجدة فى عقل وقلب طفلها . وبالتالى فإن صراعًا تربويًا ينشأ بين الجانبين . فالأم إما أن تتهم حماتها أو أمها بأنها تقسو على طفلها لأنها ضربته فى غيابها ، وإما أن تتهمها بتدليله وعدم اتباع الحزم معه . وكذا الحال بالنسبة للأب . فهو يحزن من صميم قلبه لأنه يحس بأن أطفاله الذين نشئوا فى نطاق أسرة والديه ، أو فى نطاق أسرة والدى زوجته لا يحبونه ولا يطيقونه ، ويعتبرونه شخصًا غريبًا عنهم ، وذلك لأنهم لا يكادون يشاهدونه إلا بعد رجوعه من عمله منهكا يرغب فى العزلة بعيدًا عنهم ، ولا يطيق سماع أصواتهم ، ولا يداعبهم ، ولا يستمع إلى شكاواهم أو رغباتهم وطلباتهم ، ولا ينصت لما يرغبون فى سرده على سمعه من أحداث وقعت فى غيابه ، وقد صارت تعتمل رغبة شديدة لديهم لتبادل الحديث معه .

المعارض : وحتى إذا كان فيما ذكرته بعض الصدق ، فإن ما يلقاه الطفل من رعاية فى حضن أسرة الجد والجدّة لوالديه أو لأمه ، أقل ضررًا بكثير من الأضرار التى تصيبه فى الحضانة . فالكثير من مدرسات الحضانة يتبرّمن بالأطفال العديدين الذين يقمن برعاتيهم ، ولا يهمهن سوى أن يحصلن على المرتب المجزى فى آخر الشهر ، بالإضافة إلى الهبات والهدايا التى يجزلها لهن أولياء الأمور . فالطفل الذى لا يقدم أبوه إلى المدرّسة ما يعجبها ويرضيها يُنبذ ويُضطهد . فثمّة نوع من السباق بين أولياء الأمور ؛ لإرضاء مدرّسة الحضانة لكى تكفل الرعاية الممتازة لأبنائهم . فأسرة الطفل التى تقدم هدايا ورشاوى أكثر ، يحظى طفلها برعاية أكبر . وبالتالى فإن التفرقة فى معاملة الأطفال تتضح بجلاء وهم يُحسّونها بأنفسهم ، فتنشأ طبقية

واضحة فيما بينهم ، ويبدأ الطفل الذى لا يحظى بالرعاية نفسها التى يحظى بها زميله أو زميلته بالفصل فى الشعور بالدونية ، بينما يحس الطفل المميّز عن زميله أو عن زميلته بالغرور والتعالى عليهما . ومعنى هذا فى الواقع أن العقد النفسية تبدأ فى التبلور والبزوغ إلى حيز السلوك الخارجى وفى التصرفات والعلاقات بين الأطفال بعضهم وبعض من جهة ، وبين الأطفال والكبار من جهة أخرى .

المؤيد : من المؤكد أن العلاقات الاجتماعية فى أى مكان ، مشوبة ببعض النقائص أو ببعض العيوب أو الأضرار . فسواء تربى الطفل فى حضن الجدّة للأب أو للأم ، أم تربى فى الحضانة ، فلابد أن تكون هناك بعض العيوب والمثالب فى التربية التى يتلقاها . ولكن هناك مجموعة من الاعتبارات أو التقييمات التى يجب أن نأخذها فى اعتبارنا . **فثمّة أولاً : الاعتبار الحضارى :** ففى ضوء الحضارة ، وما تفرضه علينا جميعا ، فإن على الأم أن تعمل حتى تحقق شخصيتها ، وحتى تساهم بنصيب فى خدمة المجتمع وفى تأمين مستقبلها ، ومن ثمّ فإن الطفل لابد أن يتوافر له من يرعاه ، سواء أكان ذلك الذى يرعاه هو الجدّة أم مدرّسة الحضانة . فإذا نحن قارنا بين الأصلح لرعاية الطفل ، فإننا نجد أنها مدرّسة الحضانة ، وبخاصة أن الكثير من المسنين ، أعنى الأجداد والجدّات ، يكونون برمين بالأطفال ، ولا يطيقون سماع أصواتهم العالية أو متابعة نشاطهم الحركى ، الذى لا يخلو من تخريب ومخاطر . **ثانيًا : القيم المتباينة مع تباين الأجيال :** فالواقع أن مدرّسة الحضانة تحمل قيم الحاضر ، بينما تحمل الجدّة قيم الماضى . فما تبثه مدرّسة الحضانة فى الطفل هو القيم المعاصرة ، بينما تبث فيه الجدّة قيم الماضى مما يضربه بالجمود والانغلاق على أفكار وقيم لا تتعلق بالعصر الحالى ولا تتعلق بما

Looloo
www.dvd4arab.com

تتأدّى إليه القيم فى المستقبل . وبتعبير آخر فإن الحضانة أفضل للطفل من البيت . **ثالثًا : الانطلاق والتحرر الحركى والتعبيرى** : فمن الحقائق المعروفة للجميع أن الغالبية العظمى من الشقق ضيّقة ، بحيث لا يكاد الطفل يجد فيها المساحة التى تسمح له بالانطلاق فيها بالجرى والقفز ، ولكن الحضانة تتسع لذلك بما تضمه من فناء واسع يستطيع الأطفال أن يجدوا فيه المكان المناسب لمزاولة أنشطتهم الحركية والاجتماعية المتباينة. **رابعًا : خطة العمل والرعاية** : فالواقع أن مدرّسة الحضانة تلتزم بخطة عمل ورعاية لابد أن تنفذها قِبَل الأطفال ، وعليها رقابة ومتابعة من جانب الناظرة والموجهين ، فيقومون بتوجيهها وتخصيب خبراتها ، ولكن الجدّة لا تلتزم بأى خطة على الإطلاق تنفذها بإزاء الطفل الذى يكون فى نطاق مسئوليتها . **خامسًا : سعادة الطفل مع أترابه** : والطفل يجد سعادته مع غيره من أطفال بالحضانة ، وعلى عكس ذلك فإنه يحس بالضيق والتبرُّم من ذلك السجن الانفرادى الذى تفرضه عليه جدّته . فكيف يتنسم رحيق الحرية وهو محروم من التعامل مع أترابه من الأطفال الذين يتناغم معهم ويتجاوب وينسجم ، بينما هو يحس بالاغتراب والنفور من البقاء مع ذلك الكائن العجوز ، أعنى جدّته التى لا تماشيه فى أنشطته ، ولا تطيق أن تستمع إلى ما يعبّر به عن أحاسيسه ومشاعره وأحلامه . ومعنى هذا أن ما تذكره أنت من ميزات تتعلق بالسُكْنى مع أهل الزوج أو مع أهل الزوجة بخصوص تربية الأطفال ، وتركهم مع الجدّة (للأب أو للأم) ، إنما هو فى الواقع ليس من الميزات فى شىء .

المعارض : إذا كان المفضّل فى نظرك هو إلحاق الطفل بالحضانة ، ولا يترك مع الجدّة ، فإن هذا لا يحول دون السكنى مع

أسرة الزوج ، أو مع أسرة الزوجة . فوجود الجدّة بالشقة ، يُغْنى عن وجود شغالة تقوم بإعداد الطعام واستقبال الطفل لدى عودته من الحضانة أو من المدرسة بعد أن يكبر . فمما لا شك فيه أن الجدّة (للأب أو للأم) ، تكون أكثر إخلاصًا وأكثر حنانًا ورعاية من الشغالة . ناهيك عن المرتبات الطائلة التى تتقاضاها الشغالات فى هذه الأيام ، وهى المرتبات التى قد تفوق مرتب الزوج أو مرتب الزوجة ، إذ تبلغ أكثر من مائتى جنيه فى الشهر الواحد .

المؤيد : صحيح أن الشغالات ، أو بتعبير آخر المربيات الخصوصيات ، أو بديلات ربات البيوت ، يتقاضين مرتبات باهظة ، وأنك تفضل لذلك السكنى مع أهل الزوج ، أو مع أهل الزوجة ، حتى يستغنى عن تلك المربيات . ولكنك نسيت نقطة مهمة وهى أن جدّات الأجيال المعاصرة يختلفن اختلافًا جذريًا عن جدّات الأجيال القديمة . فالغالبية العظمى منهن يتأبَّين عن تقديم التضحيات من أجل الابنة أو من أجل زوج البنت فى حالة السكنى مع أهل الزوجة ، ولا يقبلن أن يبذلن التضحيات من أجل الابن وأولاده وزوجته والقيام بدلاً من الأم برعاية الأطفال فى أثناء تغيبها بمقر عملها خارج البيت . فهن يُعلّن بصراحة أنهن قد قمن بنصيبهن من رعاية أطفالهن حتى كبروا وصاروا مسئولين عن أنفسهم وعن أطفالهم . وبالتالى فإنهن يرفضن القيام بتلك الرعاية ، ويلزمن أبناءهن وبناتهن بالاستعانة بالمربيات لرعاية أطفالهم بالبيت إذا ما سكنوا معهم . وبالتالى فإن الميزة التى تتوهمها أنت بأنها متوافرة فى حالة السُكْنى مع أهل الزوج أو السُكْنى مع أهل الزوجة ، لم تعد موجودة بسبب رفض الجدّات القيام بدور الخادمة أو المربية للأطفال فى أثناء غياب الأمهات خارج البيت .

Looloo
www.dvd4arab.com

المعارض : وحتى إذا كان ما تقوله صحيحًا وينطبق بإزاء الكثير من الجدّات فى الوقت الحاضر ، وإلحاحهن بضرورة وجود مربية بالبيت ، فإن هذا لا ينفى الميزات التى تتأتى عن تواجد الجدّة إلى جانب المربية فى الإشراف على الرعاية السليمة وتوجيهها . ذلك أن الكثير من المربيات لا يؤمن جانبهن عند خلو الشقة من أى رقيب عليهن . ومعنى هذا أن السكنى مع أهل الزوج أو مع أهل الزوجة ، أفضل ضامن لحسن رعاية الأطفال فى أثناء غياب الوالدين عن الشقة .

المؤيد : إن ما ذكرته مردود عليه بأن الوالدين ليسا ملزمين باستئجار مربية للأطفال ، وكما سبق أن قلت لك ، فإن الدولة والمؤسسات التربوية ، تضطلع بمهمة توفير المناخ المناسب للرعاية التربوية الصالحة للأطفال ، وذلك بتوظيف مدرّسات مؤهلات تربويًا فى الحضانات . وطبيعى أن مصاريف كل حضانة تتفاوت عن غيرها من حضانات حسب مستوى كل منها وما يتوافر بها من إمكانات . ولكن بشكل عام فإن الأسعار تتمشى مع مستويات أولياء الأمور الاقتصادية إلى حد بعيد .

المعارض : دعنى أنتقل إلى نقطة أخرى على جانب كبير من الأهمية ، وهى الدفء العاطفى الذى يتلقاه الزوجان من الأسرة الأم ، وما يتواكب معه من تكافل اجتماعى ، وتناغم وجدانى ، فالواقع أن انعزال العروسين فى شقة بعيدًا عن مقر إقامة الوالدين ، واستمرار عزلتهما بها ، أو بتعبير أدق حرمانهما من التعاطف مع أقرب الناس إليهما ، لا يمكن تعويضه بما يتبادلانه من عواطف بعضهما مع بعض . فعاطفة الوالدين لا يمكن الاستغناء عنها . فليس معنى أن يتزوج الابن أو أن تتزوج البنت ، أنهما قد صارا فى غنى عن تلقى العاطفة

والرعاية النفسية من الأسرة التى نشأ فيها وترعرعا . فهما بحاجة مستمرة إلى الاستقبال العاطفى من الوالدين ، كما أنهما بحاجة إلى التصدير العاطفى ، أعنى الحنان الذى يتلقيانه من الوالدين ، والحنان الذى يصدّرانه إلى أولادهما بعد الإنجاب .

المؤيد : إن ما تقوله بعيد فى الواقع بعدًا شاسعًا عن الصواب . فما يحمله الوالدان من تدفّق عاطفى نحو أولادهم ، يأخذ فى الانقشاع والاضمحلال تدريجيًا كلما كبروا ، وكذا الحال بالنسبة للأبناء والبنات . فتعلّق الطفل بأمه وأبيه ، يكون أكثر من تعلّقه بهما بعد انخراطه فى المراهقة . وكذا فإن تعلقه بهما خلال انخراطه فى المراهقة ، يكون أكثر وأعمق من تعلقه بهما بعد انخراطه فى مرحلة الشباب . وأكثر من هذا فإن ثمة صراعًا لا شعوريًا أو شعوريًا ، ينشب فى الغالب بين الأولاد والبنات من جهة ، وبين والديهم من جهة أخرى . ذلك أن الرواسب التى ترسّبت تدريجيًا فى قوامهم اللاشعورى نتيجة تعنّت الوالدين فى تربيتهم ، أو باستخدام الضرب فى تربيتهم وهم صغار ، أو تقييد حريتهم ، وإصدار النواهى إليهم باستمرار عندما كانوا تحت نير رعايتهما لهم ، تشكّل لديهم رغبة محتدمة للتخلص منهما ، والبعد عنهما ، والتحرر من القيود التى ظلا يفرضانها عليهم طوال مراحل عمرهم منذ طفولتهم إلى أن آن الأوان للبعد عنهما ، وتشكيل أسر مستقلة خاصة بهم . وبتعبير أصرح فإن ثمة صراعًا بين الحب والكراهية ، أو بين الطاعة والعصيان ، أو بين الولاء والابتعاد والهجران ، يعتمل فى دخيلة كل من الزوج والزوجة تجاه والدى كل منهما ، الأمر الذى يحملهما على الرغبة فى السُكنى بمفردهما مع أولادهما فى شقة مستقلة عن شقة الأسرة التى نشأ فيها وشبا عن الطوق فى نطاقها .

Looloo
www.dvd4arab.com

المعارض : إنك فى الواقع تتناول الحالات الشاذة وتقوم بالتعميم فى ضوئها . فما تذكره عن كراهية الأولاد والبنات لآبائهم وأمهاتهم ، وما تُفضى إليه تلك الكراهية من هجران وابتعاد عنهم ، عندما تحين أول فرصة لذلك ، بانخراطهم فى الزواج ، وقد تسنى لهم بذلك أن يخرجوا من نطاق أسرهم التى نشئوا فيها ، وأن يتخلصوا من إذلال أولئك الآباء والأمهات لهم ، ومن استخدام أساليب القسوة معهم ، إنما هو فى الواقع خروج عن القاعدة وهو تعبير عن الحالات غير السوية . ولعلى أستطيع أن أشبهك بمن يقول : إن جميع الناس يجب أن يحوّلوا إلى المستشفيات لعلاجهم ؛ لأنهم مرضى . فمثل هذا التعميم خطأ بائن ، لأن الكثير من الناس أصحاء ، ويجب ألا نعتبرهم جميعًا مرضى يجب تحويلهم إلى المستشفيات لعلاجهم لمجرّد أن بعض الناس مرضى . فالواقع أن بعض الأبناء والبنات يكرهون أباءهم وأمهاتهم بسب معاملتهم القاسية لهم خلال مراحل حياتهم بدءًا بالطفولة وحتى كبروا ، فترسَّبت لديهم نتيجة ذلك عقد نفسية ضدهم . ولكن فى المقابل فإن هناك الغالبية العظمى من الأبناء والبنات ، لا يذكرون لأبائهم وأمهاتهم إلا كل خير وحب ، وأنهم عاملوهم بالرفق والود والحرص على مصلحتهم . وحتى فى الحالات التى كانوا يستخدمون فيها الحزم معهم ، فإنها كانت حالات طارئة ، ولا تؤدى إلى إفساد الذكريات الطيبة التى ما يزالون يحملونها لهم فى قلوبهم ، وبالتالى فليست هناك عقد نفسية تنغص عليهم حياتهم ضد آبائهم وأمهاتهم . فما تذكره إذن من أن الدافع إلى استقلال الأبناء والبنات عن أسرهم التى نشئوا فيها ، هو اعتمال تلك الذكريات المؤلمة المترسبة فى أعماقهم ، بادى البهتان والخطأ .

المؤيد : إنك فى الواقع لا تتناول سوى الظاهر من السلوك ، ولا تعترف إلا بما يفوه به معظم الكبار عن ذكرياتهم الطيبة المتعلقة بآبائهم وأمهاتهم . ولكنك تتناسى ، أو لا تعرف ، أن ما يعتمل فى القوام اللاشعورى للمرء ، مبآين تمامًا فى الغالبية العظمى من الحالات لما يطفو على سطح شعوره . فما يعبر به الابن أو البنت عن حبهما العميق لوالديهما ، إنما هو عكس ما يعتمل بدخيلتيهما . وبتعبير آخر فإن ما يعبر به الأبناء والبنات عن حبهم لآبائهم وأمهاتهم ، يدخل فى نطاق الأخلاق ، وفى نطاق ما يجب أن يسلك المرء وَفْقه أمام الناس ، بل وأمام نفسه ممثلاً فى الجهاز النفسى المعتمل فى قوامه المسمى بالأنا الأعلى **Super-Ego** . أما ما يعتمل فى أغوار النفس البشرية فى نطاق اللاشعور ، فهو مباين تمامًا ، وعلى عكس ما يبدو فى ظاهرية السلوك . وبتعبير آخر فإن الحب الذى يذكره الأبناء والبنات بألسنتهم ، مباين تمامًا لحقيقة مشاعرهم المخبوءة حتى عن ذواتهم . ولكى ننصف نقول : إن ثمَّة صراعًا فى دخيلة المرء بين الحب والكراهية . فبينما يكون هناك رصيد من الحب يعتمل فى قوام الابن أو البنت تجاه الوالدين ، فإن فى مقابله رصيد آخر من الكراهية يعتمل أيضًا فى قوامهما تجاههما . فتنشأ معركة لا شعورية فى دخيلة المرء بين الحب والكراهية الموجهين إليهما . ومن الطبيعى أن تلك المعركة لا تبدو على سطح الشعور . ولعلنا نشبّه تلك المعركة المحتدمة بصفة دائمة فى دخيلة المرء بين الحب والكراهية ، بتلك النار المتأججة المنحبسة فى باطن الأرض ، والتى تشتعل بشدة هائلة بعيدًا عن الأنظار ، ولكنها لا تتبدى على سطح الأرض إلا إذا تسنى لها الخروج من فوهات البراكين فى هيئة حمم . فما يبدو من هدوء وبرودة على سطح الأرض ، يُخفى تحته ذلك اللهيب المستعر فى

Looloo
www.dvd4arab.com

باطنها . كذا الحال بالنسبة لسلوك الابن أو البنت تجاه والديهما . فبينما يبديان الحب لهما ، ويعبران عما يحسان به شعوريًا من تعلُّق بهما ، فإنهما يخبئان فى داخلية اللاشعور تلك الكراهية المحتدمة لهما دون أن يدركا وجودها شعوريًا ، وذلك لأن الخبرات الكريهة التى ترسَّبت فى قوامهما اللاشعورى لا تخنق وتموت ، بل تظل حية ومستعرة فى نطاق اللاشعور ، ولكنها تنتهز أول فرصة للتعبير عن نفسها بطريقة أو بأخرى . ولعل أول تعبير عنها ، يتبدى فى ذلك الهجران والبعد والاستقلال التام وقطع الصلات شيئًا فشيئا مع الوالدين ، على الرغم من أنهما يعبّران عن ذلك الحب الظاهرى لهما فى كل المناسبات المتاحة .

المعارض : إنك فى الواقع متشائم للغاية ، وتنظر بمنظار أسود إلى العلاقات الإنسانية . فلقد حكمت على العلاقة بين الأبناء والآباء بأنها علاقات كراهية ، وفسرت استقلال الأبناء والبنات عن آبائهم وأمهاتهم فى ضوء الكراهية التى يحسان بها تجاههما على المستوى اللاشعورى . واختلقت ثنائية فى حياة المرء أحد طرفيها الحب ، والطرف الآخر الكراهية . وبتعبير آخر فإنك جعلت النفاق هو الشريعة السائدة فى العلاقات القائمة بين الآباء والبنات وبين آبائهم وأمهاتهم . وأنا لا أوافقك على الإطلاق على ما ذهبت إليه . وأحب أن أرْجع الخطأ الذى وقعت فيه إلى تأثرك الشديد بمدرسة التحليل النفسى بقيادة فرويد الذى عمد إلى الباس العواطف الإنسانية بالتناقض ، وقد تناول الإنسان لا باعتباره كائنًا ينهج وفْق خط سلوكى واحد ، بل وفْق خطين سلوكيين متناقضين : أحدهما السلوك البادى للعيان ، والآخر السلوك المختبئ فى دخيلته اللاشعورية . وأنا من جهتى لا أوافقك على تلك الازدواجية السلوكية التى ادعى فرويد ومن يضربون فى

إثرة وجودها واعتمالها . وطالما أنى لا أعترف بتلك الازدواجية السلوكية ، فإنى بالتالى لا أوافق على ما ذهبت إليه من أن ترك الأولاد والبنات لأبائهم وأمهاتهم ، والسكنى فى شقق مستقلة ، هما ثمرة حتمية لتلك الكراهية المعتملة فى نطاق لا شعورهم ، والتى تلعب أدوارها خلف مسرح حياتهم ، فتكون شبيهة بالملقّن الذى يهمس للممثلين بما يجب عليهم أن يقولوه .

المؤيد : سواء وافقت أم لم توافق على ما ذكرته لك ، فهو الحقيقة المؤكدة . ولعل الباعث لديك لشن ذلك الهجوم العنيف على كلامى ، هو ما يعتمل لديك من مقومات لا شعورية تقاوم ما تحس به شخصيًا من كراهية لوالديك ترغب فى إخفائها عن الأنظار ، بفعل ذلك الرقيب الداخلى ، أعنى الأنا الأعلى الذى يجتهد فى الحفاظ على القيم الاجتماعية التى تؤمن بها ، والتى تؤكد على ضرورة حب الوالدين ، وعدم كراهيتهم على الإطلاق .

المعارض : مازلت أؤكد لك أن تحيزك الشديد لفرويد ومدرسة التحليل النفسى ، هو الذى يدفعك إلى تفسير العلاقات الإنسانية فى ضوء العوامل النفسية ، مع الإغضاء تمامًا عن الوقائع والظروف الخارجية ، وبخاصة ما كان متعلقًا منها بالنواحى الاقتصادية . فنحن لسنا بصدد البحث عن أسباب سكنى الأبناء والبنات بعد الزواج خارج نطاق أسرهم ، بل بإزاء المفاضلة بين الإقامة مع الأسرة الأم ، سواء أكانت أسرة الزوج أم أسرة الزوجة ، وبين الإقامة فى شقة مستقلة عنها . وطبيعى أن الظروف الخارجية ، هى التى تتحكم فى الخيار بين هذين البديلين . وموقفى معروف ، وهو أن السكنى مع الأهل بعد الزواج ، إنما هو لصالح الأسرة الوليدة من جميع الجوانب ، وأن الاستقلال المبكر عن تلك الأسرة الأم يعتبر خطأ وحرمانا لتلك الأسرة

www.dvd4arab.com

الوليدة من تلقى الخبرات التى تساعدها على الاستمرار بكفاءة ونجاح فى حياتها الجديدة ، وأن الظروف الحضارية الحالية تحتم السكنى مع أسرة الزوج أو أسرة الزوجة .

المؤيد : أنا لم أخرج عن حدود المناظرة على الإطلاق ، بل على العكس من ذلك ، فأنا ملتزم بحدودها . ولكن من الضرورى إلقاء الضوء على الظروف الداخلية وعلى الظروف الخارجية جميعًا ، أو بتعبير آخر فإن من الضرورى إلقاء الضوء على المسألة المالية من جهة ، وعلى العوامل النفسية المؤثرة فى اتخاذ القرار من جهة أخرى . فما قلته بالنسبة للحب والكراهية المعتملين فى قوام الأبناء والبنات تجاه الآباء والأمهات ، ليس تزيدًا أو خروجًا عن حدود المناظرة . فالواقع أن النمو الذى يعتمل فى دخيلة المرء منذ طفولته الباكرة ، يدفع به إلى الاستقلال عن الوالدين . وحتى الطفل الوليد يظل متعلقًا بثديى أمه ، إلى أن ينمو إلى المستوى الذى يسمح له بالانفطام ، فيستقل عنها فى تناول غذائه ، ولا يظل متعلقًا بثدييها . وكلما كبر ذلك الطفل ، فإن مدى استقلاله عن أمه ـ وعن أبيه أيضًا ـ يتسع نطاقه ، إلى أن يأتى اليوم الذى ينضج فيه ، فيصل إلى المستوى الذى يحتم عليه أن يستقل عنهما تمامًا ، وأن يشق طريقه فى الحياة باستقلال تام ، فيعتمد على نفسه فى المسائل المالية وغيرها ، ثم يعتمد على نفسه فى إنشاء أسرة جديدة مستقلة ومنفصلة تمامًا عن الأسرة التى نشأ فى رحابها . فحتى إذا أنت رفضت ما ذكرته لك عن اعتمال الحب والكراهية على المستوى اللاشعورى لدى الأبناء والبنات ، فأحسب أنك سوف لا ترفض تفسير استقلال الابن والبنت بعد الزواج ، فى شقق منفصلة عن شقة الوالدين ، بناء على ما يحتمه النضج الذى يصلان إليه من استقلال عن الأسرة الأم .

المعارض : إنك ما تزال منحازًا إلى الزاوية النفسية ، ولا تقيم الاعتبار اللائق للظروف الواقعية التى تحيط بالمرء فى المرحلة التطورية التى نمر خلالها . وأحرى بك أن تنحاز إلى الخارج ، أكثر من انحيازك إلى الداخل . فالواقع أن تأثير المجتمع فى الإنسان أكثر من تأثير المقومات الداخلية والغرائز فيه . فالمقومات النفسية الداخلية بمثابة الخامة التى يقوم المجتمع بصياغتها وفق الصيغة التى يريدها لها . فما يريده المجتمع ، وما تحتمه الظروف الخارجية ، يفرض نفسه على المقومات الداخلية . وهذا يجعلنا نتناول هذه المسألة وغيرها من منظور الواقع الخارجى ، وليس من منظور الواقع النفسى ، أو منظور النمو النفسى الذى تزعمه . فالواقع أن نمو المرء ، ليس انبعاثًا من دخيلته دون تأثر بالواقع الخارجى ، بل هو ثمرة لتفاعل المقومات الداخلية مع المقومات الخارجية . وحتى ما تزعمه من استقلال وتحرر يتصف به المرء عبْر مراحل نموه ، إنما هو حصيلة لذلك التفاعل بين الاستعدادات وبين المؤثرات الخارجية . ومن الممكن أن تتشكل الاستعدادات النفسية وتتخذ أكثر من صيغة واحدة ، فى ضوء التفاعلات التى تقع بينها وبين المقومات أو المؤثرات الخارجية . والسكنى مع أهل الزوج ، أو مع أهل الزوجة ، لا يتعارض من قريب أو من بعيد مع مستوى النمو الذى يحوزه المرء . فمن الممكن أن يكون الابن أو البنت على مستوى عظيم من النمو والنضج النفسى والاجتماعى ، وبرغم ذلك يقطنان فى نطاق أسرتهما التى نشأ فى ربوعها . فلا يكون سكنهما مع الأب أو الأم متعارضًا بأى حال من الأحوال ، مع ما بلغاه من مستوى نمائى ، ومن نضج نفسى واجتماعى واقتصادى ، بل يكون تحت ضغط عوامل أخرى مثل أزمة المساكن ، أو عدم الرغبة فى ترك الأب الذى ماتت زوجته وحيدًا بشقته ، أو لعدم الرغبة فى ترك الأم التى مات زوجها وحيدة فى شقتها .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

المناظرة الثالثة عشرة

تعمل وسائل الإعلام المرئية والمسموعة على التقليل من أهمية القراءة والاطلاع ، فتؤدى بذلك إلى انتشار الأمية الثقافية ، وتضرب الكتاب الثقافى بالبوار والضياع

المؤيد : على الرغم من أن الشائع على الألسنة والأقلام ، أن التلفزيون والإذاعة يعملان على انتشار الثقافة بين مختلف طبقات الشعب ، وأنهما يبثان الحماسة فى عقول الناس للمداومة على القراءة والاطلاع الحر ، فإن الحقيقة التى قد تخفى عن أذهان كثير من الناس ، أن وسائل الإعلام المرئية والمسموعة ، تضرب الناس بالكسل العقلى والتواكل ، والعزوف عن الانكباب على الكتب الثقافية ، بل وعلى الجرائد والمجلات للتزيُّد من المعرفة . ذلك أن القراءة لا تعدو عن أن تكون وسيلة لتحصيل المعرفة والوقوف على الحقائق . أما وسائل الإعلام المرئية والمسموعة فإنها تقدم المعرفة جاهزة ، إذ أن التليفزيون يقدم الواقع والخيال مجسدًا ومتحركًا وناطقًا أمام المشاهد القابع أمامه ، كما أن الراديو يقدم الأخبار فى التو واللحظة ، ولا ينتظر إلى أن يقوم المراسل الصحفى بتسجيلها بالكتابة لنشرها بعد يوم أو يومين على صفحات جريدته ، فمن يتناول الجريدة الحديثة يجد أن الأخبار المنشورة على صفحاتها قد فقدت أهميتها ، وصارت من سقط المتاع ، لأنه سبق أن سمعها بالراديو فى اليوم السابق وقت وقوعها ، أو بعد وقوعها بقليل ، أو يكون قد شاهدها على شاشات

التلفزيون فى وقائع حية أمام عينيه ، كما لو أنه كان فى مكان الحدث نفسه وعايشه . فلماذا يجهد المرء نفسه إذن بالقراءة والاطلاع ، وهو الذى يستطيع أن يصل إلى الغاية المطلوبة بوسيلة سهلة وسريعة ودون مشقة فى بذل الجهد فى القراءة . ويترتب على هذا بالطبع طغيان وسائل الإعلام المرئية والمسموعة على الكتب الثقافية ، بل وعلى الصحف والمجلات أيضًا ، وقد صارت تهددها جميعًا بالقضاء عليها قضاء مبرمًا .

المعارض : أنا أختلف معك فى هذا الرأى . فالواقع أن وسائل الإعلام تشجع المرء على القراءة والاطلاع ، بل قل إنها تهيئه للقيام بذلك ، وتفتح شهيته للبحث والتنقيب والسعى للحصول على مزيد من المعرفة بإزاء ما تعرضه تلك الوسائل الإعلامية من مشاهد وأحداث . فليس من المعقول أن يكتفى المرء بوسائل الإعلام ، وذلك لأنها لا تستطيع أن تقدم الموضوعات التى تستولى على اهتمام الناس وتستهويهم بالتفصيل والعمق ، كما أن الكثير من المجالات المعرفية ، تعجز وسائل الإعلام عن التعرض لها أو سَبْر أغوارها ، أو تخصيص المساحة اللازمة لا ستعراضها بدقة . خذ مثالاً لذلك موضوع الهندسة الوراثية . صحيح أن وسائل الإعلام كان لها الفضل فى التعرض لهذه الهندسة وجعل اسمها مألوفًا على ألسنة المتلقين ، وواضحًا فى أذهان المشاهدين والمستمعين . ولكنها لا تستطيع أن تقدم المعلومات الكافية لوقف المرء على كنهها وأفاقها . فمن يرغب فى الاستزادة والتبحر وسبْر أغوار تلك الهندسة الوراثية ، فإن عليه أن يعكف على الكتب المتخصصة فى هذا المجال ، وأن يبذل الجهد الذهنى العميق ، حتى يلم بما يرغب فى الإلمام به .

Looloo
www.dvd4arab.com

المؤيد : آسف أن أقول لك : إنك تركز ذهنك فى طبقة معينة من الناس ، وهى طبقة صغيرة للغاية من المثقفين أو من المتخصصين ، أو من المشتغلين بالكتابة الذين يعملون فى مجالات متخصصة . ولكنك أغضيت عن جموع الشعب الذين تستهويهم البرامج الحاشدة التى تقدمها برامج التليفزيون والإذاعة ، وهى البرامج التى تهتم أكثر ما تهتم بجذب المشاهد أو المستمع إليها ، وأسره فى قبضتها ، بل إن التنافس اليوم محتدم بين التلفزيون القومى وبين العديد من محطات التليفزيون الأجنبية التى تقدم العديد جدًا من المشاهد والبرامج والاستعراضات التى تأخذ بالألباب . وها هو الدِش قد انتشر على نطاق واسع ، بحيث صار يسمح لصاحبه بمتابعة البرامج التليفزيونية شرقًا وغربًا ، وشمالاً وجنوبًا طوال الأربع والعشرين ساعة حسب رغبته ومزاجه . ناهيك عن الراديو الذى لا يتوقف إرساله من إذاعات الدنيا كلها التى تتسابق على جذب أكبر عدد منالمستمعين إليها . وبينما نجد أن التنافس محتدم بين محطات التليفزيون المختلفة على مستوى العالم ، فإن معركة التنافس قد صارت محتدمة أيضًا على المستوى المحلى بين التليفزيون والإذاعة . أما الذى وقع صريع هذا التنافس الضارى ، فهو الكتاب الثقافى ، أو بتغيير أعم الكلمة المطبوعة ، سواء الكلمة المطبوعة على صفحات كتاب أو على صفحات جريدة أو مجلة . وإذا قلت لى إن الكتب والجرائد والمجلات ما تزال بخير ، وما تزال تطبع وتوزع ، فإنى أجيبك بأن نسبة ما يطبع من الكتب والجرائد والمجلات إلى تعداد مجموع الشعب آخذه فى الانكماش شيئًا فشيئًا . فإذا أنت قمت بعمل إحصائية لتحديد تلك النسب عبر خمس سنوات فقط ، فإنك ستجد

ما يذهلك ، إذا أن نسبة ما يطبع أو يوزع منها أخذة فى الاضمحلال بشكل يدعو إلى القلق والحسرة .

المعارض : الواقع أنك تظلم وسائل الإعلام المرئية والمسموعة ، ذلك أنك لم تكشف النقاب عن العامل الحقيقى فى ذلك الانكماش فى عدد القراءة والمطّلعين على الكلام المكتوب . فلعلك تعلم أن النظام التعليمى بمدارسنا قد ثبت فشله فى ترغيب التلاميذ والطلاب فى القراءة الحرة وقد قيدهم بالكتاب المدرسى المقرر وسجَنهم بين دفتيه ، فصار التلميذ والطالب يبغضانه أشد البغض وأمقته ؛ لأنه يظل طوال العام الدراسى بين أيديهما إلى أن يملا منظره ، ويكرهان مجرد التطلع إليه . ومن ثمَّ فإن تلك الكراهية التى كانت منحصرة فى نطاق الكتاب المدرسى المقرر ، قد عمّت جميع الكتب بما فيها الكتب الثقافية العامة ، بل وانسحبت أيضًا على جميع المطبوعات التى تحمل الكلام المطبوع . فلا تقل إذن : إن وسائل الإعلام المرئية والمسموعة ، هى السبب فى عزوف الناس عن القراءة الحرة ، بل قل: إن النظم التعليمية الرجعية المتزمتة ، هى التى أفضت إلى هذه النتيجة المؤلمة . فعلى الرغم من أنى أوافقك على ما حدث من انكماش فى مدى انتشار الكتب الثقافية والجرائد والمجلات ، فإنى أعزو ذلك الانكماش إلى مساوئ التعليم ، وليس إلى وسائل الإعلام المرئية والمسموعة .

المؤيد : إنك فى الواقع تغمض عينيك عن أن وسائل الإعلام المرئية والمسموعة تهتم بالأفلام والمسلسلات وغير ذلك من برامج تستهوى عقول وقلوب المشاهدين والمستمعين فإذا ما فاضل المرء بين مشاهدة التلفزيون أو سماع الراديو وبين العكوف على كتاب ثقافى ، أو حتى على جريدة أو مجلة ، فإنه بالطبع يفضل مشاهدة

Loolou
www.dvd4arab.com

الأفلام والمسلسلات التى يعرضها التلفزيون أو الراديو ، وهو مستلق على فراشة دون أن يبذل جهدًا ذهنيًا يذكر ، بل إنه يجد أن أمامه خيارات عديدة بين ما يتسنى له مشاهدته أو سماعه من خلال التلفزيون أو الراديو .

المعارض : لقد أصبت الهدف عندما عرضت لموضوع الخيارات. فالواقع أن ما ينقص التعليم فى جميع المراحل هو الاخذ بمبدأ الخيارات الغزيرة التى تسمح للتلميذ أو للطالب بأن يختار من بينها ما يستهويه ، وما يحس بأنه قريب منه نفسيًا وذهنيًا ، أو أنه يجيب عن تساؤلاته أو يلبى نداءات مواهبه الدفينة فى أعماقه . ويالللأسف فإن القائمين عندنا على النظام التعليمى يأخذون بمبدأ الأحادية ، أعنى تقرير مقرر واحد على جميع تلاميذ أو طلبة الفرقة الدراسية الواحدة ، وهذه الأحادية تتجسد فى الكتاب المدرسى المقرر . ولقد كان الخليق بالمسئولين عن التربية والتعليم ، أن يسارعوا بإلغاء ذلك الكابوس الممض الذى يسمى الكتاب المدرسى المقرر . ولكن ليس هناك ما يحول دون قيام أولى الأمر بوزارة التعليم بتحديد نقاط المناهج المقررة ، ويعلنوها حتى يتسنى لمن يرغب من الكتاب والمؤلفين أن يدلى بدلوه بتأليف الكتب والمذكرات التى تدور حول تلك النقاط المنهجية ، وأن تقوم دور النشر المختلفة بنشر ما ترى نشره مما يعرضه المؤلفون عليها لنشره ، كما تقوم المكتبات المدرسية بشراء العدد المناسب من جميع تلك الكتب التى ألفت حول تلك النقاط المنهجية التى قررتها الوزارة ، وبذا يتسنى للتلميذ أو للطالب الاختيار من بين تلك الكتب العديدة التى تدور جميعًا حول نقاط المنهج المقرر ، ولكن كل كتاب أو مذكرة منها قد سيق بطريقة متمايزة . فما يقع عليه كل تلميذ أو كل طالب ، يكون قد استهواه وجذبه إليه . ومما لا شك فيه أن تنقله بين

العديد من الكتب المؤلفة حول المقرر الواحد ، يكسبه خصوبة ذهنية عظيمة ، كما أن عنصر الجدة يلعب دورًا ذا بال فى إشاعة النشاط الذهنى فى عقله وقلبه معًا .

المؤيد : إنك فى الواقع تبحث عن مبررات واهية تدافع بها عن وسائل الإعلام المرئية والمسموعة ، بينما توجه أصبع الاتهام إلى نظام التعليم ، كما توجه سهامك إلى الكتاب المدرسى المقرر ، وتنوطه بكل المسؤلية فى عزوف جموع الشعب عن الكتب الثقافية والجرائد والمجلات . ولكن الحقيقة هى أن المرء ينحاز لا شعوريًا إلى الأكثر سهولة ، بينما يعزف لا شعوريًا أيضًا عن الأصعب ، أو الأقل سهولة . فليس بخاف أن متابعة ما يبثُّه التلفزيون ، أو ما يذيعه الراديو ، ليس بحاجة إلى فترة إعداد يقضيها المرء بالمدارس والمعاهد والكليات . فالشخص الأمى بمقدوره أن يجلس أمام شاشة التلفزيون ، أو أن يستمع للراديو لعدة ساعات متواليات دون ما عائق ، ولكنه لا يستطيع أن يتناول كتابًا ليقرؤه . وحتى أكثر الناس ثقافة ، لا يستطيع أن يجلس إلى الكتاب ويستمر فى قراءته لأكثر من ساعة أو ساعتين متصلتين ، ثم يحس بالتعب الذهنى يأخذ به كل مأخذ ، فينصرف عن القراءة . ناهيك عن أوساط المثقفين ، أو الذين يتعثرون فى القراءة . إن الواحد منهم لا يطيق أن يقع بصره على كتاب ، فيعزف عن مجرد فتحه . ناهيك عن قراءة ما يضمه من معلومات أو قصص أو روايات . وليس بخاف أن وسائل الإعلام المرئية والمسموعة قد استولت على المساحة التى كان الكتاب يحتلها قديمًا . وشاهد ذلك أن هذه الوسائل قد أخذت تغزو النظام التعليمى نفسه . ألا يقوم التلفزيون والإذاعة بعرض البرامج التعليمية وتغطية المناهج المقررة بجميع المراحل الدراسية ، وبجميع أنواع التعليم المتباينة ؟

www.dvd4arab.com

وبتعبير آخر فإن تلك البرامج التعليمية قد صارت منافسًا جديدًا للكتاب المقروء . فبدلاً من أن يقوم التلميذ أو الطالب بالعكوف على الكتاب المقرر أو الكتاب الخارجي فيستوعب ما فيه من معلومات عن طريق الرموز الكتابية المرصوصة به ، فإنه يجلس أمام شاشة التلفزيون أو بجوار الراديو ، فيشاهد بعينيه أو يستمع بأذنيه شرح واستعراض المقررات الدراسية في سهولة ويسر . ناهيك عما تقدمه الشركات المتخصصة في الصوتيات والمرئيات من تسجيلات تضم في نطاقها المقررات الدراسية على أشرطة الفيديو وعلى أشرطة الكاسيت ، وبتعبير آخر فإن الصورة المرئية والكلمة المسموعة قد نشبتا أظافرهما في عنق الكلمة المطبوعة التي يجب أن تقرأ . وبتعبير آخر فإن الكلام المطبوع صار ينزوي متقهقرًا مهزومًا أمام الصورة الحية التي يعرضها التلفزيون ، وأمام الكلام المنطوق الذي يذيعه الراديو .

المعارض : حتى إذا أنا وافقتك على ما تقوله بإزاء الصورة الحية والكلام المسموع من أنهما يقومان بقهر الكلام المطبوع ، فلعلك تسمح لي بأن ألقي الضوء على ما ذكرته بإزاء مبدأ الخيارات الذي يتوافر تطبيقه فيما يعرض على شاشات التلفزيون ، وفيما تقوم محطات الإذاعة الكثيرة والمتنوعة بإذاعته ، وهو المبدأ الذي يجب أن يُتَّبع أيضًا بإزاء المادة المقروءة والمتاحة أمام التلاميذ والطلاب ، فيقبل كل تلميذ أو طالب على ما يجذب اهتمامه ويتماشى مع استعداداته ورغباته ، تمامًا كما هو متاح بإزاء التلفزيون والإذاعة . ولكي أبرهن لك على صحة ما أدعو إليه من وجوب النهج وفق مبدأ توفير الخيارات الكثيرة والمتنوعة فيما يمكن أن يقوم الناشئة بقراءته ، فإني أذكرك بما نشاهده في معرض الكتاب ، وكيف أن الشباب يقبلون على تصفح الكتب المعروضة على الأرفف ، وبخاصة تلك الكتب التي

تستهويهم وتجذب انتباههم . ولولا ارتفاع أسعارها ، لكانوا قد اشتروا الكثير جدًا مما يستهويهم منها . فارتفاع سعر الكتاب الثقافي من جهة ، وتخلف المؤلفين عن إشباع القراء بما يودون الإقبال على قراءته من جهة أخرى ، يشكلان السبب الرئيسي في تقاعس الكتاب الثقافي عن مواكبة وسائل الإعلام المرئية والمسموعة في تثقيف الناس . ولكن اسمح لي أن أعرض لنقطة أخرى خاصة بالتربية القرائية - إذا صح التعبير - فالنظام التعليمي المطبَّق حاليًا ، لا يسمح بإتاحة الوقت الكافي للتلاميذ والطلاب ليقضوه بمكتبة المدرسة . فالمناهج الدراسية كما تعلم مزدحمة للغاية بالمواد المقررة . ذلك أن كل مسئول عن وضع أحد المناهج ، يتسابق مع زملائه واضعي المناهج في الحصول على أكبر عدد ممكن من الحصص خلال كل أسبوع . وبالتالي فإن اليوم المدرسي مشحون بالحصص التي تصل إلى حوالي سبع أو ثماني حصص كل يوم . فمتى يتسنى إذن للتلميذ أو للطالب أن يلتقط أنفاسه ويُكبّ على القراءة الحرة بالمكتبة ؟ وعلى أية حال فإن المواطن الذي لم يتلق تربية مكتبية جيدة أيام أن كان منخرطًا في النظام التعليمي ، لا ينشأ على حب القراءة الحرة . وبذا فإنه ينصرف عن اقتناء مكتبة شخصية تضم الكتب الثقافية التي يحب أن يطّلع عليها .

المؤيد : لقد يكون بحجتك هذه بعض الوجاهة ، ولكنها لا تمثل السبب الرئيسي في انصراف الناس عن القراءة ، وإقبالهم على مشاهدة التلفزيون وسماع الراديو ، فيقضون أوقات فراغهم في متابعة البرامج الشائقة التي يقدمانها أناء الليل وأطراف النهار . فالواقع أن المسألة أبعد شأوا من ذلك . فهي تتعلق بالحالة المزاجية التي تلبّس الناس بها واستحالوا إليها . فإنسان عصرنا يحب الانطلاق ، والتغيير المستمر ، والتجديد الدائب في مدركاته الحسية ، وفيما تقع عليه

Looloo
www.dvd4arab.com

حواسه . ولعلى أقول لك : إن إنسان عصرنا قد تباين تباينًا جذريًا عن إنسان الأجيال السابقة . فهو إنسان الواقع الملموس ، وليس إنسان الرموز والتجريد . فأنت تعلم أن القراءة هى عملية فك الرموز المكتوبة على الورق ، وتحويل المدركات الرمزية ، إلى معان مدركة بالذهن . أما التليفزيون والراديو فإنهما يريحان المرء من هذه النزعة الرمزية وبغنيانه عن بذل الجهد العقلى المبذول فى إحالة الرموز إلى صور ذهنيه لوقائع وأحداث فعلية وقعت أو سوف تقع . فهما يوفران عليه إذن إرهاق نفسه فى إدراك الحروف المرصوصة على الورق ، ثم محاولة تحويلها من مدركات ذهنية لتلك الحروف إلى معان ترتسم فى عقله ، ثم تخزينها فى ذاكرته لا ستدعائها وقتما يحتاج إلى استدعائها ، وذلك بأن يقدم إليه التلفزيون والراديو المعانى مباشرة إلى ذهنه ، مجسّدة فى حالة التلفزيون ، ومسموعة بطريق مباشر من المتحدثين فى حالة الرديو . إذن فالقضية سيكولوجية ، وليست قضية تربوية . فما تسوقه من حجج تتعلق بالتقصير الذى ترددت فيه الجهات التعليمية ، إنما هى حجج واهية ، أو هى شماعة تختلقها أنت لكى تعلق عليها مسئولية الانصراف عن الكتاب الثقافى إلى وسائل الإعلام المرئية والمسموعة .

المعارض : أنا أرفض ما تزعمه من أسباب سيكولوجية تبرر بها الانصراف عن الكتاب الثقافى إلى متابعة التلفزيون والإذاعة ، وأصر على ما ذكرته لك من أن السبب فى انصراف الناس عن الكتب الثقافية ، إنما يرجع إلى ما ينهج النظام التعليمى وفقه ، مما يؤدى إلى عزوف الناشئة عن القراءة ، وذلك بإلزامهم بالانحباس بين دفتى الكتاب المقرر الذى يصير بمثابة شبح بغيض إلى قلوبهم . وللتدليل على ما أقوله فإنى أستشهد بما هو شائع لدى الشعوب

المتقدمة ، وهى الشعوب المتفوقة فى كل من مجالى الإعلام والتربية ، وهى التى تفتن أيضًا فى تطوير وسائل الإعلام المرئية والمسموعة . فهى ما تزال تتمتع بازدهار الكتاب الثقافى بين أبنائها . فتجد أن الشاب الأجنبى أو الشابة الأجنبية ، قد اصطحبا معهما الكتب الثقافية فى رحلاتهما بالقطار أو الطائرة ، وينهمكان فى قراءتها . ذلك أن النظام التعليمى بتلك الشعوب المتقدمة ، لا يعمل على تبغيض الكتاب إلى الناشئة ، بل يعمل على تقريبه من قلوبهم ، وذلك بالأخذ بمبدأ الإكثار من الخيارات وتخصيبها . من هنا فإنى ما أزال أنادى بضرورة إلغاء الكتاب المقرر المفروض على التلاميذ والطلاب ، وإتاحة الفرصة أمامهم للاختيار من بين العديد من الكتب التى تدور جميعًا حول المقررات الدراسية ، ولكن فى أشكال مختلفة ، وبوسائل متباينة فيما تساق فيه تلك المقررات .

المؤيد : أنا أريد أن أسألك : لماذا يعتمل فى قلبك كل هذه الغيرة والحماسة التى تبديها للكتاب الثقافى ؟ ألست متحمسًا للثقافة أيا كانت وتجعلها الهدف الأساسى الذى يجب السعى لتحقيقه فى حياة الناشئة ؟ إذا كنت متحمسًا حقًا لنشر الثقافة ، فإن عليك ألا تتمسك بوسيلة معينة بالذات يتثقف الناس عن طريقها وتغضى عن غيرها من وسائل تؤدى الغرض نفسه وتحقق الهدف المنشود . ودعنى أذكرك بالقانون الذى تنهج الحضارة وفقه . إنه قانون قهر الجديد للقديم . فالعربة التى يجرها الحصان قد قهرت عربة اليد . والسيارة قهرت العربة التى يجرها الحصان . والطائرة قهرت السيارة . وسفينة الفضاء قهرت الطائرة . ولكن ذلك القهر لم يعمل على محو ما تم قهره ، بل استلب جانبًا كبيرًا من أهميته ومكانته فحسب . وقل الشىء نفسه بإزاء قهر وسائل الإعلام المرئية والمسموعة للكتاب الثقافى . أما ما تزعمه من أن

Looloo
www.dvd4arab.com

وسائل الإعلام تعمل على انتشار الأمية الثقافية ، فإنه زعم باطل تمامًا . والعكس هو الصحيح . فواقع الأمر أن وسائل الإعلام هى أكثر نجوعًا من الكتاب فى إشاعة التثقيف . ولكن يبدو أننا نختلف بإزاء مفهوم الثقافة . ولذا فإنى أسألك عن مفهومك عن الثقافة . فما معنى الثقافة فى رأيك ؟

المعارض : الثقافة فى رأيى هى المعرفة العقلية . أما وسيلة الحصول على هذه المعرفة العقلية فهى القراءة . فمن يريد أن يتثقف فعليه أن يبدأ بتعلم القراءة وإجادتها . وحبذا لو أجاد لغة أو لغات أجنبية إلى جانب إجادته اللغة العربية . وبتعبير آخر فإن من لا يقرأ لا يستطيع أن يتثقف .

المؤيد : إن مفهومك عن الثقافة لا يغطى سوى خمس مفهومها الحقيقى فحسب . فبالإضافة إلى المفهوم المعرفى للثقافة ، وهو المفهوم الذى تنحاز إليه وتكتفى به ، فإن هناك أربعة مفاهيم أخرى للثقافة يجب إضافتها إلى المفهوم المعرفى . المفهوم الأول هو المفهوم التذوقى . فالفنان الذى يتذوق الجمال ، ويكشف النقاب عنه ، ويعبر عما يعتمل لديه من صور جمالية فى لوحة أو تمثال أو لحن أو حركة أو غير ذلك من وسائل التعبير الجمالى ، لهو شخص قد حاز ثقافة جمالية . وهناك من جهة ثانية المفهوم المهارى للثقافة ، أعنى تلك المهارات الحركية التى يكتسبها المرء ، ويؤدى بها الأنشطة الحركية المتباينة . من ذلك مثلاً قيادة السيارة أو قيادة الطائرة ، والكتابة على الآلة الكاتبة ، أو على لوحة الكومبيوتر . وهناك من جهة ثالثة المفهوم التنظيمى الاجتماعى ، كما هو الشأن بإزاء قيادة فرقة موسيقية ، أو قيادة طابور من الجنود ، أو قيادة اجتماع ما . وبتعبير آخر فإن هذا المفهوم الثقافى ينصب على اكتساب القدرة القيادية للأفراد

والجماعات . وهناك أخيرًا المفهوم التوقعى للمستقبل القريب والبعيد . فالشخص الذى يكتسب القدرة على استشراف المستقبل ، والوقوف على أكثر احتمالات الحدوث قربًا إلى ما سوف يحدث بالفعل ، إنما يكون قد اكتسب هذا النوع من الثقافة . إذن فالثقافة هى التحضُّر . ولم يخطئ علماء الأنثروبولوجيا فى الواقع عندما توسَّعوا بمفهوم الثقافة Culture فطابقوا بينها وبين الحضارة Civilization . ولقد قصدت أن أستعرض هذه المعانى الخمسة للثقافة : لكى أنبهك إلى أن فهمك للثقافة بالمعنى المعرفى فحسب ، هو الذى جعلك منجسًا فى إطار الكتاب الثقافى باعتباره الأداة الوحيدة التى يتسنى عن طريقها تثقيف الناس . فإذا انت أضفت المعانى الأربعة الأخرى التى ذكرتها لك ، والتى يتضمنها مفهوم الثقافة ، إلى هذا المعنى المعرفى الذى تقتصر على الأخذ به ، فإنك ستكتشف أن وسائل الإعلام المرئية والمسموعة تدعم صميم الثقافة وتثريها بما تقدمه من برامج متنوعة وحية ، وتحمل المتابع لها على ان يعيش الحياة الثقافية المعاصرة ويتقدم فى مضمارها . ولعلك بعد هذا تكتشف أن تحجيم الكتاب الثقافى ليس قضاء عليه ، بل مجرد وضعه فى المكان الصحيح الذى يجب ان يحتله بين الوسائل الكثيرة والمتباينة للتثقيف ، والتى لم تكن قد أخذت حقها قبل ذلك عبر الأجيال السابقة ، ولكنها صارت بفضل وسائل الإعلام المرئية والمسموعة ، موظّفة التوظيف المناسب لأهميتها فى النشاط الثقافى .

المعارض : آسف أن أنعتك بالدعوة إلى السطحية وعدم التعمق . وشاهد ذلك أنك تجرى فى إثر الأنثروبولوجيين الذين يعتبرون الثقافة والحضارة شيئًا واحدا . وأكثر من هذا فإنهم ضمّنوا الثقافة أو الحضارة ، الغث والسمين ، والضار والمفيد ، والخرافات

Looloo
www.dvd4arab.com

والحقائق ، والسحر والعلم ، والشر والخير ، والصالح والطالح . فالثقافة أو الحضارة فى نظرهم هى جماع الحياة كما تمارس بالفعل فى مجتمع ما ، فى عصر ما . وبتعبير آخر فإنهم قد انحازوا إلى النسبية ، ولم يتمسكوا بالإطلاق وديمومة الحق واستمراريته . فهم يعايرون الثقافة أو الحضارة فى ضوء ما هو مناسب فى أنظار شعب ما فى عصر ما . أما أنا وأمثالى ممن يفهمون الثقافة بالمعنى المعرفى ، فإننا نتناول الثقافة فى ضوء الحق والباطل ، أو الصواب والخطأ . فنحن فى تناولنا للثقافة ، نستبعد الباطل والخطأ ، ونتشبث بالحق والصواب . فالكتاب الثقافى الخليق بهذه التسمية ، هو الكتاب الذى لا يتضمن سوى الحق والصواب . أما الكتب التى يزعم أصحابها انها كتب ثقافية ، ولكنها تتضمن بعض الباطل وبعض الخطأ ، فإنها لا تعتبر كتبًا ثقافية من قريب أو من بعيد . فهى كالعملة الزائفة التى لها شكل العملة السليمة ، ولكنها فى حقيقة أمرها لا تساوى شرّوى نقير .

المؤيد : إنك بزعمك أن وسائل الاعلام المرئية والمسموعة تقدم للمشاهد أو المستمع المناسب ، وتستبعد غير المناسب ، فإنك على صواب فى ذلك . ولكنك بزعمك أن الكتاب الثقافى لا يتضمن سوى الحق والصواب ، فإنك مخطئ كل الخطأ . فزعم كهذا لا ينطبق على معظم الكتب الثقافية ، بما فى ذلك أعظم الكتب الثقافية أهمية وذيوعًا . فمؤلفات أفلاطون وأرسطو وجميع الفلاسفة عبْر العصور المتعاقبة ، مشحونة بالحق والباطل ، وبالصواب والخطأ . ولو كان ما يقوم أحد الفلاسفة بتأليفه خاليًا تمامًا من الباطل والخطأ ، لما كان هناك إذن داع لأن يستمر الفلاسفة فى المساهمة بالتأليف الفلسفى . فكل فيلسوف يشير إلى الأخطاء التى يعتقد أن الفلاسفة الذين سبقوه ، أو الذين

يعاصرونه قد انزلقوا إليها . فليس هناك فيلسوف - كائنًا من كان - منزّهًا عن ان توجه سهام النقد إلى فلسفته .

المعارض : ولكن أظن أنك لا تنكر أن ما يقوم الفلاسفة والعلماء بكتابته ، وما يقوم الأدباء بإبداعه من أدب ، لا يتسنى لوسائل الإعلام أن تقدم صميم ما أبدعه هؤلاء المبدعون ، سواء أكانوا فلاسفة أم علماء أم أدباء فى مجالاتهم المتباينة ، بل أقصى ما تقدمه هو الإشارة إلى ما قاموا بإبداعه ، دون سبر للأغوار ، ودون تقديم جواهر الموضوعات التى تناولوها بالبحث والاستقصاء .

المؤيد : الواقع أنى أتجه وجهة ديموقراطية ، بينما تتجه أنت وجهة أرستقراطية . فالذين يتناولون الكتب الفلسفية والعلمية والأدبية ، ويغوصون حتى آذانهم فى مضامينها ، إنما هم الطبقة الأرستقراطية ، أعنى الطبقة الممتازة أو الصفوة الذين يعتبرون بمثابة قشرة رقيقة فى قوام المجتمع . أما الغالبية العظمى من الشعب ، فإنهم الديموقراطيون الذين يكتفون بما أسميته أنت بالقشور الثقافية . وأنا فى الواقع منحاز إلى هذه الطبقة التى تمثل الغالبية العظمى من الشعب ، لأنى متمسك بديموقراطية الثقافة ، بمعنى أن الثقافة حق للجميع ، وأنها تتوزع بأنحائها الخمسة التى ذكرتها على الناس جميعًا فى ضوء الرغبة والميل والاستعداد ، وهى الثقافة التى ينحاز إليها الأنثروبولوجيون ، والتى تشارك فيها جميع طبقات الشعب ، دون ان تحرم أى طبقة من الاغتراف منها بحسب قدرتها وإمكانياتها وتذوقاتها .

المعارض : ولماذا لا نعمل على الارتقاء بالأجيال الجديدة ؛ لكى يشاركوا فى متعة القراءة إلى جانب استمتاعهم بمتابعة برامج التلفزيون والإذاعة ؟ فواقع الأمر ان للقراءة متعة خاصة تتباين عن متعة مشاهدة التلفزيون ، وعن متعة الاستماع إلى الراديو . فلو أن

Looloo
www.dvd4arab.com

الأسرة عملت على توفير القصص المطبوعة لأطفالها ، مع اصطحابهم إلى المكتبات ، حيث يختار الطفل بنفسه ما يروق له ويستهويه من الكتب المعروضة على أرففها ، فإن ذلك سوف يغرس فيه حب القراءة واقتناء الكتب الثقافية ، فينشأ على هذا السلوك الحضارى الراقى . ناهيك أيضًا عن ضرورة تشجيع الوالدين للطفل على التعبير عما يدور بخلده ، وعما يعتمل بخياله من قصص ، سواء أكان متأثرًا فيما يكتبه بما سبق أن قرأه ، أم كان مبدعًا فيما يقوم بكتابته ، أو برسمه من صور كاريكاتورية . المهم أن يكون توجيه الأسرة للطفل دون قسْر من جانبها ، بل يكون التوجيه غير مباشر ، أعنى أن يكون عن طريق توفير الإمكانات الخصبة من حوله ، ثم تركه يتأثر وينفعل بما يحيط به من مؤثرات مختارة بدقة وعناية ، فيُفْضى تأثره وانفعاله ، إلى تلك الثمار الإيجابية المتمثلة فى إقباله على القراءة بنهم ، كما يُفْضى إلى التعبير عن خلجاته بانطلاق وحرية ، وبغير تدخل أو نقد من جانب الكبار .

المؤيد : آسف أن أقول لك : إن الأجيال القديمة كانت تهتم بهذا النوع من التربية التى عرضت لها وأسهبت فى استعراضها . ولكن الأجيال الحديثة من الآباء والأمهات لم يتربوا هم أنفسهم على حب القراءة ، فنشئوا على الانصراف عن الكتب . وبالتالى فإنهم لا يؤمنون بجدوى الكتاب الثقافى ، بل يؤمنون بالثقافة التى يستمدونها مباشرة من برامج التلفزيون والإذاعة . وبتعبير آخر فإنهم صاروا يؤمنون بالثقافة الموظَّفة فى مواقف الحياة المتباينة ، ولا يؤمنون بالثقافة التى تطلب لذاتها . ناهيك عن أنهم يسعون للحصول على الثقافة التى يمكن استقبالها بغير وسائط رمزية تتمثل فى الحروف المطبوعة بالكتب والجرائد والمجلات . فهم يماشون العصر الذى

يحيون فى إطاره ، وهو عصر يهتم بالاقتصاد فى الجهد ، وتحقيق الأهداف من أقرب طريق ، وبأقل جهد ممكن .

المعارض : هل أفهم من كلامك هذا أن الكتاب الثقافى سوف يتلاشى من الوجود تمامًا ؟

المؤيد : لقد سبق أن قلت لك إن الحضارة تقهر بعضها بعضًا على التوالى ، فيقهر الجديد ما سبقه إلى الوجود والاستخدام . فكل تكنولوجيا جديدة تقهر التكنولوجيا التى سبقتها ، ولكن ذلك القهر لا يعنى القضاء على ما كان سائدًا قبلاً قضاء تامًا ، وملاشاته من الوجود ، بل إن القهر هو مجرد تحْجيم القديم ، واستلاب الجديد لمعظم المكانة والأهمية التى كان يحوزها ذلك القديم . وبالنسبة للكتاب الثقافى ، فإن التلفزيون والراديو قد هزماه هزيمة منكرة ، بل إن التلفزيون قد هزم الرداديو أيضًا . وفى القريب العاجل بعد أن ينتشر تلفزيون الجيب ، أعنى التلفزيون الترانزستور الذى سوف يتسنى لحامله أن يستقبل بواسطته ما تبثه تلفزيونات العالم جميعًا ، فإن الراديو الترانزستور سوف يُقْهر قهرًا شديدًا ، بمعنى أن الغالبية العظمى من الناس سوف لا يحملون فى جيوبهم الراديو الترانزستور ، بل سوف يحملون التلفزيون الترانزستور . ولكى أركز كلامى بإزاء الكتاب الثقافى ، وما قامت به الصورة والصوت من قهر للكلام المطبوع ، فإنى أشير إلى الكتب المتلفزة على أشرطة الفيديو ، والكتب الناطقة على أشرطة الكاسيت التى بدأت فى غزو المكتبات . فبدلاً من شراء قصة مطبوعة ، فإن المرء سوف يشترى شريط فيديو أو شريط كاسيت يتضمن كل منهما كتابًا أو قصة . وطبيعى أن انتشار هذا النوع من الأشرطة شيئًا فشيئًا ، سوف يغنى عن شراء الكتب المطبوعة إلى حد بعيد ، أو أن الكتاب الثقافى الواحد ، سوف

Looloo
www.dvd4arab.com

لا تزيد عدد النسخ المطبوعة منه عن مائة نسخة فحسب ، بينما تزداد عدد النسخ التى تطبع منه على أشرطة الفيديو أو التى تسجل على أشرطة الكاسيت إلى أضعاف ذلك . وفى المستقبل سوف يتوجه مؤلف الكتاب إلى شركة التسجيلات المرئية والسمعية ؛ لتسجيل كتابه على أشرطة فيديو ، أو على أشرطة كاسيت ، بدلاً من توجهه إلى الناشر ؛ لكى يقوم بطبع كتابه على الورق .

المعارض : إنك تغالى فى الواقع . فمن المستحيل أن تحل الصورة أو الصوت محل الكلام المطبوع . ذلك أن القارئ يسّبر أغوار ما يقوم بقراءته ، ويُمعن فى اقتفاء أثر المعانى التى قام الكاتب بتدوينها فى كتابه . ناهيك عن النظرة النقدية التى يستعين بها القارئ فى تقييم ما يقوم بقراءته ، بل إنه قد يتوقف فى أثناء قراءته ليتأمل كلمة معينة ، ويقوم بتقليبها على أوجهها ؛ لكى يقف على ما سيقت فيه من مقام ، أو ربما يكشف عنها بأحد القواميس ؛ ليعرف هل استخدمها الكاتب بطريقة صحيحة ، أم أنه أخطأ فى استخدامها . فللكلام المطبوع ميزات خاصة لا يمكن أن تتمتع بها أشرطة الفيديو أو أشرطة الكاسيت . ولعلى لا أخطئ إذا ما جزمت بأن الكتاب ، بما يشتمل عليه من كلام مطبوع ، سوف يظل راسخا ، ولا تستطيع وسائل التسجيل المرئية والسمعية أن تقهره . ولعلك لا تنسى أن رجال الإعلام أنفسهم ، وهم المسئولون عن إعداد برامج التلفزيون والإذاعة ؛ يعتمدون اعتمادا رئيسيا على الكتب والمراجع ، ولا يستغنون عنها بأى حال من الأحوال ، بل إن ما يقدمونه على شاشات التلفزيون ، ومن خلال الإذاعة ، إنما هو مجرد قبس بسيط من المدوّنات المكتوبة . وحتى فيما يتعلق بالأخبار المحلية والعالمية ، فلا غنى لرجل الإعلام عن الرجوع إلى الجرائد والمجلات ، لكى ينقل عنها بعض ما ورد

بها من تعليقات واتجاهات ومقابلات ولقاءات ومؤتمرات وتصريحات ويمونّ بها برامجه الإخبارية بالتلفزيون والإذاعة . ناهيك عن أن رؤساء الدول ما يزالون يقابلون رجال الصحافة فى المناسبات المختلفة ؛ لكى يشرحوا لهم وجهات نظرهم ، وما يؤمنون به من اتجاهات ، وما يمارسونه من سياسات . ومعنى هذا أن الكلمة المطبوعة ، سوف تظل محتفظة بمكانتها ، ولا تستطيع الصورة المتحركة ، أو الصوت المسموع قهرها ، بل سوف تتواكب معهما وتظل مؤثرة فى الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية على السواء .

المؤيد : سبق أن قلت لك : إن قهر الجديد للسابق عليه ، لا يعنى ملاشاته تماما من الوجود ، بل يعمل على تقليصه بنسب متفاوتة فحسب . فالفأس التى تعتبر أول اختراع توصل إليه الإنسان البدائى ليستخدمه فى حفر الأرض أو فى قطع الأشجار ، ما يزال يستخدم ، ولكن استخدامه قد تقلص جدًا بعد اختراع المحراث التقليدى الذى يجره الثور أو الحصان وبعد اختراع المحراث الآلى ، تقلص دور المحراث التقليدى . وقل الشىء نفسه بإزاء الكتاب الثقافى الذى تقلص بعد اختراع وذيوع التلفزيون والراديو وغيرهما من تكنولوجيات مرئية ومسموعة كالفيديو . ولكن تقلص الكتاب الثقافى هو تحجيم له فى نطاق ضيق . وأحسب أن ذلك التحجيم سوف يطغى شيئا فشيئا ، إلى أن يقتصر الكتاب المطبوع على عدد قليل جدًا بدلا من آلاف النسخ التى تطبع الآن .

المعارض : لقد سبق أن قلت لك : إن من الأسباب التى تعيق انتشار الكتاب الثقافى ، ارتفاع سعره بشكل ملحوظ . فالكثير من الشباب يرغبون فى اقتناء الكتاب الثقافى الذى يستهويهم ويجذبهم ، ولكن عائق السعر المرتفع ، يحول بينهم وبين شرائه ، ومن ثمّ فإن

Looloo
www.dvd4arab.com

الكثير من الناشرين قد صاروا يُحْجمون عن نشر الكتب الثقافية الممتازة ؛ خوفا من استمرار تخزين النسخ المطبوعة دون أن تباع .
ولقد أسهم فى ارتفاع سعر الكتاب الثقافى والكتب والمراجع عمومًا ، ارتفاع سعر الورق بشكل متضاعف نتيجة صدور القوانين فى البلاد التى تكثر فيها الغابات بمنع قطعها ، وهى التى تستثمر فى تصنيع ورق الطباعة . فترتب على ذلك الإجراء قلة المعروض فى السوق من ورق الطباعة ، وبالتالى ارتفاع سعره بشكل رهيب . ناهيك عن ارتفاع أسعار الأحبار ، وأجور العمال والنقل والتخزين ، وما إلى ذلك من عوامل تتكاتف جميعًا فتعمل على ارتفاع سعر الكتاب الثقافى والمطبوعات بعامة بشكل رهيب . وإذا أنت قارنت بين سعر الكتاب بما يتكلفه المرء من كهرباء بمتابعة برامج التلفزيون والراديو ، فإنك ستجد أن ثمن الكتاب كبير جدًا . ناهيك عن أن المرء عندما يشترى التلفزيون أو الراديو ، فإنه لا يكون بحاجة إلى شراء أكثر من تلفزيون واحد أو راديو واحد ، بينما يستهلك الكتاب الثقافى بعد قراءته مرة واحد ، ثم يركنه بمكتبته ، ونادرًا ما يعود إليه مرة أخرى بعد انتهائه من قراءته .

المؤيد : الواقع أنك تسوق حججا تتمحّك بها ،؛ لكى تبرهن على أن عدم الإقبال على شراء الكتاب الثقافى ، إنما يرجع إلى أسباب ثانوية يمكن التغلب عليها فى الواقع . وبتعبير آخر فإنك تزعم أن تلك العوامل المُعيقة إذا ما تلاشت ، فإن الناس سوف يقبلون على شراء واقتناء الكتب الثقافية .ولكن الواقع أن تلك العوامل ليست سوى عوامل مساعدة . أما العامل الحقيقى ، فهو العامل النفسى الذى ساد على العقول والقلوب . وشاهد ذلك أن من الممكن الحصول على الكتب الثقافية المستعملة بقروش زهيدة ، أو من الممكن استعارة الكتب الثقافية بالمجان من المكتبات العامة ، أو التردد على قاعات القراءة بها ، وقضاء الوقت هناك دون إنفاق مليم واحد ، ولكن قلما تجد من يترددون عليها بعد طغيان التلفزيون والراديو على أمزجة وعقول وقلوب الكبار والصغار على السواء .

المناظرة الرابعة عشرة

يجب السماح بالقتل الرحيم بعد يأس الأطباء من شفاء المريض ، بشرط موافقته شخصيًا ، وموافقة أهله على إنهاء حياته

المؤيد : أنا أضم صوتى إلى هذا الرأى . فالواقع أن الشخص المعذّب بالمرض ، والذى لا أمل فى أن يبل منه ، ويسترجع ما كان عليه من صحة وعافية ، يَدُب اليأس فى قلبه ، ويتمنى أن تنتهى حياته فى أقرب وقت ؛ حتى يتخلص من ذلك الألم المستمر والمتزايد ، وحتى يرتاح ويريح المحيطين به ، إذ إنهم يتعذبون معه لمشاهدته وهو تحت وطأة ذلك الألم الذى لا يُحتمل ، ويتمنون من كل قلوبهم أن يموت ، حتى تكون هناك نهايةٌ لما هو فيه من شقاء نفسى وجسدى . وحيث إن المريض بالمرض الميئوس منه ، لا يستطيع أن يَقدم على الانتحار خوفًا من الهلاك الأبدى ، والإلقاء به فى نار جنهم ، فإنه يتمنى أن يصدر القانون الذى يسمح للأطباء بأن يقوموا بهذه المهمة ، فيخلصوه من الآلام المبرحة التى تعذبه ليلاً ونهارًا بلا انقطاع ، فلا يكون عليهم عندئذ تثريب أو مسئولية ، إذ إنهم باقدامهم على إنهاء حياته ، يكونون مجرد منفذين للقانون الذى هو فى الواقع صوت المجتمع ، بل هو صوت ضمير الإنسانية التى لا ترضى بالعذاب

Loolob
www.dvd4arab.com

لأبنائها ، بل تريد التخفيف عنهم ، إذا ما ابتلوا بالأمراض المشحونة بالآلام والأوجاع ، التى لا أمل فى الشفاء منها ، بل يكون الحكم النافذ بصددها ، هو الموت البطىء ، مع ما يحمله ذلك الموت التدريجى ، من آلام مُمضّة ، ومن أوجاع لا تتحملها الجبال الشواهق .

المعارض : أنا أختلف معك على طول الخط بصدد ما تدعو إليه من قتل تسميه القتل الرحيم . فليس من حق الأطباء ، ولا من حق المشرّعين ، أن يسنّوا قانوناً يبيح ذلك القتل الرحيم . وأكثر من هذا فإن المريض نفسه ، مهما كان ملاقيًا العذاب المرير من جرّاء مرضه ، فلا يحق له أن يتمنى الموت لنفسه ، أو أن يسعى إليه بإرادته ، بل عليه أن يستمر فى التذرع بالأمل فى النجاة من مخالبه ، وأن يظل متمسكًا بتلابيب الحياة ، حتى آخر رمق فى عمره . ذلك أن من يطلب الموت أو يتمناه ، يكون قد نصر الفناء على البقاء ، والموت على الحياة . وأكثر من هذا فإن شعلة الحياة التى تعتمل فى قوامه ، ليست ملكًا له فيقدم على إطفائها إذا شاء ، بل هى ملك لخالقها . فبيده أيضًا ـ سبحانه وتعالى ـ أن يستردها ، وبيده أن يبقيها كيفما يشاء . فموقفى إذن واضح لا يتزعزع ، وهو أن ما أسميته بالقتل الرحيم ، إنما هو إغضاء مشين عن جميع الشرائع السماوية ، بل هو اعتبار الإنسان مجرد كائن حى يمكن ذبحه بأمر القانون ، وبسماح من المجتمع . وهذا مناف لطبيعة الإنسان المنزّهة عن طبيعة الكائنات الحية الأخرى ، التى منح الإنسان الحق فى أن يذبحها وينهى حياتها . ولكن هذه السلطة لم تخوّل للإنسان لكى يجهز على أخيه الإنسان ، فلا يجوز له أن يقتله حتى بدافع الشفقة عليه ، لمجرد أنه يتألم من مرض أصابه . وحتى إذا تمنى المريض الموت ، فليتسمه عند طبيب يُقْدم على مثل تلك الفعلة الشنعاء ، فينهى بذلك حياته بدلا من أن

يحاول أن يخفف من وطأة المرض عليه ، فإنه يكون بذلك قد اقترف جُرْمًا خطيرًا . ذلك أن الطب لم يجعل أصلاً لكى يمارس الطبيب القتل ، بل جعل لكى يقوم بمداواة الجراح ، وتسكين الآلام ، ومعالجة المرضى مما أصيبوا به من أمراض . أما مهمة القتل فإنها منوطة بالجلاد الذى يجهز على المجرمين تنفيذا لحكم المحكمة عليهم بالإعدام .

المؤيد : من قال لك : إن مهمة الطبيب هى العلاج من الأمراض فحسب ، ولا تتجاوز هذا النطاق إلى القتل ؟ ألا تعلم أن المرأة الحامل المقبلة على الولادة ، إذا ما اكتشف الطبيب أنها إذا لم تتخلص من الجنين مكتمل النمو فى بطنها ، والذى يتوقع له أن يولد حيًا ، ولكنها تلاقى الموت بالتأكيد ، فإنه لا يتوانى عندئذ عن قتل ذلك الجنين المستعد للخروج إلى الدنيا وليدًا سليمًا سويًا ، بشرط موافقة أمه على قتله . ولكن فى سبيل إنقاذ حياة الأم التى تعتبر حياتها أهم من حياة ذلك الجنين الذى لم ير النور بعد ، فإن شرْعة الطب تحتم على الطبيب فى هذه الحالة أن يتخلص من الجنين ، حتى يُبقى على حياة الأم . فهل تعتقد بعد ما ذكرته لك ، أن مثل ذلك الطبيب الذى يضطلع بالموت الرحيم قد أخطأ ، وأن الواجب عليه أن يقوم بتكتيف يديه ، وأن يترك الأمور تسير اعتباطًا ، فتموت الأم أمام عينيه ، دون أن يحاول تخليصها من الهلاك بأن يهلك ذلك الجنين فلا يرى نور الحياة ؟

المعارض : إن هذه المسألة تختلف عن القضية التى نناقشها الآن . فبالنسبة للمرأة التى تلد ، وتتعرض حياتها للخطر ، فيُقدم الطبيب على تخليصها من ذلك الجنين ، حتى تنجو من الموت ؛ فإن الخيار هنا منحصر بين حياة الأم وحياة الجنين . فإما أن الأم تموت وإما أن الجنين يموت . وبتعبير آخر فإما أن تظل الأم على قيد الحياة ، وإما أن يظل الجنين على قيد الحياة . فالاختيار إذن منحصر

Looloo
www.dvd4arab.com

بين أمرين كلاهما مُر ، ولكن أحدهما أكثر مرارة من الآخر ، فلا يكون من مناص إذن أمام الطبيب سوى أن يقع اختياره على أحلى المرّين أو على الأقل مرارة ، وهو التضحية بالجنين ، حتى تظل الأم على قيد الحياة . فأنت قد قدمت إلينا حجة لا ترتبط بالقضية التى نناقشها ، وهى مدى جواز التخلص من الحياة ، دون الإبقاء على حياة شخص آخر يفضّله . فالمريض الذى يطلب من الطبيب تخليصه من الحياة لشدة آلامه ، إنما يكون شأنه شأن المنتحر سواء بسواء . والفرق بينه وبين المنتحر هو فى الأداة أو اليد التى تقدم على إنهاء حياته . فبينما يعتمد المنتحر على نفسه فى إنهاء حياته الشخصية ، فإنه فى الحالة التى نحن بصددها يوكل انتحاره إلى غيره . فلا فرق إذن بين الحالتين على الإطلاق . ذلك أن نية إنهاء الحياة ، هى هى فى الحالتين ، مع اختلاف الوسيلة التى يتم بها إنهاء الحياة .

المؤيد : إن الطب لا ينظر إلى الممارسات العلاجية ، أو الطبية عمومًا ، بنظرة إطلاقية ، بل ينظر إليها بنظرة نسبية . فهو لا يقيس الأمور فى ضوء الخير والشر ، بل يقيسها فى ضوء النفع والضرر . وبتعبير آخر فإن الطب ينحو منحى واقعيًا بحتًا . فهو لصيق الصلة بالواقع ، أعنى أنه يستهدف التخفيف من الآلام ، أو القضاء عليها باعتبار أن الآلام تقضى على سعادة المرء . فإذا ما عجز عن التخفيف منها ، أو عن القضاء عليها ، فإنه يتخذ الطريق المفضى إلى ذلك ، حتى ولو كان ذلك الطريق هو القضاء على حياة المريض نفسه . وهو فى هذه الحالة يتناول المريض باعتباره كائنًا حيًا ، أو حسب تعبير الأطباء باعتباره حالة Case . والحالة تتصف بالموضوعية ، ولا ترتبط بالذاتية بأى حال من الأحوال . فليس ثمّة مجال لاعتمال العاطفة فى العمل الطبى . فالموضوعية هى الصفة السائدة فى موقف

الطبيب من مريضه ، وهو يقوم بتقييم الخيارات المتاحة أمامه ، ثم يختار أكثرها نفعًا وأقلها ضررًا . وبالنسبة لحالات الموت الرحيم ، فإن الطبيب يقع بالفعل على الخيار الوحيد المفضى إلى تخليص المريض من آلامه ، وهو يساند هذا الاتجاه الموضوعى بالتفويض الذى يحصل عليه من المريض نفسه ، وبتفويض من أهله ، والسماح له بأن يُنهى حياته ، وذلك حتى لا يقع تحت طائلة القانون ، ويتهم بأنه قد ارتكب جريمة قتل ضد أحد مرضاه .

المعارض : إنك بهذه النظرة إلى الطبيب وإلى موقفه من المرضى باعتبارهم مجرد حالات ، لا تكون قد ميزت بين الطبيب والجزار . فالجزار يتناول البهائم باعتبارها مواد غذائية ، سوف تباع للزبائن فى محل الجزارة ، ولا يُعير اهتمامًا لما تعانيه تلك البهائم من الألم وهى تقيد وتُنحر بالسكين . وأنت بالمثل ، قد أحلّت المريض إلى مجرد حالة يتناولها الطبيب وهو خال من العواطف والقيم والمُثل الإنسانية . فلقد أحللت الموضوعية محل الذاتية ، والأداء محل العاطفة . وهكذا تكون قد حكمت على مهنة الطب بالقسوة والوحشية .

المؤيد : إنك فى الواقع توجه إلىّ سهام النقد ، وتتهمنى باتهامات أنا برىء منها تمامًا . فأنا عندما قلت لك : إن الطبيب يتناول المرضى باعتبارهم حالات ، فإنى لا أنفى عنه تمسكه بالمثل العليا الإنسانية ، أو أنى قد أحلت الطبيب إلى مجرد جزار . فالطبيب يحمل العواطف النبيلة لمرضاه . وبضمّن تلك العواطف النبيلة عاطفة الشفقة على المريض ، والرغبة فى تخليصه مما يعانيه من آلام مُبرحة . فهو إما أن يتمكن من علاجه ، وبالتالى فإنه يخلصه من تلك الآلام التى تصاحب المرض الذى اصابه ، وإما أن يُنهى حياته حتى يصل إلى تحقيق الهدف نفسه ، وهو تخليصه من الآلام التى يعانى منها بعد

Looloo
www.dvd4arab.com

انسداد جميع الطرق أمام المحاولات الطبية التى بذلها . فهل ما تزال تتهمنى بعد ما قلته بالوحشية فى تقييم وظيفة الطبيب واعتبارها وظيفة تستند إلى العلم الموضوعى فحسب ، برغم أنه يلبى رغبة المريض فى إنهاء حياته بعد أن فشلت جميع المحاولات الطبية فى علاجه ، فوقف عاجزًا أمام المرض الذى لم تعثر التقنيات الطبية بعدُ على علاج منه ؟

المعارض : أنا لم أتهمك ، بل أتهم الطبيب الذى يتناول مرضاه باعتبارهم كائنات حية .فلا يختلف موقفه من المريض الميئوس من علاجه ، عن موقف صاحب الكلب الذى أصيب كلبه بالسرطان فصار يعانى من شدة الآلام ، فتوجه إلى جمعية الرفق بالحيوان ، وطلب من المسئولين هناك إعطاء كلبه حقنة سامة لإنهاء حياته . فليس هناك أى فرق بين الحالتين : حالة أقرباء المريض الميئوس من علاجه ، وحالة صاحب ذلك الكلب الميئوس من علاجه أيضا .

المؤيد : لا فرق بالفعل بين الحالتين . ومن وجهة نظرى ، فإن صاحب الكلب الذى يعمل على إنهاء حياة كلبه ؛ لأنه أصيب بمرض لا شفاء منه ، لايختلف موقفه عن موقف أهل المريض الذين يحاولون تخليص مريضهم من مرضه الميئوس منه بواسطة القتل الرحيم إذاكان ثمّة قانون يسمح بممارسة ذلك النوع من القتل . ففى الحالتين فإن صاحب الكلب وأقارب المريض يسعيان إلى تخليصه ، أعنى الكلب فى الحالة الأولى ، والمريض فى الحالة الثانية مما يعانيان منه من آلام مُبْرحة . وبالمناسبة ، فإنى أود أن أنبهك إلى وجود ذلك القطاع الجسمى المشترك بين الكلب والإنسان . فبغير انخراط فى الغرور البشرى ، والترفع عن مستوى الكائنات الحية الأخرى ، فلا مناص من الاعتراف بأن ما يعانى منه الكلب من آلام جسمية ،

لا يختلف عما يعانى منه ذلك المريض من آلام . فالقطاع الجسمى مشترك إلى حد بعيد بيننا وبين كثير من الكائنات الحية الأخرى ، مع الاعتراف فى الوقت نفسه بأن الآدميين يتربعون على قمة الكائنات الحية جميعًا .

المعارض : وبناء على ما ذكرته ، فإنك لم تتورع عن السماح للطبيب بان يقضى على حياة إنسان قضاء تامًا ، كما يفعل صاحب الكلب بكلبه . أنا آسف لأنى أتحاور مع شخص لا يميز بين بنى آدم وبين الكلاب ، ويطابق بين ما يجب أن يتخذ من إجراءات بإزاء الكلاب ، مع ما يجب أن يتخذ من إجراءات بإزاء المرضى الآدميين .

المؤيد : لماذا الأسف . إن الفرق بين موقفى وموقفك ، هو أنك تحلّق إلى آفاق بعيدة عن أرض الواقع ، بينما أسير أنا على الأرض ، ولا أحلق بعيدًا عنها . فالواقع أن القطاع المشترك بيننا وبين الفقريات هو قطاع كبير ، وأن الكثير من الأمراض مشتركة بيننا وبينها . فالميكروبات يمكن أن تنتقل من إنسان مريض إلى كلبه ، كما يمكن أن تنتقل من كلبه إليه . فالطريق إذن مفتوح بيننا وبين تلك الكائنات الحية ، ولا نختلف عنها فيما يتعلق بقوامنا البيولوجى ، إلا من حيث درجة التعقيد أو التطور . وعلى أية حال فإنى لا أطيل أكثر من هذا بإزاء مناقشة هذا الخلاف القائم بينى وبينك ، وأفضّل أن نحصر مناقشتنا فى نطاق المناظرة التى نحن بصددها الآن ، ولا نتعداها إلى آفاق بعيدة عنها . فلتسمح لى بأن أتناول نقطة أخرى فى صميم الموضوع ، وهى حتمية الموت بالنسبة للمريض الميئوس من شفائه . فلقد وقف الطب على مراحل تطور غالبية الأمراض . فبالنسبة لمرض السرطان مثلاً ، فإن الطبيب يعرف المراحل التى يمر بها ، بل إنه يستطيع أن يحدد الفترة الزمنية التى سوف يقضيها المريض

Looloo
www.dvd4arab.com

بالسرطان على قيد الحياة . ثم يموت إذا لم يتدخل هو بإنهاء حياته بواسطة القتل الرحيم ، بفرض أن هذا الإجراء سوف يصير جائزًا شرعًا وقانونًا ، وبفرض أن المريض وذويه يوافقون عليه .

المعارض : بالنسبة لحتمية الموت فى حالة الإصابة بأحد الأمراض المنوس منها ، فإن تلك الحتمية مرفوضة ولا تقوم على أساس متين ، فالموت فى تلك الحالات ينخرط فى نطاق الاحتمالات وليس فى نطاق الحتميات . فأنت تعلم أن الكثير من حالات المرض الميئوس من الشفاء منه قد شفى منها المريض ، حتى بعد أن قرر الأطباء أن لا أمل فى شفائه على الإطلاق ، فتأخذهم الحيرة فى الكشف عن العوامل التى تدخلت فشفى واستعاد صحته تمامًا ، ومن ثمّ فإنهم يضربون كفًا بكف ، ويفسرون ما حدث بأنه معجزة من السماء . وهم بذلك يُخفُون جهلهم وعدم الإلمام بجميع مراحل تطور المرض أو أن بعض مراحله قد فاتتهم معرفتها ، أو أن العامل النفسى الذى اعتمل فى قوام المريض كان له تأثير عجيب فى محاربة المرض ، والتخلص من العوامل المؤثرة فيه . ثم ما رأيك فى المكتشفات الطبية المستقبلية المتتابعة التى قد يكون أحدها اكتشاف خاص بذلك المرض الوبيل الذى أصيب به ذلك المريض الذى قتل قتلاً رحيمًا بالفعل ، ومن ثمّ فقد حرم من الإفادة منه بالعلاج من مرضه . فبعد أن يتم القتل الرحيم الذى تتحيز أنت إليه ، فإن العلاج يصير ميسورًا بمجرد أخذ حقنة أو ابتلاع برشامة صغيرة . وهذا ما حدث بإزاء معظم الأمراض الوبائية . لقد كان المريض الذى يصاب بالتيفود يعتبر فى عداد المائتين . ولو أن إجراء القتل الرحيم كان متبعًا وقت انتشاره ، لما بقى شخص واحد على قيد الحياة ممن أصيبوا بميكروب ذلك المرض . والخليق بالذكر أن انتشار مرض ما من الأمراض الفتاكة ، هو الذى يحفز العلماء

على مداومة التفكير والتجريب للتوصل إلى العلاج الناجع منه . ولكن افترض أننا قتلنا جميع المرضى بالسرطان أو بالإيدز مثلاً بواسطة القتل الرحيم ، فهل تكون ثمة حاجة عندئذ للبحث عن علاج يشفى المرضى المصابين به ؟ وأين نعثر على أولئك المرضى إذن وقد قتلناهم جميعًا قبل اكتشاف الدواء الناجع ؟ الواقع أن وجود المشكلة واحتدامها ، يشكلان الدافع للبحث عن حل لها . ولكن إذا أنت أخفيت المشكلة ، أو قضيت عليها عَنْوة ، فإن الحضارة تتوقف ، ولا تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام . فدعوتك إلى القتل الرحيم ، هى فى الوقت نفسه دعوة إلى توقف الحضارة عن الاستمرار فى مسيرتها التقدمية ، والنكوص بالبشرية إلى عصور الهمجية والجهل .

المؤيد : إنك تبالغ فى الواقع بقولك : إن مزاولة القتل الرحيم يحول بين العلماء وبين الاستمرار فى بحوثهم للكشف عن العقار الذى يوفر الوقاية والعلاج من المرض الوبيل . فواقع الأمر أن القتل الرحيم سوف لا ينفذ إلا بإزاء الحالات المتأخرة جدًا . أما المرضى الذين أصيبوا بالمرض فى أول مراحله ، فإن ذلك القتل الرحيم سوف لا ينفذ بإزائهم .

المعارض : وهذه أيضًا حجة واهية ، إذ أن الحكم بأن المرض فى بدايته أم فى مرحلة وسيطة أم فى ذروته ، هو حكم تقديرى شخصى ، وليس حكمًا قاطعًا ودقيقًا . ثم من هو الذى سوف يحكم بأن مريضًا ما قد أصيب بالمرض ووصل إلى ذروته ؟ هل المريض نفسه أم ذووه أم الطبيب المعالج ؟ ثم إن الكثير من الناس المتبرمين بالحياة قد يتحايلون على الأطباء لكى يتخلصوا من حياتهم ، فيكون الطب فى هذه الحالة وسيلة ميسورة للتخلص من هموم الحياة . ولقد يتآمر بعض الأقرباء مع بعض الأطباء لقتل مريضهم قتلاً رحيمًا ، لا بقصد تخليصه من الآلام التى يعانى منها بسبب المرض ، بل للتخلص منه لأسباب مختلفة لعل من أهمها ما سوف يرثونه من أموال ، بعد أن

Looloo
www.dvd4arab.com

يتخلصوا منه على يد الطبيب الرحيم ، الذى ربما يتقاضى مبلغاً كبيراً حتى ينفذ ذلك القتل الرحيم . أضف إلى هذا احتمال استغلال جسد الشخص الذى يقتل قتلاً رحيماً ، وذلك بأن تستفيد الجهات الطبية من أعضائه السليمة ، مثل العينين والقلب والكبد والمعدة والطحال ونحو ذلك ، فيكون السماح بالقتل الرحيم فرصة مواتية جدًا لتجار الأعضاء البشرية . ناهيك عن عمليات التزوير التى يمكن أن تلفق للمريض وذويه ، فيقاد شخص ما غير مريض إلى مذبحة تجار الأعضاء ، حيث يذبح كالماشية ، لا لأكل لحمه ومص عظامه ، بل لنقل بعض أعضائه السليمة إلى من يكونون بحاجة إليها ، فيكون القتل الرحيم مدعاة لتجارة ذبائح بشرية تدر أرباحًا على المتاجرين بها أكثر بكثير مما تدره تجارة المخدرات .

المؤيد : إنك ذهبت شططًا إلى آفاق بعيدة وغير معقولة . فبفرض أن تجارة الأعضاء البشرية موجودة بالفعل ـ ولو أنى أستبعد ذلك بالنسبة لمصر والبلاد العربية ـ علمًا بأن ما يحدث بالنسبة لتجارة الأعضاء البشرية ، مرتبط فى الواقع بتجارة الرقيق ، إذ يقوم تجار هذا النوع من التجارة الخسيسة بشراء الأطفال من الهند ومن غيرها من أقطار الشرق الأقصى ، ثم ينقلونهم إلى أوربا وأمريكا حيث يذبحون ، أو حيث تنقل بعض أعضائهم وهم أحياء كالعينين وإحدى الكليتين إلى الثلاجات للإفادة منها وقت الحاجة . ولكن بالنسبة لبلادنا ، فإن هذه التجارة الخسيسة لم تمارس ونرجو ألا يأتى اليوم الذى تمارس فيه ، وذلك لأن ثمة رقابه شديدة مفروضة على المستشفيات وعلى مركز البحوث ، كما أن الضمير الشرقى الحى ، لا يسمح بمثل هذه التجارة البشعة . ناهيك عن أن أصحاب المليارات والملايين من المصريين والعرب الذين يكونون بحاجة إلى تركيب أعضاء بديلة فى أجسادهم ، يجدون الطريق مفتوحًا أمامهم إلى أمريكا وأوربا ، حيث يتوافر تجار الأعضاء هناك من الأطباء المتخصصين

الذين يقومون بتركيب بدائل للأعضاء الفاسدة ، وذلك نظير ما يحصلون عليه من أموال طائلة ، ومن ثمّ فلا تكون ثمة حاجة إلى اللجوء إلى المستشفيات المصرية التى لا تمارس بالفعل تلك العمليات الجراحية .

المعارض : فلنترك إذن هذه النقطة المتعلقة بالخوف من أن يؤدى القتل الرحيم إلى تجارة الأعضاء البشرية ، ولننتقل إلى نقطة أخرى ، أو إلى اعتراض آخر مهم أوجهه ضد مزاعمك ، وأرجو أن تناقشه معى ، ألا وهو الكيفية التى يمكن أن يتم بها ذلك القتل الرحيم المزعوم . فهل يقوم الطبيب الذى يمارس هذا القتل الرحيم بخنق المريض ، أم بإعطائه مخدر مكثف فلا يفيق منه بل يموت ، أم بإعطائه حقنة مسمومة ؟ فإن استعان الطبيب بوسيلة او بأخرى من الوسائل العديدة التى يتنسى بواسطتها تنفيذ الموت الرحيم ، أفلا يكون مثل ذلك الطبيب قد خان مهنته التى جعلت أصلاً لعلاج المرضى وليس لقتلهم ؟

المؤيد : الحقيقة أنا لم أتوقع أن تثير تلك التساؤلات ، وذلك لأنى اقتصرت على التركيز على زاوية واحدة فى هذا الموضع ، هى زاوية تخليص المريض المينوس من شفائه من تلك الآلام المُبْرحة التى تتكالب عليه وينوء بها كاهله ، أما عن الوسيلة التى يمكن أن يستعين بها الطبيب لتنفيذ القتل الرحيم ، فربما تكون إحدى الوسائل التى ذكرتها . المهم هو تحقيق النتيجة التى يستهدف الطبيب تحقيقها ، وهى تخليص المريض من الآلام المبرحة التى تأخذ به كل مأخذ .

المعارض : إذا كان الألم هو العامل الخطير فى الموقف ، فهناك العقاقير المسكّنة التى يمكن استخدامها مع المريض المينوس من علاجه . ولكن ألست معى فى أن هناك امراضًا غير مينوس من علاجها تكون مصحوبة بالآلام الشديدة ؟ ثم ما رأيك فى الأمراض

Looloo
www.dvd4arab.com

العقلية والنفسية المينوس من شفائها ؟ فهل سوف يسرى قانون القتل الرحيم على المصابين بها ؟ فمثلاً المريض بانفصام الشخصية ، أو الطفل المنجول Mongol ، والطفل المتخلف عقليًا ، أو الطفل صاحب الخلقة الشائهة ، هل يحكم عليهم جميعًا بالموت الرحيم ، طالما أنه لا أمل فى علاجهم من الحالة التى ينخرطون فى إطارها وتيسطر عليهم ؟ فإذا وافق الأب ووافقت الأم على ضرورة التخلص من ابنها أو ابنتهما المصابين بالمرض العقلى ، أو بأى مرض من تلك الأمراض التى ذكرناها ، أو بأى من الأمراض التى لم نذكرها ، على اتخاذ إجراء القتل الرحيم بإزائهما ، فهل ينفذ ذلك الحكم فيهما ؟ وهل سيكون الطبيب الذى ينفذ القتل الرحيم هو الجهة المنوطة ببلورة القضية وإصدار الحكم وتنفيذه ، أى أن الطبيب يتحول فى هذه الحالة ، إلى وكيل نيابة وقاض وعشماوى فى آن واحد ؟ وهل سوف يُكتفى بالطبيب فى إصدار الحكم على الشخص المريض بالموت دون تدخل من جانب رجال القانون فى هذا الصدد ؟ ألا تعتقد أن الحكم لابد أن يصدر فى هذه الحالة من فم قاض بالمحكمة بعد رفع قضية من أهل المريض وبشهادة الطبيب المعالج حتى يجوز قتل ذلك المريض ؟ وهل سوف يوكل القتل الرحيم إلى الطبيب المعالج الذى سوف يقر أمام المحكمة بأن لا أمل فى شفاء مريضه ؟

المؤيد : إنك فى الواقع قد عقّدت المسألة أكثر من اللازم . فكما أنه يجوز للطبيب أن يقوم بقتل الجنين السليم الذى يكون على وشك الميلاد ، حتى يتسنى الحفاظ على أمه من الموت فى أثناء ولادته ، يجوز له أيضًا أن يقوم بعملية القتل الرحيم دون أن يلجأ إلى المحكمة ، وبغير استناد إلى أمر يصدر إليه من القاضى . فذلك المريض المينوس من شفائه يكون فى الواقع فى عداد الموتى ، برغم أنه لم يلفظ نفسه الأخير بعد .

المعارض : إنك تلقى الكلام على عواهنه ، ولا تدقق فيما تجيب به عن تساؤلاتى . فهل من المعقول ان يناط بالطبيب قتل أحد مرضاه ، فتكون له سلطة القضاء على أرواح الناس بدلاً من الاقتصار على علاجهم ؟ أعتقد أن المنطق والقانون لا يبيحان هذا الأمر ولا يسمحان للطبيب بأن يكون معالجا وقاتلاً فى الوقت نفسه . الواقع أن هذا إذا حدث ، فإن مهنة الطب سوف تهبط إلى الحضيض ، بل إن نقابة الأطباء ، سوف لا تسكت على هذه الوصمة التى يراد وصم مهنة الطب بها . وماذا عما يمارسه الطب بالأقطار التى نستهدى بها ونضرب فى إثرها ؟ هل يباح القتل الرحيم هناك فيقوم به الطبيب المعالج ؟ طبعًا لا ، بل إن الطبيب بتلك الأقطار المتقدمة ، الذى يشتبه فى أنه قد أهمل فى علاج مرضاه ، يعاقب بأشد العقوبات ، ويحرم من ممارسة الطب طوال حياته . فما بالك بقيامه بقتل أحد مرضاه . إن الطب لا يعرف إلى اليأس سبيلاً ، فعلى الطبيب أن يظل يحاول بغير يأس معالجة مريضه مهما تدهورت حالته ، ومهما دب اليأس فى قلبه . فيأس المريض من الشفاء ، ويأس ذويه من شفائه ، لا يستتبع يأس الطبيب ، وإقدامه على إعدامه بحجة أنه يمارس القتل الرحيم بإزائه . فثمّة نقيضان لا يلتقيان : العلاج والقتل . فإما ان يكون المرء طبيبًا يعالج مرضاه ، وإما أن يكون جلادًا يقوم بقتلهم لتنفيذ أمر المحكمة بإعدامهم ، ولا يوجد موقف وسط بين هذين النقيضين على الإطلاق . ومن الطبيعى أن المحكمة لا تصدر أمرًا بالإعدام إلا على المجرمين ، ولا تصدر مثل هذا الأمر على شخص ما ، لأنه مريض بمرض ينس الطب من علاجه .

المؤيد : إنك فى الواقع بموقفك هذا تشبه النعامة التى تدفن رأسها فى الرمال . فأنت لا تريد أن تتصدى للواقع المؤلم ، ولا ترغب فى أن تتطلع إلى ما يجب أن يتخذ من إجراءات بإزائه .

Looloo
www.dvd4arab.com

فأنت تجانب المنطق بل وتناقضه ، لأن من غير المعقول ، أن يقف الطب عاجزًا عن معالجة المريض ، وفى الوقت نفسه يتركه يتألم ويتمرغ على سريره من شدة الألم ، وقد أخذ يستنجد بأهله وذوية لكى يخلصوه بأى وسيلة ممكنة من تلك الأوجاع التى تأخذ به كل مأخذ ، ولكنهم يقفون أمامه عاجزين .

المعارض : كما قلت لك قبلاً ، فإن احتدام الأزمات والمواقف الصعبة ، هو الذى يحث العلماء والباحثين فى مجالات العلاج ، على ضرورة البحث عن الوسائل الكفيلة بالقضاء على تلك الأمراض المستعصية . فالواقع أن ثمة فرقًا بين المستحيل وبين الصعب أو الصعب جدًا . فالمرض الميئوس من علاجه اليوم ، لا يقع فى نطاق المستحيل ، بل يقع فى نطاق الصعب جدًا . ولكن ما يشكل صعوبة كأداء ، قد يستحيل إلى ممكن فى الغد القريب أو فى الغد البعيد .

وكما قلت لك قبلاً ، فإن الكثير جدًا من الأمراض التى كانت مستعصية فى وقت ما ، قد تم التغلب عليها وقهرت بالفعل ، ولم تعد من الأمراض الميئوس من علاجها . من ذلك مثلاً الجدرى والملاريا والطاعون وغيرها من أمراض كثيرة . والشأن نفسه ينسحب بإزاء الأمراض التى يقف الطب عاجزًا عن علاجها اليوم . فهو سوف يقهرها فى المستقبل القريب ، أو المستقبل البعيد ، بفضل إعمال أذهان العلماء فيها ، وإجراء التجارب المتباينة بإزائها للانتصار عليها وقهرها . فلسوف يقهر السرطان والإيدز وغيرهما من أمراض يقف الطب مكتوف اليدين حيالها .

المؤيد : إنك تعلم بالطبع أن مرض الإيدز الذى استشهدت به ، والذى تقول : إن العلماء سوف ينتصرون عليه ويقهرونه بمحاولاتهم وتجاربهم ، هو مرض حديث الظهور ، سواء أكان ظهوره وانتشاره

نتيجة انتقاله من القردة بإفريقيا إلى الناس ، أم كان فيروسه قد خلق فى أثناء إجراء العلماء لبعض التجارب المعملية ، ففلت من قبضتهم ، وأخذ فى الانتشار بين الناس ... أقول : إنك تعلم أن ما حدث بالنسبة لمرض الإيدز ، يحتمل أن يحدث مرات كثيرة فى أثناء قيام العلماء بالتجارب على الفيروسات والميكروبات . ومعنى هذا أن الأمراض الفتاكة ، سوف لا تقتصر على الأمراض الموجودة حاليًا ، والتى وقفنا عليها وعرفناها جيدًا ، والتى يتوقع ان يتغلب عليها العلماء ويقهروها ، بل يتوقع أن تمتد إلى آفاق لا نهائية من حيث الكثرة والجدة والخطورة . ومعنى هذا ان ثمة أمراضًا سوف تظل فى منأى عن قدرة العلماء على التغلب عليها ، وستظل هناك أمراض كثيرة ميئوس من الشفاء منها إذا ما أصابت المرء . وعلى هذا فإن حجتك بأن العلماء سوف يتغلبون على الأمراض ويقهرونها ، إنما هى حجة واهية ، بل وأكثر من هذا فإن الأمراض الفتاكة سوف تتضاعف مع مرور الزمن بحيث تأخذ فى حصد ملايين البشر أمامهما ، ولا تجدى جهود العلماء فى مقاومتها والتغلب عليها .

المعارض : وحتى بافتراض أن ما تقوله صحيح ، ولو أنه فى علم الغيب ، فإن قدرة العلماء سوف تتضاعف أيضًا بفضل التكنولوجيات المتقدمة ، التى سوف تخضع لمشيئتهم مع تقدم الزمان . فالعلماء اليوم مجهزون بأحدث وسائل التجريب ، كما أن الحكومات تغدق عليهم أموالاً باهظة ، وتوفر لهم جميع الوسائل التى يتسنى بواسطتها التوصل إلى أنجع الوسائل التى تكفل الكشف عن أسرار الأمراض المتباينة ، بل إن دول العالم اليوم صارت متكاتفة ، فتوافر التعاون فيما بينها لمقاومة الأمراض الفتاكة . فالعلم واقف لها بالمرصاد . فكلما تضاعفت الأمراض كما تقول ، فإن قدرة العلماء المتخصصين تتضاعف أيضًا . ومعنى هذا أن ما يحدث الآن ، وما

Looloo
www.dvd4arab.com

نشاهده من تغلب العلماء على الأمراض الفتاكة ، سوف يظل قائمًا ومستمرًا فى المستقبل أيضًا ، بل إن العلماء سوف يتفوقون على جميع الأمراض الفتاكة ويحولون دون انتشارها ، بفضل هندسة الوراثة ، وما سوف يستجد من مكتشفات علمية عظيمة فى المستقبل .

المؤيد : اسمح لى أن أنتقل إلى نقطة جديدة ، حتى لا نبتعد عن موضوع المناظرة ، وهو المطالبة بإجازة القتل الرحيم شرعًا وقانونًا ، بالنسبة للمرضى الميئوس من علاجهم ، والعمل على راحتهم بالموت الذى يضع حدًا لما يلاقونه من عذاب . فأنا أعتقد أن النظرة الموضوعية إلى هذه المسالة ، هى النظرة التى ينبغى ان توضع فى الاعتبار ، وليس الحالات الجزئية ، بمعنى ان من الواجب أن ننظر نظرة اقتصادية إلى هذه المسألة . فجميعنا نعلم أن المشكلة الكبرى التى تواجه البشرية اليوم ، هى مشكلة التفجُّر السكانى . ومعنى هذا فى الواقع أنه كلما تضخم عدد السكان ، فإن قيمة الفرد تقل . فكما أن العرض والطلب هما القانونان اللذان يحكمان مستوى الأسعار ، بالنسبة للسلع المتباينة ، كذا فإن كثرة البشر ، تعمل على الخفض من قيمة الفرد . وطالما أن العَرْض بالنسبة للثروة البشرية أكثر بكثير من الطلب ، ومن حاجات المجتمع ، الأمر الذى يعمل على انتشار البطالة والبطالة المقنعة بشكل رهيب ، فإن التخلص من الأشخاص الذين وقعوا صرعى المرض ، أو العجز عن ممارسة الحياة بشكل طبيعى يكون هو الخليق بالاتباع . فقتل المرضى الميئوس من علاجهم قتلاً رحيمًا ، يريحهم من جهة ، ويريح المجتمع ، ويخلصه منهم من جهة أخرى . فبهذه النظرة الاقتصادية إلى الناس ، نكون قد سايرنا إيقاع ومطالب العصر ، وتجاوبنا مع مقتضياته . وبتعبير أصرح ، فإننا اليوم فى حاجة ملحة إلى العمل على التخفيف مما ينوء تحته المجتمع

من مشكلات ، وذلك بالتخلص من الأشخاص الزائدين عن حاجته . فبدلاً من إنفاق المبالغ الطائلة على المرضى الميئوس من علاجهم ، فإننا نتخلص منهم ، علمًا بأن خسارتنا بفقدهم زهيدة للغاية ؛ لأنهم لا يساوون شروى نقير إذ إنهم آحاد من البشر بين البلايين الموجودين حولهم ، والذين يرغبون فى احتلال أماكنهم . ولعلنا نشبه هذا الموقف بقطار مزدحم بالركاب ، لدرجة أن الواحد منهم لا يكاد يحصل على ما يكفيه من الهواء اللازم لتنفسه . فكلما نزل بعض الركاب من ذلك القطار ، فإن باقى الركاب الذين ما يزالون موجودين به ، يتنفسون الصُعَداء ، ويحسون بالراحة ، لأنهم صاروا يجدون متسعًا لوقوفهم أو لجلوسهم ، بعد نزول الفائض منهم بالمحطات ، فتخلصوا بذلك من تزاحمهم والضغط عليهم .

المعارض : إنك فى الواقع بهذه النظرة الاقتصادية إلى هذه المسألة ، تكون قد أنزلت الإنسان من مكانته السامية إلى الحضيض ، وذلك لأنك لم تميّز بينه وبين أى سلعة حقيرة تطرح للبيع بالسوق ، وذلك باستعانتك ببرهان العرض والطلب . فهل يجوز أن نساوى الآدميين بالأشياء ؟ وهل نعتبر الإنسان مجرد سلعة ، أعنى أنه مجرد وسيلة تستخدم لتحقيق أهداف معينة ؟ وهل تدرك المدى الذى يمكن أن يمتد إليه هذا المبدأ الخطير ؟ إنك بمبدئك هذا يمكن أن تنادى بوجوب قتل جميع المسنين ، بل وقتل الأطفال الزائدين عن حاجة المجتمع والمشوهين وضعاف العقل منهم ، بل وأيضًا قتل جميع العاطلين الزائدين عن حاجة المجتمع . وبتعبير أصرح فإنك ترغب فى الهبوط قسرًا بتعداد الوطن إلى المعدل المناسب . فأنت لايهمك مدى طهر الوسيلة المستخدمة بإزاء أى مشكلة ، بل كل ما يهمك ، هو التوصل إلى النتيجة المرجوة ، بغض النظر عن الوسيلة المستخدمة . فأنت إذن ممن ينادون بأن الغاية تبرر الوسيلة ، أعنى أنك مكيافيلىّ النزعة .

Looloo
www.dvd4arab.com

المؤيد : الواقع أن هذه النظرة الموضوعية إلى هذه المسألة ، بل وإلى غيرها من مسائل ، هى النظرة الخليقة بالاتباع . ولكن فى ضوء الضغوط العاطفية ، فإننا لا نجرؤ على المناداة بتطبيق كل ما تتطلبه هذه النظرة الموضوعية البحتة بإزاء جميع المسائل والمشكلات الإنسانية . ولكن عليك أن تعرف ، أن الناس كلما تقدموا فى مضمار الحضارة ، فإنهم يأخذون بنصيب أكبر من هذه النظرة الموضوعية . فسواء رضيت أم أبيت ، فإن المستقبل يقع فى قبضة هذه النظرة الموضوعية ، سواء بإزاء المسائل البشرية ، أم بصدد المسائل غير البشرية . ذلك أن الحضارة فى تقدمها ، تعمل على نبذ الأخذ بمنطق العاطفة ـ إذا كان للعاطفة منطق على الإطلاق ـ أعنى ما تتسم به المجتمعات البدائية ، بل إن الحضارة تنظر إلى مسألة الموت نظرة فاترة . ولك أن تقارن ما يحدثه اليوم موت أقرب الأقربين من أثر فى الأهل والأقرباء ، وبين ما كان يتركه من أثر فى قلوب وعقول أجدادنا . لقد كانت الحياة عندهم تتوقف عندما كان الموت يداهم أيًا من الأقرباء أو حتى أيًا من أبناء القرية . أما اليوم فإن الحياة تستمر بعد موت أقرب الأقرباء بغير توقف ، فبمجرد دفن الميت ، فإن كل شىء يعود إلى ما كان عليه قبل حدوث الوفاة . ولم يعد الناس يقضون الليالى يبكون ويولولون ويستمرون فى تلقى العزاء من الأقارب والجيران والمعارف ، طوال أربعين يومًا فى العديد من المناسبات بل نشاهد اليوم أن العزاء صار مقصورًا فى وأغلب الأحيان على تشييع الجنازة ، وبعدها ينصرف جميع المعزين إلى حال سبيلهم . ومعنى هذا إذا تأملت الواقع وتتبعت منطقه ، أن قيمة الميت مهما كان ، صارت قيمة ضئيلة ، إذا ما قيست بقيمته فى الأجيال السابقة . فكلما رجعت بنظرك إلى الوراء عبر التاريخ ، فإنك تجد أنه مع تقدم الحضارة ، فإن قيمة الفرد تتضاءل ، وبالتالى فإن حياته أو موته سيان . وكما سبق

أن قلت لك ، فإن كثرة عدد السكان ، تتواكب مع خفض قيمة الفرد ، أى أن قانون العرض والطلب ، الذى ذكرته لك آنفًا ، سارى المفعول بالنسبة للناس أيضًا ، ولا يقتصر على نطاق السلع فحسب .

المعارض : آسف جدًا لأنك تستعين بهذه النظرة الشيئية إلى الناس ، وقد ساويت بينهم وبين السلع . والواقع أن هذا هو المحور الجوهرى الذى تدور حوله هذه المناظرة . فبينما جعلت أنت الإنسان شيئًا غثًا قليل القيمة ، بحيث يمكن التخلص منه ، طالما أن اليأس قد دب فى قلوب وعقول الأطباء من إمكان شفائه ، فإنى أجعل أنا الإنسان غاية فى ذاته ، بل وأجعل حياة المرء شيئًا مقدسًا لا يجوز انتهاكه ، أو العدوان عليه ، أو الاقتراب منه ، أى أنه تابو taboo ، أى شيئًا محرمًا ، ولا يجوز المساس به ، شأنه شأن قدس الأقداس عند بنى إسرائيل . وحتى بالنسبة لمسألة الإعدام ، فإن بعض الدول المتقدمة ، التى تقدر قيمة الإنسان حق قدرها ، قد استبعدته من سجل العقوبات ، وأخذت تنظر إلى مقترفى الجرائم المختلفة ، من وجهة نظر سيكولوجية ، فصار السجن فى أنظار المشرعين هناك ، بمثابة مصحة نفسية لعلاج المسجونين ، وليس للانتقام منهم كما ننظر نحن إليه . وبتعبير آخر فإن الإنسان الفرد ـ وليس المجتمع ـ فى نظر التقدميين هو الغاية المنشودة ، وهو الذى يجب عدم الهبوط به إلى مستوى الوسائل المستخدمة لأهداف أخرى . فهو فوق مستوى الموجودات جميعًا ، بل وفوق مستوى المجتمع . فهو ينزه عن أن يعامل كما تعامل الماشية ، ولا يجوز فى إطار أى ظرف من الظروف قتله ، حتى ولو كان الهدف من قتله ، تخليصه من الآلام المبرحة التى يتلوى تحت وطأتها ، نتيجة ما أصيب به من مرض وبيل ، أو لتخليص المجتمع من مشكلاته الاقتصادية أو من غيرها من مشكلات .

★ ★ ★

Looloo
www.dvd4arab.com

المناظرة الخامسة عشرة

حفظ النصوص الأدبية : الشعرية والنثرية ، ضرورة حتمية لتكوين شخصية الأديب ، إذ إنه لا يتسنى للمرء أن يصير أديبًا يشار إليه بالبنان ، إلا إذا استظهر الكثير من تلك النصوص الأدبية المختارة .

المؤيد : الواقع أن هذه المقولة بديهية ، وليست فى حاجة إلى من يؤيدها بالبراهين . فمن المعروف أن المرء لا يستطيع أن ينخرط فى مجال الأدب أو أن يشارك بالإبداع فيه بالكلام المنطوق أو بالكلام المكتوب ، إلا بعد أن يحفظ الكثير من الأشعار والقطع الأدبية النثرية التى قام الأدباء العظام بتدبيجها . ومن يخالف هذا الرأى ، فإنه يكون على غير علم بخبرات الأدباء فى شتى العصور والأجيال .

المعارض : أنا مختلف معك على طول الخط فيما تزعمه من أن حفظ النصوص الأدبية ، يشكل ضرورة حتمية فى تكوين شخصية الأديب . وبرهانى على هذا أن تلاميذ المدارس الذين فرض عليهم حفظ الكثير من النصوص الأدبية المختارة ، فحفظوها بالفعل ، لم يتسن لهم أن يصيروا أدباء ، وعلى العكس من هذا فإن الكثير ممن فشلوا منهم فى استظهار ما كان مقررًا عليهم حفظه من تلك النصوص ، قد صاروا أدباء يشار إليهم بالبنان . ناهيك عن أن هواة حفظ الأشعار والنصوص الأدبية لكى يرددوها بالمجالس وفى

المناسبات المختلفة ، ليسوا من الأدب فى شىء . ولعلى أجزم بأن حفظ النصوص الأدبية شىء ، وموهبة الإبداع الأدبى شىء آخر .

المؤيد : الواقع أنك تغالط وتغمض عينيك عن الحقيقة فيما ذهبت إليه وتدافع عنه . فمن تزعم أنهم حفَظة من الطلبة الذين قاموا بحفظ النصوص الأدبية المقررة والتى تم اختيارها بعناية بواسطة خبراء الأدب ، لم يحفظوها بنصها وفحواها جميعًا ، بل حفظوها بنصها فحسب . فأنت تعلم أن الأدب ليس كلامًا مرصوصًا فحسب ، بل هو كلام سيق فى مناسبات معينة ، متضمنًا معانى ومشاعر عميقة ، فيتحتم على من لديه موهبة أدبية أن يَسْبر أغواره ، وأن يدلف إلى أعماقه فيتفهمه ويعايشه . فالمعايشة الأدبية ضرورة حتمية لمن يبغى أن يصير أديبًا ، حتى يتسنى حدوث التفاعل المرجو بين النص الأدبى وبين المعانى والمشاعر التى يتضمنها فى قوام المتلقى الذى لا يكتفى بقراءته ، بل يستظهره من جهة ، ويتشرب ما يحمله من معان ومشاعر من جهة أخرى . فالنص الأدبى الذى يستظهره المرء وقد جرَّده من المعانى والمشاعر التى اعتملت فى قوام الأديب صاحب ذلك النص الأدبى ، يصير فى ذهنه بعد استظهاره استظهارًا تامًّا بمثابة جثة بلا روح . فالطلبة الذين حفظوا النصوص الأدبية المختارة ، ولم يتذوقوها ويَسْبروا أغوارها ، وبالتالى لم يقفوا على الدوافع والمشاعر التى حملت الأدباء مبدعى تلك النصوص على إلباس تلك المشاعر بالأثواب الكلامية الأدبية ، لا يتسنى لهم أن يصيروا أدباء يشار إليهم بالبنان .

المعارض : إنك تنسى أو تتناسى أن البيئات المتباينة ، والمستويات الحضارية التى عاش الأدباء فى نطاقها ، تتباين إلى حد بعيد عن البيئات الحضارية التى يحيا الإنسان الحديث فى إطارها ، كما أن

Loolo
www.dvd4arab.com

المستوى الحضارى الذى يعيش إنسان اليوم فى ظله ويتفاعل معه ، يختلف كثيرًا جدًا عن المستوى الحضارى الذى تفاعل معه الأدباء فى العصور الماضية . فكلما رجعنا إلى الوراء فى الزمان ، فإننا نجد أن الحضارات الماضية والسحيقة تتباين عن حضارتنا إلى حد بعيد . فالبيئات التى قدمت فيها تلك النتاجات الأدبية العظيمة ، تختلف اختلافًا جذريًا عما نحيا نحن فى ظله من بيئات . فالطالب الذى يحفظ شعرًا لامرئ القيس أو لأحد شعراء الجاهلية الآخرين . لا يستطيع أن يسبح بخياله فى تلك البيئة البدوية المغايرة بشكل جوهرى للبيئة الحضارية التى يعيش فى إطارها اليوم . فكيف تقول : إن الطالب الذى يحفظ الشعر أو النثر الفنى ، لا بد أن يتجاوب مع المشاعر التى اعتملت فى عقل وقلب مبدع الشعر أو النثر ، بينما يحس بأن البون شاسع جدًا بينه وبين الظروف التى أحاطت بالشاعر أو الناثر الفنى الذى أبدع ذلك الشعر أو ذلك النثر ؟ الواقع أن الغالبية العظمى من النصوص الأدبية القديمة ، لا تعدو أن تكون جثثًا لكائنات كانت حية عندما بدأت تخرج من أفواه قائليها ، أو عندما بدأت تسيل كلامًا مكتوبًا عن طريق أقلامهم .

المؤيد : إنك بهذا تغمط المخيلة حقها . فالحقيقة أن مخيلة المراهق الشاب أكثر خصوبة من مخيلة الكهل والشيخ . ومن ثمَّ فإن النصوص الأدبية المقررة بالمرحلتين الإعدادية والثانوية ، تعمل على استثمار مخيلات الطلبة خلال هاتين المرحلتين ، بحيث يسْبحون بها فى آفاق تلك البيئات التى عاش فيها الأدباء القدامى ، بل إن يمستطاعهم أن يسبروا أغوارها ، وأن يعايشوا مبدعيها من جديد . فواقع الأمر أن الشعر أو النثر الفنى الذى يعبر عن العواطف الجياشة يتسم بالعمومية . فموضوع الحب بين العاشق ومحبوبته مثلاً لا يتغير

ولا يتبدل عبر الزمان . فالمشاعر الإنسانية بإزاء هذا الموضوع وأمثاله من الموضوعات التى يتناولها الأدباء ، هى مشاعر راسخة تتصل اتصالاً حميمًا بالطبيعة البشرية ولا ترتبط ببيئة بعينها دون باقى البيئات . فهى الجوهر والأساس الذى تتبعث منه الرغبة فى حوك الشعر أو النثر الفنى . أما الظروف الخارجية والأحوال المعيشية التى عاش الأدباء القدماء فى إطارها ، فإنها تحتل مرتبة ثانوية إذا ما قورنت بالديناميات النفسية التى أفرخت الشعر أو النثر اللذين دبّجهما الأدباء عبر العصور المتباينة .

المعارض : أحب أن أقرر حقيقة مؤكدة ، هى أن حفظ النصوص الأدبية عن ظهر قلب ، لا يجدى نفعًا بالنسبة لمن يريد أن يكون أديبًا ، بل إن ذلك الحفظ يعمل على تعويق موهبة الإبداع الأدبى . فمن الحقائق المؤكدة أن ثمة تعارضًا بين الذاكرة وبين الإبداع . وبخاصة ذاكرة الحفظ الاستظهارى . فمن تقابلهم من الحفظة الذين يستعرضون ألوانًا كثيرة من الشعر التى سبق أن حفظوها عن ظهر قلب ، يصعب عليهم أن يبدعوا شعرًا . وحتى إذا هم تكلّفوا ذلك ، فإن ما يقدمونه من شعر يكون شعرًا ركيكًا لا يرقى إلى مستوى الشعر الجيد .

المؤيد : إنك فى الواقع تلقى الكلام على عواهنه ، ولا تستند فيما تقوله إلى حقائق سيكولوجية راسخة البنيان . فالشعراء والأدباء عبر العصور كانوا من الحفظة . وأنا من جانبى لا أجد أن هناك تعارضًا بين أن يكون المرء حافظًا للكثير جدًا من الدواوين والمعلقات ، وبين أن يكون شاعرًا مبدعًا .

Looloo
www.dvd4arab.com

المعارض : ومن جهتى أقول لك : إنه قد فاتتك حقيقة مهمة ، وهى أن الأديب المبدع يتسم بالعصيان الذهنى ، أى أنه يكون عزوفًا عن تقليد الآخرين أو التأثر بهم ، فهو يرغب ، ويكون ملحًا فى الرغبة فى أن يكون نسيجَ وَحْده **Sui-generis** . فكل شعر أو نثر يقع عليه بصره ، لا يقبله ولا يستسيغه تمامًا ، بل يجد فيه الكثير من النقائص والعيوب التى كان يتمنى ألا يعثر عليها فيه . فهو إنسان يرفض الموجود ، ويتشوّف إلى غير الموجود . وحتى بالنسبة للشعر أو النثر الذى يفرزه هو شخصيًا ، فإنه لا يكون راضيًا عنه كل الرضى ، بل يرفضه ولا يتقبله برغم أنه يعتز به . فهو يرى فيه الكثير من المثالب التى يتمنى أن يتحاشاها فيما سوف يفرزه من شعر أو نثر فى المستقبل . فالأديب المبدع شخص صعب المراس ، وصعب الإرضاء . صحيح أنه لا يتصف بالغرور الذى يدل على أنه شخص أجوف ، بل هو شخص يصبو إلى الكمال متحققًا فيما يقع عليه من شعر أو نثر ، ولكن ما يتمناه لا يعثر عليه فيما يقوم بالاطلاع عليه من أشعار أو كتابات أدبية . ولذا فإنه لا يقدّس ما يقرؤه من شعر أو نثر ، فيقبل على استظهاره . فما يكتشفه من عيوب فى الشعر أو فى النثر . يجعله متأبيًا عن استظهاره كما هو . من هنا فإنك تجد أن صاحب الموهبة الشعرية أو النثرية ، كثير التنقل من شاعر إلى شاعر آخر ، ومن ناثر إلى ناثر آخر ، لعله يعثر على ما يرضى عنه لدى كل شاعر أو أديب ممن يتنقل بينهم . ولكنه بالأسف لا يجد نفسه راضيًا عن أى من الأدباء الذين يطّلع على أعمالهم . فجميع ما دبّجوه مشحون بجوانب الضعف وبالشوائب التى تجعله ينبو عنهم الواحد بعد الآخر ، وبالتالى فإنه لا يقر له قرار ، ولا يطمئن إلى أى منهم فيركن إليه ، ويستظهر كل أو أكثر ما أبدعه من شعر

أو من نثر فنى . وبتعبير آخر فإن الأديب المبدع لم تتبلور شخصيته كأديب نتيجة ما حفظه من أشعار أو ما استوعبه من كتابات أدبية ، بل إنه صار أديبًا نتيجة ثورته ضد ما دبّجه السابقون عليه من شعر أو نثر .

المؤيد : قد يصح كلامك هذا بإزاء الأديب الذى تبلورت شخصيته ، وصار إمامًا وأستاذًا متفوقًا فى مجال الأدب . ولكن قبل أن تتبلور شخصيته ، وهو فى طور التلمذة ؛ فإنه لا بد أن يكون قد مر بمرحلة التشرّب الخيّرى ، ولا يكون مصدّرًا للأدب ، بل يكون متقبلاً ومتشربًا ما يحيط به من ثمار أدبية قام بتدبيجها فحول الشعراء والكتاب . فالواقع أن الخطأ الذى وقعت فيه ، هو أنك لا تميز بين فترة الإعداد التى يمر فيها الأديب منذ حداثته ، وبين المرحلة العمرية التى يكون فيها قد شب عن الطوق . فهل من الممكن أن نقول : إن الأديب يولد أديبًا ، ويكون فى غنى عن التلقى والاستيعاب ؟

المعارض : أنا لم أقل : إن الأديب فى مرحلة الطفولة والمراهقة ، أو حتى بعد أن يشب عن الطوق ، وتصير له شخصية أدبية مستقلة ، لا يتلقى ولا يستفيد من الثمار الأدبية التى قدمها غيره من أدباء قديمًا أو حديثًا ، بل قلت : إن الحفظ الإستظهارى للشعر والنثر لا يؤدى إلى تفكيل شخصية الأديب . وما أقصده بالضبط ، هو أن لدى الشخص الذى يتمتع بالمواهب الأدبية ، نزعة إلى الانتقاء ، أعنى أنه يحس بأن ما دبّجه الأدباء السابقون والمعاصرون ، لا ينبغى أن يفرض عليه فرضًا ، كما لا ينبغى أن يفرضه هو على نفسه فرضًا ، بل إنه يُمْعن فى الانتقاء من بين الكثير جدًّا مما يتسنى له الوقوف عليه ويروق له ، ويماشى مزاجه الشخصى ، فهو ينبو عن أى نتاج أدبى يجبر على حفظه . فالشخص المتمتع بالموهبة

Looloo
www.dvd4arab.com

الأدبية ، يكون فى الواقع متمتعًا بالحرية الذهنية ، التى تتأبَّى على الخضوع والرضوخ الفكرى ، وعلى القسر على الحفظ وشحن الذاكرة بالنصوص التى لم يقم هو شخصيًا باختيارها بنفسه . فهو يواكب بين التمتع بالحرية الذهنية ، وبين القدرة على الانتقاء من بين الكثير جدًا مما يستطيع أن يصل إليه من نتاجات أدبية . وأكثر من هذا فإن الشخص صاحب الموهبة الأدبية ، يكون خليقًا بالامتداد باختياراته إلى ما هو أبعد من نطاق الأدب . فواحد مثل نجيب محفوظ امتد باختياراته إلى الفلسفة ، كما امتد توفيق الحكيم باختياراته إلى القانون ، ويوسف إدريس إلى الطب . وهكذا دواليك بالنسبة لغيرهم من أدباء . فالأديب الحق هو ذاك الذى لا يسجن نفسه فى نطاق التراث الأدبى من شعر أو نثر ، بل هو ذاك الذى يتشوف جبهات جديدة وميادين مباينة ينتقى منها ما يروقه من مقومات . وبتعبير آخر فإن الأديب الحق ، هو ذاك الذى يكتشف علاقات جديدة بين الأدب وبين العلوم والفلسفات والخبرات الحيانية اليومية المتباينة . وكلما كان انطلاق الأديب إلى أنحاء شتى وخصبة ، فإنه يكون أكثر خصوبة وثراء . المهم أن الأديب الحق يتفاعل مع ما يماشى مواهبه وميوله ، ولا يحفظ عن ظهر قلب العديد من الأشعار أو النصوص الأدبية المختارة .

المؤيد : الواقع أن القصيدة الشعرية أو العمل الأدبى عمومًا غير قابل للتجزىء ، بل هو بمثابة كائن حى متكامل . فإذا اتبع المرء منهجك الانتقائى ذاك ، فإنه سوف يعمد بالتالى إلى تفسيخ تلك الكائنات الحية ، أعنى الأعمال الأدبية ، فيحيلها إلى أشلاء ممزقة بلا حياة ، وبالتالى فإنه لا يفيد منها على الإطلاق ، بل لا يستوعب منها سوى القشور فحسب ، فلا يسْبر أغوارها ، ولا يستفيد من لبابها وجوهرها .

المعارض : وأنا أقول لك : إن الأديب لا يتناول العمل الأدبى الذى قام بانتاجه أديب آخر باعتباره كائنًا حيًا متكاملاً ، بل يتناوله باعتباره مجموعة من المقومات التى يمكن تحليلها أو تقطيعها إلى أجزاء ، فيتشكل كل جزء منها من قوام مستقل قائم بذاته . فموقفه كموقف عالم البيولوجيا الذى يتناول الخلية التى هى مجرد جزء من قوام الكائن الحى . ولكنه فى تناوله لها ، يرى فيها كائنًا حيًا قائمًا بذاته . ومعنى هذا أن النظرة إلى العمل الأدبى باعتباره كائنًا حيًا ، يمكن أن تشمل العمل الأدبى كله ، كما يمكن أن تشمل جانبًا منه يكون شبيهًا بالخلية التى يتناولها عالم البيولوجيا بالمدارسة . والواقع ان هناك دوائر كثيرة متداخلة فى نشاط أى أديب . فمن الممكن أن يكتشف ذلك الكائن الحى المتكامل فى مجموع أعمال الأديب وليس فى أحد أعماله الأدبية فحسب ، بحيث يتكون من جماع إبداعاته كائن حى أدبى واحد متكامل ، كما يمكن أن يتناول قسمًا أو مجموعة من أعماله باعتبارها كائنًا حيًا ، كما يمكن أن يتناول أحد أعماله باعتباره كائنًا حيًا ، بل ويمكن أن يركز ذهنه فى بيت شعر واحد من قصيدة لأحد الشعراء ويعتبرها كائنًا حيًا قائمًا بذاته . والأديب المبدع هو ذاك الذى يتناول ما يمكن أن يرى فيه كائنًا حيًا دقيقًا ، فينعم النظر فيه . ولعل الأشخاص العاديين من غير الأدباء المبدعين ، لا يتمكنون من اكتشاف تلك الكائنات الحية الدقيقة فى أعمال الأدباء العظام . فهم لا يتناولون سوى السطح ، ولا يسبرون الأغوار العميقة فى العمل الأدبى الممتاز . ولعل أن يكون أدنى المواقف التى يتخذها المتناول للأعمال الأدبية الممتازة ، هو قيامه باستظهارها ، وبالتالى فإن الشخص الذى يكتفى بعملية الحفظ الاستظهارى ، لا يحصل إلا على القشور ، بينما تفوته الإفادة من الجواهر الثمينة التى يتضمنها العمل الأدبى الإبداعى .

Looloo
www.dvd4arab.com

المؤيد : إن ما تنعته بالقشور ، هو فى الواقع موسيقى الكلام . فلا شك أنك تعلم أن الشعر والنثر الأدبى يعتمدان على إيقاعات وأنغام معينة ، لا سبيل إلى تذوقها إلا لمن يتمتع بأذن موسيقية . ولا شك أنك تعلم أيضًا أن الإنسان عندما يبدأ فى الصراخ لحظة ميلاده ، فإن صراخه يكون متلبسًا بموسيقى إيقاعية رتيبة ذات طابع معين . فهو لا ينطق بكلام له معنى ، بل يؤدى موسيقى ذات إيقاع نمطى معروف نطرب لدى سماعه لأول مرة بعد ميلاده مباشرة ، فيهز أوتار قلوبنا ، لأن الموسيقى التى يتضمنها بكاؤه ، تحمل نغمات معينة تصل إلى قلوبنا بعد سماعها بآذاننا . وكلما انخرط ذلك الوليد فى النمو ، فإنه يُكسب بكاءه وضحكه أنغامًا معينة تروق له وتروق لمن يسمعها . وبعد أن يكبر ويتعامل مع الآخرين بلغة الكلام ، فإنه لا يستبعد الموسيقى من كلامه ، بل يستمر فى تطوير موسيقاه الكلامية بالطريقة الخاصة به ، ولكن ليس كل شخص يستطيع أن يكسب أو أن يطور موسيقى كلامه بالطريقة الجميلة . ولعل أرقى مستوى من التطوير الموسيقى للكلام يتبدى فى الشعر الجيد وفى الغناء المُشَجى ، أو قل إن الشعر فى أصله كان غناءً ، ولم يكن الشعراء يقرضون الشعر دون تنغيم . والشىء نفسه ينسحب بإزاء النثر الفنى . فالكاتب المتذوق لما يقوم بكتابته ، يجرى قلمه وفْق ما يجده متمشيًا مع موسيقى كلامية يجريها بينه وبين نفسه ، قبل أن يسجل كلامه على الورق . ونحن جميعًا فى أحاديثها التى نتبادلها مع الآخرين ، نتحكم فى أحبالنا الصوتية ، بحيث نُكْسب ما نقوله من كلام فى كل مقام ما يناسبه من أصوات . فما يسرنا من مواقف نعبر عنها بصوت معين ، وما يحزننا منها نعبر عنها بصوت آخر . وعندما نغضب فإن نغمات كلامنا تختلف عما نُكْسب كلامنا به من أنغام ننطق بها عندما نكون

فى حالة هدوء نفسى وارتياح أو سرور . وباختصار ، فإن ما أعتبرته أنت قشورًا ، لهو فى الواقع من أهم ما يتلحَّف به الأديب فيما يُصدره من كلام ، سواء كان شعرًا أم نثرًا فنيًّا .

المعارض : ولكن مما لا شك فيه أن ثمة علاقات وثيقة قائمة فيما بين ما أسميته أنت بموسيقى الكلام ، وبين المضمون المعنوى الذى يتضمنه ذلك الكلام ، سواء أكان كلامًا منطوقًا أم كلامًا مكتوبًا . أضف إلى هذا أن الكفة الراجحة عند الأديب ، إما أن تكون من حظ الأنغام التى يلبس بها كلامه ، وإما أن تكون من حظ المضمون المعنوى الذى يقدمه فى إطار كلامه . ولعلك تعلم أن الحضارة كلما تقدمت فى معارجها ، فإنها ترجِّح كفة المعانى التى يتضمنها الكلام ، على كفة الموسيقى الكلامية . والواقع أن الشعر الحديث خير شاهد على ما أسوقه هنا . فهو شعر يركز على المعانى والأحاسيس التى تعتمل فى ذهن وقلب الشاعر ، أكثر من تركيزه على الأنغام الموسيقية التى يتضمنها الكلام المنطوق أو الكلام المكتوب الذى يعبر عن تلك المعانى والمشاعر . ولعلى أزعم أن الشعر الحديث قد اقترب من لغة الكلام العادية المستخدمة فى الحياة اليومية اقترابًا شديدًا ، ويكاد الشاعر الحديث يتخلص من الجانب الأكبر من موسيقى الكلام المتمثل بوجه خاص فى السجع والمحسّنات البديعية .

المؤيد : وحتى إذا كان ما تقوله فيه شىء من الصحة ، فإن من المستحيل أن يستغنى الأديب عن موسيقى الكلام . فهو يستطيع أن يقوم بتطوير موسيقاه الكلامية كما يحلو له ، ولكنه لا يستطيع أن يستغنى عنها استغناء تامًا . وبتعبير آخر فإننا نقول إن لكل بيئة ، ولكل حضارة موسيقاها الكلامية التى تختص بها ، والتى تعمل على تطويرها بحيث تناسب ما يطرأ على ذوقها من تطورات . ولكن من

Looloo
www.dvd4arab.com

المستحيل أن تجد أديبًا يشار إليه بالبنان ، وقد خلا ما يسوقه من كلام منطوق أو من كلام مكتوب من الموسيقى الكلامية . وهذا ما يجعلنى أؤكد أن التطوير الموسقى الكلامى لا يتأتى إلا بالاكتساب والمرانة والتأثر بالآخرين . فكما أن صاحب الموهبة الموسيقية يلتحق بمعهد الموسيقى لكى يطوّر موهبته ويلبسها الأثواب الموسيقية المعروفة والمعترف بها اجتماعيًا وعند الثقات المسئولين عن الموسيقى ، كذا فإن الأديب لابد أن يعمِد إلى تطوير موسيقاه الكلامية بما يحفظه من أشعار ممتازة .

المعارض : دعنى أناقش مفهوم الاكتساب الذى حصرته أنت فى نطاق الحفظ الاستظهارى . فالواقع أن الاكتساب الموسيقى الكلامى يعتمد على ثلاثة أسس أود أن أستعرضها على النحو التالى .

فئة أولاً ـ **المصادر التى يكتسب منها المرء موسيقى كلامه** . فكلما كانت تلك المصادر على مستوى أسمى وأرقى ، فإن ما يكتسبه من موسيقى الكلام يكون أرقى وأسمى . والعكس أيضًا صحيح ، أى أن المرء الذى يلجأ إلى مصادر ضحلة أو رديئة يكتسب منها موسيقى كلامه ، فإن مكتسباته الخبْرية الموسيقية تكون ضحلة ورديئة بالتالى .

ثانيًا ـ **مدى غزارة المصادر التى يكتسب منها المرء موسيقى كلامه** . فكلما كانت تلك المصادر أكثر غزارة وتنوُّعًا ، فإن موسيقى الكلام التى يكتسبها تكون أكثر خصوبة وتنوعًا . ثالثًا ـ **سرعة التلقى** . فكلما كان المرء على جانب أكبر من السرعة فى تلقيه عن المصادر الخبرية الرفيعة والسامية ، ومن المصادر الكلامية الخصبة والمتنوعة ، فإن اكتسابه يكون بأكثر سرعة . وفى ضوء هذه الأسس الثلاثة أستطيع أن أقرر أن الركون إلى قصيدة بالذات يقضى المرء فى استظهارها يومًا أو بعض يوم ، يعمل على تعطيله عن اكتساب

الخبرات الموسيقية المتنوعة والممتازة من المصادر المتباينة . وما أستطيع أن أجزم به هو أن هناك فرقًا جوهريًا بين الحفظ الاستظهارى وبين التفاعل الخبْرى . فأنا أعتقد أن الأديب الحق ، هو ذاك الذى يتفاعل خبْريًا مع ما يقوم بقراءته دون أن يلزم نفسه بحفظ النصوص التى يقرؤها . ولعلى أشبّه ذهن الأديب بالمعدة . فالمعدة الجيدة هى تلك المعدة التى تستقبل أحسن صنوف الطعام وأكثرها فائدة للجسم ، وأغزرها تنوعًا ، ومدها بالطعام فى المواعيد المناسبة ، وعدم تعريضها للجوع ، كذلك حال ذهن الأديب ، فهو يفعل كما تفعل المعدة الجيدة . وكما أن على المرء أن يقدم إلى معدته الطعام ويترك لها الحرية فى أن تتقبل هذا وترفض ذاك من الأطعمة التى دخلت فى نطاقها ، كذا حال الأديب . فهو يقوم بقراءة هذا وذاك من الشعر والنثر ، ويترك مخه يتصرف بإزاء ما يرغب فى تقبله ، وبإزاء ما ينبو عنه ويرفضه . وبتعبير آخر فإنى أرفض منهجك القسْرى . ذلك المنهج الذى تضغط به على الأديب من الخارج ، فترغمه على أن يحفظ القصيدة أو النثر الأدبى كما هو ، أى أنك لا تترك لمخه الحرية فى التقبل والرفض ، بل تلزمه بالتقبل والاستيعاب . وهذا ما يتنافى مع طبيعة المخ البشرى الذى شبهته لك بالمعدة . فأنا أنادى بحرية الاختيار والانتقاء من بين العناصر الكثيرة التى يجب أن يعرضها الأديب على ذهنه ؛ ليختار من بينها ما يريد ، وليرفض منها أيضًا ما يجد أنه غير متمش مع مذاقه الشخصى .

المؤيد : أنا لا أجد أى تعارض بين حفظ النصوص الأدبية الممتازة ، وبين عملية الانتقاء ومماشاة الذوق الشخصى . وحتى بالنسبة للتقبل والرفض ، فالمنهج الذى أحبّذه ، لا يحول دون ذلك . فعلى الأديب أن يختار ما يجده مناسبًا لمزاجه من بين العديد من

Looloo
www.dvd4arab.com

الكتابات الأدبية . فهو يختار إنتاج الأديب الذى يقترب من مزاجه الشخصى ، أو يقترب من نمطه المزاجى ، وينسجم معه فيحفظه ويمتص رحيقه . ولا شك أن الانسجام كلما كان أكثر قوة بين طالب الأدب وبين أثيره أو الرائد الذى اكتشف أن مزاجه مطابق لمزاجه ، فإن النتيجة الحتمية تكون إذن هى الحفظ الاستظهارى لكل إنتاجه أو لمعظم إنتاجه . ومعنى هذا أن العامل العاطفى يلعب دورًا أساسيًا فى مسألة الحفظ . فكلما كان الحب قويًا بين الأديب وبين رائده الأدبى أو مثله الأعلى ، فإنه يكون أكثر التصاقًا به ، وأكثر تأثرًا بإنتاجه الأدبى فيعكف على استظهار كل كلمة صدرت عنه ، ويكون استظهاره متضمنًا استيعاب المعانى والمشاعر ، بل وأكثر من هذا فإن ثمة عملية روحية تقمصية تلعب دورًا فى هذا الصدد . فالروحان أعنى روح الأديب وروح مثله الأعلى يلتقيان ويتعانقان . ولكأن الأديب المتتلمذ قد تقمص شخصية ذلك المثل الأعلى . وليس هذا بالمستغرب . فلقد كان لكل شاعر فى الجاهلية جنى يلقنه الشعر . فلا يكون هو الذى يصدر عنه شعره ، بل كان ذلك الجنى الذى لبسه هو الذى يقرضه وينطقه به . ولعل أن يكون التفسير النفسى لهذا المعتقد الذى كان مسيطرًا على شعراء

الجاهلية ، نابعًا من تقمص كل واحد منهم لروح شاعر آخر من السابقين أو من المعاصرين ، أو قل : إن الواحد منهم كان يتقمص الكثير من أرواح أولئك الشعراء ، ويخرج من هذا التقمص بمركب خيرى يكسبه خصوصية يتمتع بها .

المعارض : إن التقمص الذى تقول : إن الواحد من الشعراء فى الجاهلية كان يعتقد أنه متقمص لروح جنى ، لم يكن فى الواقع سوى ما أدعو إليه هنا ، وهو استشفاف المثل الأعلى من عدة شعراء سابقين أو معاصرين ، أو هو الأخذ عنهم أحسن ما عندهم . ولكن ذلك

لا يتأتى للواحد منهم . بالحفظ الاستظهارى ، بل بما هو أعمق من هذا ، أعنى الإمساك بمقود الشعر نفسه ، أى اكتساب العوامل التى أثرت فى ذلك المثل الأعلى ومكنته من إنتاج ما أنتجه من الشعر الممتاز . فمن يحفظ استظهارًا وهو يعتقد أنه بذلك الحفظ قد ملك ناصية الشعر ، شبيه بمن يقلد أحد العباقرة فى ملبسه أو فيما يأتيه من حركات ، معتقدًا أن ما يرتديه ذلك العبقرى من ملابس ، أو أن ما يأتيه من حركات هو السبب فى عبقريته فيكون بذلك قد أعتقد أن المظهر السلوكى ، هو الجوهر الذى يعتمل فى قوام السلوك . ومعنى هذا أن من يستظهر شعر أحد الشعراء ، لا يكون قد قبض على ناصية الشعر ، ولا يتسنى له أن يأتى بمثله ، بل لابد من إحراز المقومات التى يمكن أن تثمر شعرًا عظيمًا كشعره أو أفضل منه .

المؤيد : لقد فاتك ما ذكره (وليم جيمس) العالم النفسى الأمريكى من أننا نفرح لأننا نضحك ، وأننا نحزن لأننا نبكى . فهو بهذه المقولة ، قد نبهنا إلى أن الإتيان بالمظهر السلوكى ، يؤدى إلى إحداث المقومات النفسية الداخلية التى يعتقد دائمًا أنها السبب الحقيقى فى الإتيان بذلك السلوك الظاهر للعيان . فالناس يعتقدون فى العادة أننا نضحك لأننا نفرح ، وأننا نبكى لأننا نحزن . ولكن ها هو علم النفس يطلعنا على حقيقة جديدة ، وهى أن الطريق مفتوح بين العوامل النفسية وبين السلوك الظاهرى . فكما أن دخيلة المرء تُفضى إلى السلوك الظاهرى ، كذا فإن خارجية السلوك تُفضى إلى السلوك الداخلى ، أعنى المشاعر النفسية من فرح أو حزن أو غير ذلك من ديناميات سلوكية . وعلى هذا فإننا نستطيع أن نقول : إن حفظ الشعر أو النثر عن ظهر قلب ، يؤدى حتمًا إلى تكوين الديناميات الداخلية اللازمة لتكوين الشاعر المبدع ، تمامًا كما أن توافر تلك الديناميات الداخلية لدى الشاعر تثمر شعرًا يقوله أو يكتبه .

Looloo
www.dvd4arab.com

المعارض : آسف أن أقول لك : إنك لم تصب الهدف فيما أوردته من حجة استعرتها من عالم النفس وليم جيمس . فما أوردته ينصب على المشاعر الوجدانية من فرح أو حزن ، ولا صلة له بديناميات الشخصية التى ينبغى أن تتوافر للأديب لكى ينتج أدبًا . فما يقوم الممثل بتمثيله من أدوار على المسرح كدور العالم مثلا ، قد يعمل على تلبُّسه بمشاعر العالم فى معمله ، ولكن تمثيله لتلك الشخصية لا يحيله إلى عالم بالفعل ، فعندما يقوم المرء بحفظ قصيدة شعرية حفظًا نصيًا استظهاريًا ، فإنه قد يتأثر بالمشاعر الوجدانية التى تتضمنها تلك القصيدة ، ولكن ذلك التأثر الوجدانى لا يكسبه المُكْنة الشعرية ، أو القدرة على قرض الشعر . فما يُكسبه تلك المُكْنة أو القدرة ، هو إحداث التفاعلات الخبْرية المستمرة بين آخر مستوى خبْرى توصل إليه ، وبين الخبرات الجديدة التى يكتسبها مما يطّلع عليه من شعر أو نثر . ناهيك عن التدرُّب المستمر عن طريق المحاولة والخطأ منذ نعومة الأظفار على قرض الشعر أو على كتابة القصة أو التعبير عن الذات بطريقة فجة تأخذ فى التبلور شيئًا فشيئًا .

فالواقع أن المرء يجب أن يكون هو المسيطر والموجّه لسلوكه الأدبى من الألف إلى الياء . وكما قلت لك : فإن الأساس فى تكوين شخصية الأديب ، هو التمسك بالذاتية المستقلة ، والتفاعل مع العناصر المنتقاة بحرية وبغير ضغط من أحد ، وعدم السماح بتغليب الشكل على الجوهر ، أو سيطرة شخصية أدبية معينة عليه ، بمن فى ذلك الشخصيات المرموقة من الأدباء الكبار . فأنا أرفض ذلك التقمص الذى أشرت إليه . وحتى إذا وجد المرء نفسه مقلدًا لأحد الأدباء أو متقمِّصًا له ، فعليه أن يحرر نفسه من ذلك التقليد والتقمص فى أول فرصة ممكنة . ذلك أن الأديب الخليق بالتبريز والتفرُّد ، هو ذلك

الأديب المتحرر من تقليد الآخرين ومن تقمصهم ، مهما كانوا على مستوى رفيع من التبريز فى مجال الأدب .

المؤيد : إنك تخطئ كل الخطأ عندما تعتقد أن التقليد الذى يصل إلى درجة التقمص ضار بشخصية الأديب . فالواقع أن أى أديب أو فيلسوف أو عالم ، لابد أن يمر فى ثلاث مراحل أساسية فى حياته : الأولى ـ مرحلة التقليد ، والثانية ـ مرحلة التقمص ، والثالثة ـ مرحلة التحرر والاستقلال عن الآخرين . ومن لا يمر بالمرحلتين الأوليين ، لا يستطيع أن يرتفع إلى مستوى المرحلة الثالثة ، أى مرحلة التحرر والاستقلال . فإنكارك وكراهيتك للتقليد والتقمص فى غير محله تمامًا . ولكن لك الحق إذا أنت رفضت اقتصار المرء على مرحلة التقليد أو على مرحلة التقمص ، دون أن يتسنى له بلوغ المرحلة الثالثة التى تكون شخصيته عندها قد تبلورت ، وصارت مستقلة فى الفكر والتعبير ، وتكون له سماته الذاتية المميزة له .

المعارض : الواقع أن ما ذهبت إليه أنت بإزاء هذه المراحل الثلاث خاطئ تمامًا . ذلك أن التقليد والتقمص يعنيان التقبُّل بغير اختيار . وهذا إذا حدث فى حياة أى أديب يشار إليه بالبنان ، فإنه يكون عاملا من عوامل تعطيل تحقيق ذاتيته ، ومعطلا له عن بلوغ مستوى أفضل من المستوى الذى توصل إليه بالفعل . فلو أن أديبًا كهذا قد بدأ بالاختيار والرفض منذ نعومة أظفاره ، ولم يولِه أيًا من الأدباء ، بل نشأ على التمييز بين الغث السمين ، وبين الردىء والجيد ، وتفرّد منذ صغره بشخصية مستقله ، لكان حاله أفضل من حاله الذى بلغه بالفعل ، ولارتقى إلى مستوى أرفع . فالخليق بالتربية السليمة ، أن تجعل من الناشئة شخصيات مستقلة . وحتى إذا هم قلَّدوا غيرهم من الأدباء الممازين ، فيجب التنبيه إلى عدم تقليد شخص بالذات ،

Looloo
www.dvd4arab.com

بل يجب تقليد النمط السلوكى المتمثل فى شخصيات كثيرة ، وغير مركز فى شخصية واحدة بالذات .

المؤيد : إنك بموقفك هذا تريد أن تطمس خصائص الطفولة والمراهقة والشباب ، بل تريد أن تجعل من الناشئة شخصيات متجردة من طبيعتها التى جبلت عليها . فأى دارس لعلم النفس يعلم جيدًا أن التقليد الذى ينتحى إليه الطفل وما يتقمصه من شخصيات يحبها ويعجب بها ، يشير إلى أنه طفل سوى ، وأن التقليد والتقمص لا يقتصران على أصحاب المواهب الأدبية فحسب ، بل يشملان جميع الناشئة بغير استثناء . فالتقليد والتقمص عبارة عن عمودين رئيسيين تقوم الشخصية السوية عليهما ، ولا يعملان على مسخها أو الحيلولة بينها وبين تحقيق ذاتيتها واستقلالها الذاتى وتفردها بطريقة معينة خاصة بها ، سواء فى الفكر ، أم فى التعبير والأداء . فكما أن الطفل لا بد أن يمر بمرحلة الحَبْو قبل أن يتسنى له الوقوف والمشى والجرى ، كذا فإن كل ناشئ لابد أن يمر فى حياته السلوكية بتقليد وتقمص بعض الشخصيات التى تعجبه وتشكل أمامه مثلاً عليا يقفوها ويضرب فى إثرها .

المعارض : قلت لك إن شخصية الطفل الأديب ، تتباين عن شخصية الطفل العادى المحروم من الموهبة الأدبية . فالطفل الأديب ينشأ منذ نعومة أظفاره ، متطلعًا إلى التميز بين الرائع والأقل روعة فى أى عمل أدبى يصادفه . وهو يقبل على الرائع ويستوعبه ، بينما ينحّى الأقل روعة جانبًا . فهو باحث دائب على قفو مثل عليا يرجو أن يعثر عليها فيما يتناوله من أعمال . وبتعبير آخر ، وكما قلت لك آنفًا ، فإنه شخصية صعبة المراس ، وليس من السهل إرضاؤها . ومن ثم فهو كثيرًا ما لا يُرْضى المعلمين ، لأنه يتأبّى عن تقبّل الكثير

جدًا مما يقدمونه إليه من مقررات دراسية ، محاولين قسره على استظهارها . ولك أن تقرأ **الأيام** لطه حسين ، وترى كيف أن شيخ الكتّاب الذى أرسل إليه كان يعامله بقسوة لتمرُّده وكثرة عصيانه على الاستظهار . وليس هذا شأن طه حسين فحسب ، بل هو أيضًا شأن جميع الأشخاص الذين لديهم مواهب إبداعية أدبية .

المؤيد : ولكن أليس الطفل الصغير عاجزًا عن التمييز بين مستويات النصوص الأدبية ، من حيث الجودة والرداءة ، أو عاجزًا عن المفاضلة بين الجيد جدًا والجيد مما يعرض عليه منها ؟

المعارض : إنه بالنسبة للطفل العادى ، فإن مثل هذا التمييز من الصعوبة بمكان ، أو حتى لقد يكون مستحيلاً . أما بالنسبة للطفل صاحب الموهبة الأدبية ، فإن هذه الموهبة تلعب دورها فى وقفه على الفروق والمستويات بين النصوص الأدبية المتباينة . فهو بالسليقة يستطيع أن يتذوق النصوص الأدبية ، وذلك بأن يلهم بواسطة تلك الموهبة بالروائع الأدبية ، أو بالمقومات الرائعة التى يتضمنها أى نص أدبى ، فيتفاعل معها وتصير من نسيج قوامه الخبْرى . وأحب بهذه المناسبة أن أوضح معنى التفاعل الخبرى الذى يمر فيه الأديب فى شتى مراحل نموه . إنه أشبه ما يكون بالتفاعل الكيميائى الذى تتأتى عنه مركبات كيميائية جديدة ، تتباين جوهريًا عن العناصر أو المركبات التى انخرطت فى العملية التفاعلية . فكما أن الماء ليس من طبيعة الأوكسجين ، وليس من طبيعة الأيدروجين ، على الرغم من أنه نتيجة تفاعل هذين الغازين ، كذا فإن النتاج الخبْرى أو قل المركب الخبْرى الذى يتأتى للمبدع نتيجة تفاعل موهبته الإبداعية الأدبية مع العناصر المنتقاة مما يعرض عليه من نصوص أدبية ، يتباين تباينًا جوهريًا عن العناصر التى استقاها من الواقع الخارجى . ولكن عليك

Looloo
www.dvd4arab.com

أن نضع فى اعتبارنا أن التفاعلات التالية جميعًا ، تتم بين آخر مستوى تراكبى خبرّى توصّل إليه الأديب مع العناصر الأدبية الجديدة التى قام بانتقائها من بين عناصر كثيرة يرفضها موجودة فى قوام النص الأدبى الذى يطّلع عليه . ومن الطبيعى أن المركّب الخبرّى الذى يتوصل إليه أى من الأدباء ، يختلف اختلافًا جذريًا عن المركب الخبرّى الذى يتوصل إليه غيره من أدباء . فكما أن لكل شخص بصمة خاصة به تختلف عن ملايين أو قل بلايين البصمات الخاصة بالأشخاص الآخرين ، كذا فإن بصمة الأديب الأدبية تختلف عن البصمات الأدبية الخاصة بغيره من أدباء يبدعون فى المجال الأدبى نفسه .

المؤيد : هل أفهم من هذا أن من الواجب إلغاء المقررات الدراسية الأدبية ، وعدم تقرير نصوص بعينها يقوم واضعو المناهج بانتقائها من بين التراث الأدبى الضخم ؟

المعارض : من الأفضل أن تتنوع المعروضات المنهجية ، أو المقررات الدراسية الأدبية ، بحيث يجد كل تلميذ أو كل طالب ما يستهويه منها . والواقع أن طريقة الإلزام بقطع أدبية معينة ، لكى يستظهرها التلاميذ أو الطلاب ، تعمل على تنفيرهم من الأدب ، بل وتعمل على إطفاء الروّعة التى كان من المتوقع أن يحسها التلميذ أو الطالب فى النص الأدبى . فالأديب الصغير يحب أن يكتشف مواطن الجمال فى النصوص الأدبية التى يختارها بنفسه . فكما أن من الأفضل وضع العديد من صنوف الطعام على المائدة ، وترك كل شخص من الجالسين إليها يتناول ما يرغب فى تناوله منها ، كذا فإن على المدرسة أو المعهد أو الكلية أن توفر المصادر الأدبية المتنوعة والغزيرة ، وأن تترك للتلاميذ والطلاب اكتشاف روائعها بأنفسهم دون

الحاح أو فرض لأى منها عليهم . وبتعبير آخر فإن المدرس يجب أن يستحيل من كونه ملقنًا إلى كونه مستشارًا . والمستشار يجب ألا يستخدم الضغط من الخارج على من يستشيره ، بل عليه أن ينتظر من يطلب منه الاستشارة فى أمر يهمه ، فيدلى له برأيه .

المؤيد : إنك بهذا تلغى وظيفة المعلم ، ولا تجعل له أى دور فى التدريس .

المعارض : أنا لا ألغيه ، بل أحاول تصحيح الوضع الخاطئ السائد الآن . فالواقع أن وظيفة مدرس اللغة العربية يجب أن تنحصر فى تعليم الفنون التطبيقية للاستقبال اللغوى من جهة ، وللتصدير اللغوى من جهة أخرى . وبتعبير آخر فإن معلم اللغة العربية يجب أن تقتصر مهمته على نطاق التدريب على فنيات اللغة ، استقبالاً وتصديرًا . أما مهمة توفير الكتب والمراجع والنصوص الأدبية التى تتضمنها مولفات الأدباء ، فهى مهمة أمين المكتبة . وكما قلت لك قبلاً فإن مدرس اللغة العربية يجب أن يحتل مكانة المستشار أو الصديق الذى يرشد صديقه إذا طلب منه إرشاده . ولكن بصفة عامة ، فإن صاحب الموهبة الأدبية يعشق القيام بنفسه باكتشاف الروائع الأدبية التى يجد نفسه قابلاً للتفاعل معها . أما التدخل القسرى وإلزامه ببعض النصوص الأدبية المختارة ، فإنه يقتل موهبته الأدبية .

المؤيد : إن ما تفترضه يعنى إحداث تغيير شامل فى النظام المدرسى .

المعارض : هذا صحيح ، ولكن ما أقترحه هنا يضمن ارتفاع مستوى التعليم بصفة عامة . ذلك أن الخطأ الخطير الذى تردّى فيه نظامنا التعليمى ، هو أنه مُبْقٍ على مفهوم المعلم الذى ظل قائمًا عبر

www.dvd4arab.com

العصور المتعاقبة بغير تطوير . فالمعلم فى أنظار المسئولين عن التعليم هو الملقّن للمعرفة وليس المدرّب عليها . ولكن فى ضوء التطورات التكنولوجية التعليمية التى تسمح للأطفال بأن يكتشفوا ما يناسب كلاً منهم من خبرات معرفية ومهارية وتذوقية وغير ذلك من خبرات ، فإن وظيفة المدرس يجب أن تتغير حتمًا ، وأن يستبدل بها مفهوم مناسب للمستوى الحضارى الذى بلغناه ، أعنى مفهوم المدرّب بدلاً من مفهوم الملقّن . وبتعبير آخر فإن على المدرسة والمعهد والكلية أن توفر للتلاميذ والطلاب فرص الاختيار من بين العديد من البدائل ، وذلك ضمانًا لتمتعهم بالحرية ، وحتى يحقق كل واحد منهم هويته الشخصية ، فلا ينصهر فى بوتقة الجماعة ، وتضيع بالتالى ملامح شخصيته ، بل يحتفظ بكيانه الشخصى الذاتى ، فيتسنى بذلك ظهور أدباء مبدعين ، يكون لكل واحد منهم سماته الخاصة به ، ولا يكون مجرد نسخة من العديد من النسخ المكررة ، أعنى زملاءه الذين يتشربون ما يفرض عليهم من مناهج خالية من الخيارات أو البدائل . وبتعبير آخر فإن التربية التى يجب أن تتحقق هى **التربية الفارقية** ، التى ينبغى أن تحل محل **التربية الأُحادية** التى تسيطر على أذهان المسئولين عن فلسفة التعليم فى مصر وفى كثير من الأقطار العربية ، بل وفى كثير من الأقطار الغربية .

المؤيد : الواقع أنك شخص رومانسى تحلّق فى أجواء بعيدة عن الواقع . فأفكارك الخيالية هذه تؤدى إلى نسف النظام التعليمى ، وذلك لأنك تجعل تقييم أعمال التلاميذ ومتابعة المعلم من المستحيلات .

المعارض : هذا غير صحيح . فلا أنا أعمل على نسف النظام التعليمى ، ولا أنا أجعل تقييم التلاميذ والطلاب ومتابعة المعلم من المستحيلات . والعكس هو الصحيح . فالواقع أن تحويل المعلم إلى

مدرّب ، يحصر مسئوليته فى هذا النطاق الخطير . فهل أنت راض عن المستوى المتدنى الذى وصل إليه التعليم عندنا ؟ أليس حصر مهمة المعلم فى التدريب يتيح الفرصة أمامه وأمام تلاميذه أو طلبته لكى يتم التدريب على فنون التعامل مع الكتب والمراجع ، وأيضًا على فنون التعبير بالكلام والكتابة ؟ وإذا كان هذا التحول من النظام الأُحادى إلى النظام الفارقى فى التعليم سوف ينفع جميع التلاميذ والطلاب ، فإنه بالأولى سوف ينفع أصحاب المواهب الأدبية ، الذين يكتشفون مواهبهم بأنفسهم ، بل ويكتشفون المصادر المعرفية التى تسمح لهم باستثمار تلك المواهب فى أعمال إبداعية يبدأون فى شق الطريق إليها منذ نعومة الأظفار . فالواقع أن التربية الإبداعية التى تغطى جميع المجالات وليس مجال الأدب فحسب ، هى الخليقة بالاتباع ونحن مقبلين على قرن جديد لا ينفع فيه اتباع النظام التعليمى العتيق الذى أتى عليه البلى منذ زمن بعيد ، ولكن العقول المتحجرة تتشبث به ، ولا ترضى عنه بديلاً .

المؤيد : أرجو أن أنتقل إلى نقطة أخرى خاصة بتكوين شخصية الأديب وعلاقة ذلك التكوين بالنصوص الأدبية واستظهارها . فأنا أرى أن من وسائل تشجيع حفظ النصوص الأدبية واستظهارها تلحين تلك النصوص المختارة ، وتمثيلها على مسرح المدرسة أو بحجرات الدراسة . فالواقع أن النصوص الأدبية وبخاصة الشعر منها ، يمكن أن تلحّن أو تمثّل . فما المانع من تشجيع الفرق الموسيقية المدرسية وجعل أهم أهدافها ، مواكبة إلقاء النصوص الأدبية بالعزف الموسيقى ؟ ألم يقم عبد الوهاب وأم كلثوم وأسمهان وغيرهم بتقديم بعض الروائع الشعرية ملحّنة ومغناه ، فاستقبلها الجمهور بحماس وسرور ؟ فلماذا لا نعود إلى هذا النهج ونأخذ به ونعممه فى مدارسنا ومعاهدنا وكلياتنا ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

المعارض : لا مانع من هذا برغم أنى أرى أن العصر الحالى لا يتقبل ما كان الناس يتقبلونه فى العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات . فالأمزجة قد تباينت تمامًا ، ولم يعد المراهقون والشباب كلفين بسماع الأغانى التى تتخذ من الأشعار الممتازة مادة للغناء . هذه واحدة . أما الثانية فهى أن الإبداع الأدبى هو إبداع فردى ، وليس إبداعًا جماعيًا . فالأديب المبدع يهرب من العلانية ، ويحب أن يعمل فى الخلوة والاعتكاف بعيدًا عن أعين الرقباء ، بل وبعيدًا عن التصفيق والتهليل . فخير ما يجب أن يُتبع هو كما قلت لك ، توفير الخامات المناسبة ، أعنى الكتب والمراجع الخصبة والمتنوعة أمام التلاميذ والطلاب ، ثم القيام بالتدريبات التى يحب أن تنحصر وظيفة المعلم فى نطاقها . فبهذا وحده يتسنى تربية المبدعين من أدباء المستقبل والحاضر معًا . ذلك أننا لا نقسم حياة الأديب إلى قسمين : أحدهما لإعداده ، والآخر لما يقدمه من إنتاج ، بل نرجو أن تكون حياة الأديب منذ طفولته متسمة بالاستقبال والتصدير ، أعنى المشاركة فى الاستيعاب الأدبى من جهة وفى الإنتاج الأدبى من جهة أخرى . ولا شك أن المنابر والمجلات المدرسية خير أبواق لما يقوم التلاميذ والطلاب بإنتاجه من أدب إبداعى .

المؤيد : إنك فى الواقع تركز ذهنك فى التربية بوجه عام ، ولا تركزه فى تربية الأدباء ، أو بتعبير آخر فإنك لا تركز ذهنك فى الظروف أو الشروط التى يجب توافرها حتى يتسنى للمرء أن يصير أديبًا . فأنا أرجو أن نظل فى نطاق قضيتنا ، وهى ما يفعله الحفظ الاستظهارى بإزاء تفتيق مواهب المرء الأدبية . فأنا أعتقد أن هذه المواهب لا تتفتق إلا عن طريق الحفظ الاستظهارى للنصوص الأدبية المختارة ، سواء كانت شعرًا أم نثرًا أدبيًا ، بينما تعتقد أنت أن هذا الحفظ ، لا يساعد على تفتيق تلك المواهب الأدبية .

المعارض : حتى إذا كان للحفظ الاستظهارى أثر فى تفتيق المواهب الأدبية ، فإن تأثيره ثانوى وليس تأثيرًا جوهريًا ، أو قل إن تفتيق المواهب الأدبية لدى المرء ، لا تترتب على القيام بذلك الحفظ الاستظهارى . أما العامل الجوهرى بهذا الصدد ، فهو ما أستطيع أن أسميه **بالتوظيف الخبرى** . فالواقع أن الأديب الحق ، هو ذاك الذى يقوم بتوظيف خبراته التى استقاها من الواقع الخارجى بعد أن يقيم فيما بينها علاقات متباينة . ومعنى هذا أن الخبرات التى يتلقاها المرء من الواقع الخارجى ، ولا يقوم بتوظيفها ، تموت أو تظل فى حالة حيادية إلى أن يتسنى له توظيفها . والتوظيف الذى نقصده ، هو ما أسماه الجاحظ الإبانة . فما لا يستطيع الأديب الإبانة عنه ، لا يعمل على تشكيل شخصيته كأديب . وبهذا التصور لما يعمل على تشكيل شخصية الأديب ، فإننى أكون قد استبعدت **المفهوم الاستقبالى** الذى تنوطه أنت بكل الأهمية والتأثير فى شخصية الأديب ، وأحللت محله **المفهوم التوظيفى الأدائى** . فبغير التمرس الأدائى بالنطق أو بالكتابة ، فإن المرء لا يستطيع أن يصير أديبًا . ولكن المسألة لا تقتصر على التوظيف أيًا كان ، بل إنها مشروطة بتلك التفاعلات الخبرية التى سبق أن أشرنا إليها . ذلك أن الخبرات التى يتلقاها المرء من الخارج ، بمثابة كائنات حية تتلاقح فيما بينها ، فيتأتى عن تلاقحها أجيال جديدة ، أو كما سبق أن قلنا فإن العلاقة بين تلك الخبرات التى يتلقاها المرء من الخارج ، بمثابة عناصر أو مركبات خبرية تتفاعل فيما بينها ، فيتأتى عن تفاعلها مركبات أكثر تراكبًا ، أو لقد ننظر إلى الخبرات التى يتلقاها المرء من الواقع الخارجى من منظور الرياضيات ، فنقول إن ثمة توافيق وتباديل يمكن أن يقيمها المرء فيما بينها ، فيحصل بذلك على علاقات أكثر وأخصب من عدد تلك

Looloo
www.dvd4arab.com

الخبرات التى تلقاها . وباختصار فإن تكاثرًا وتراكبًا يحدث بين الخبرات التى يتلقاها المرء من الواقع الخارجى ، سواء فسرناها بعلم الأحياء أم بالكيمياء أم بالرياضيات .

المؤيد : طالما أنك قد اعترفت بأن الحفظ الاستظهارى يعتبر عاملاً مؤثرًا على نحو ما من الأنحاء ، فإنى أعتقد أن ما يحفظه المرء من شعر أو نثر يشكل مصدرًا من بين ما يتلقاه الأديب من الواقع الخارجى . ذلك أن ما يتلقاه المرء ـ أديبًا كان أم غير أديب ـ من الواقع الخارجى ، لابد أن يكون مصاغًا فى قوالب لفظية . وبالنسبة للأديب ، فإنه لا شك يعكف على النتاجات الأدبية المختارة ، ويتناولها من حيث مضمونها المعنوى من جهة ، ومن حيث أسلوبها الذى سيقت فيه من جهة أخرى . وما تذكره أنت بإزاء التفاعلات الخبْرية ، لا بد أنها لا تنصب على المضمون المعنوى فحسب ، بل تنسحب أيضًا بإزاء الصيغ الكلامية التى سيق فيها النص الأدبى . فإذا ما تم استظهار النص الأدبى ، فإن ذلك يعنى أن المرء قد استقبل خبرات كلامية تخضع لمبدأ التفاعلات الخبْرية الذى تستمسك به ، تمامًا كما هو الحال بإزاء الخبرات المعنوية التى يحملها النص الأدبى فى قوامه ، وبالتالى فإن الأديب يتفاعل مع الشكل والمضمون جميعًا ، ولا يقتصر تفاعله على المضمون فحسب . وإخال أنك بعد هذا لا تجد مجالاً للهروب من الاعتراف بأن ما يعمل على تشكيل شخصية الأديب ، هو الحفظ الاستظهارى للنصوص الأدبية المختارة ، وما يترتب على ذلك الحفظ من تفاعلات خبْرية يتأتى عنها النمو الخبْرى للأديب ، وما يتواكب مع هذا النمو من إفصاح أو إبانة أو توظيف أدائى يمثل الإنتاج الأدبى الذى يقدمه الأديب إلى من يستقبلون أعماله الأدبية .

★ ★ ★

الفهـرس

الموضـــوع	الصفحة
المقـدمة	٣
المناظرة الأولى : المرأة يجب ألا تعمل فى أى وظيفة خارج البيت .	٥
المناظرة الثانية : ضرورة تدخل الدولة للقضاء على التفجر السكانى	٢٥
المناظرة الثالثة : لابد من استخدام الضرب فى تربية الأطفال	٤٤
المناظرة الرابعة : ضرورة صب الناشئة فى قوالب تربوية جاهزة ...	٦٣
المناظرة الخامسة : الدروس الخصوصية آفة خطيرة يجب القضاء عليها	٨٢
المناظرة السادسة : الاشتغال بالوظائف الحكومية أو غير الحكومية خطأ	١٠١
المناظرة السابعة : هجرة الشباب استثمار قومى للطاقات البشرية	١٢٢
المناظرة الثامنة : يجب الالتزام بقول الصدق بغض النظر عن النتائج	١٤١
المناظرة التاسعة : الصداقة مرهونة بالمصالح المشتركة بين الأصدقاء	١٦١
المناظرة العاشرة : الحب قبل الخطوبة ضرورى لاختيار شريك الحياة	١٨٠
المناظرة الحادية عشرة : الرقص بجميع أشكاله مرفوض لأنه نشاط دنىء	٢٠٠
المناظرة الثانية عشرة : السكنى مع أهل الزوج أو مع أهل الزوجة خطأ	٢٢٠
المناظرة الثالثة عشرة : وسائل الإعلام تقلل من أهمية الكتاب الثقافى	٢٤٠
المناظرة الرابعة عشرة : يجب السماح بالقتل الرحيم بعد اليأس من الشفاء	٢٥٩
المناظرة الخامسة عشرة : حفظ النصوص الأدبية ضرورة لتكوين الأديب	٢٧٨

Looloo
www.dvd4arab.com

أدبيات
نبع الآداب والثقافة المعاصرة

يوسف ميخائيل أسعد

مناظرات على الورق

هذا الكتاب يضم مجموعة من المناظرات حول خمسة عشر موضوعًا من الموضوعات التى تهم الرأى العام ، والتى كثيرًا ما تكون محورًا تدور حوله المناقشات الخاصة والعامة على السواء .

ولسوف يجد القارئ أنه أمام موضوعات خلافيَّة تثير فكره ، وتَحْمله على المشاركة بالرأى والقيام بوزن الحجج التى يقدمها هنا المؤيد والمعارض فى كل مناظرة من هذه المناظرات الهامة . فهذا الكتاب دعوة إلى مساهمة القراء وإعمال فكرهم فى القضايا التى يعرضها ؟

الناشر

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس ٢٨٢٧٠٠٤٠